رد افتراءات المبشرين

على

آيات القرآن الكريم

للدكتور

محمد جمعة عبد الله

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



رد افتـراءات المبشـرين

عـلى

آيات القـرآن الكـريم

للدكتور

محمد جمعة عبد الله

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى (لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وختم به النبيين ، وعلى إخوانه المرسلين ، الذين دعوا إلى عبادة الله وحده ، مخلصين له الدين .

وبعد ، فالديانات السماوية جميعها تدعو إلى عبادة إله واحد ، هو الله رب العالمين ، ليس كمثله شيء ، بديع السموات والأرض ، وله وحده الخلق والأمر فيهما ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، يغفر الذنوب جميعا لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

والديانات السماوية واحدة فى عقائدها ، وأصول العبادات والمعاملات ، ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولهذا قال تعالى :﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾[1] .

وإنما تختلف فى الفروع كصور العبادات وكمياتها وكيفياتها ، وقوانين التعامل ونحو ذلك حسب اختلاف استعداد الأمم والأزمنة والأمكنة ، ولذا قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[2] .

والقرآن الكريم هو كتاب الله الخالد ، أنزله هدى للعالمين : جنّهم وإنسهم ، عربهم وعجمهم ، من أهل الكتاب وغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[3] . ولهذا تعهد

(١) الشورى ١٣ (٢) المائدة ٤٨ (٣) أول الفرقان

الله بحفظه من التحريف والتبديل والنسيان ليكون حجة خالدة على العالمين إلى يوم الدين ، فقد كانت آياته تكتب وقت نزولها على الرسول ﷺ ويحفظها أصحابه فى الحال ، ويفهمون معناها ، ويعملون بمقتضاها .

وقد استمر عبر العصور ينقل تواترا : كتابة ، وقراءة ، وحفظا ، وصدق الله : ﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[١] . فلم يحصل فيه تغيير أو تحريف ، أو تبديل ، أو نسيان ، حتى لحرف واحد منه فصدق عليه قول الله تعالى : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[٢] .

ولما كان القرآن الكريم كذلك ، وخاتم الكتب السماوية وأشملها ، وأعظمها وأكملها ، جعله الله أمينا وحارسا على جميع الكتب التى تقدمته ، وشهيدا وحاكما عليها فقال تعالى : ﴿ و أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾[٣] . فما وافقه منها فهو حق ، وماخالفه منها فهو باطل .

كلمة عتاب لأهل الكتاب

هذا وقبل البدء فى مباحث هذا الكتاب أسوق كلمة عتاب إلى أهل الكتاب ، فقد كنا ننتظر منهم ونحن وهم من أسرة واحدة ، أسرة الديانات السماوية والتشريعات الإلهية ، وكتابنا وكتابهم تنزل من مكان واحد ، وخرج من مشكاة واحدة ، ودعوتنا ودعوتهم واحدة فى السبيل والغاية وأبونا وأبوهم واحد وهو ابراهيم (ص) خليل الرحمن ، فإذا لم تشفع لنا عندهم وحدة الأصل ، ورابطة النسب شفعت لنا وحدة العقيدة ولحمة الشريعة ، كان المنتظر — وأمرنا وأمرهم كذلك — أن يكون أهل الكتاب عونا لنا ضد العدو الخارجى ، أهل الديانات الأرضية والعقائد الوثنية ، وعبادة الأشخاص ، الذين لم يجدوا أنفسهم أهلا لعبادة الله ، والسعادة بتشريع السماء ، فعبدوا الأشخاص ، وشرعوا لأنفسهم من الدين مالم يأذن به الله ، وكان المنتظر من أهل الكتاب — وهم إخواننا فى الدين والنسب — إذا ناقشوا أو جادلوا أهل الإسلام فى شىء أن يكون ذلك بروح المودة والمحبة والتفاهم المخلص ، والرغبة

(١) الحجر ٩ (٢) فصلت ٤٢ (٣) المائدة ٤٨

الصادقة فى الوصول إلى الحقيقة بالتى هى أحسن .

ولكنهم كانوا علينا لا لنا ، وحربا ضدنا لا معنا ، فطعنوا فى كتابنا بروح العنف والشدة ، والحقد والضغينة ، وهاجمونا بدافع البغض والكراهة والبغى والعدوان ، وطعنونا فى صميم عقيدتنا وأصول ملتنا .

١ ـ فرموا الإسلام بالإكراه فى الدين ، وبالتعصب والدعوة إلى الفجور ، واتهموه بأنه سبب تأخر الشعوب ، فقال هـ . جيومان . ف . لوستير[١] : إن محمدا مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم ، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو .

ماأعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى ، إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس : أسلموا أو تموتوا ، بينما أتباع المسيح قد كسبوا النفوس ببرهم وإحسانهم . أ هـ

وقال المنسنيوركولى فى كتابه (البحث عن الدين الحقيقى) تحت باب الإسلام[٢] : فى القرن السابع للميلاد برز فى الشرق عدو جديد ، ذلك هو الإسلام الذى أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب ، لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب .

٢ ـ وقاموا بحملة تشكيك فى القرآن ونبى الإسلام محمد ﷺ فقال المبشرجون تاكلى : يجب أن نستخدم القرآن ـ وهو أمضى سلاح ضد الإسلام نفسه ـ بأن نعلم المسلمين أن الصحيح فى القرآن غير جديد ، وأن الجديد فيه غير صحيح[٣] .

ويزعم المبشر نلسن وغيره أن الإسلام مقلد ، وأن أحسن مافيه مأخوذ من النصرانية ، وسائر مافيه مأخوذ من الوثنية[٤] .

---

(١) فى مؤلفه الذى يدرس فى صفوف الشهادة الإبتدائية بمدرسة القديس يوسف للبنات فى بيروت ، وفى مدارس إرسالياتها تحت عنوان (تاريخ فرنسا) ٨٠ ، ٨١ (٢) والكتاب عبارة عن محاضرات فى التربية الدينية ، وصدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحى فى باريس طبع سنة ١٩٢٨ م

(٣) واجب المسلمين فى نشر الإسلام للأستاذ زيد فياض (٤) مفتريات اليونسكو للأستاذ عبد الله السمان ٢٠

وحكى الكونت هنرى دى كاسترى فى كتابه (الإسلام سوانح وخواطر) عن أحد المبشرين قوله : إن الرسول ﷺ كان يقرأ ويكتب فقرأ التوراة والإنجيل وأخذ تعاليمه منهما[1] .

وجاء فى كتاب مادة التاريخ الذى يدرس للصف الرابع بالمدرسة البطريركية فى بيروت[2] : واتفق لمحمد فى أثناء رحلته أن يعرف شيئا قليلا من عقائد اليهود ، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولا صـ٣١

والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما كان هو يتكلم ... وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة صـ٣٢ ، وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل صـ٣٦

ونقل كارليل فى كتابه الأبطال عن بعض كتاب الأوربيين : أن دين الإسلام كذب وأن محمدا لم يكن على حق[3] .

٣ ــ ويبذل المبشرون نهاية جهدهم لإخراج المسلمين من دينهم ، وتنفيرهم منه ، وبلغ من تحمسهم فى ذلك أن قال رئيس مؤتمر القدس[4] القس صمويل زويمر فى خطابه لهيئة التبشير :

... ولكن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية ، فإن فى هذا هداية لهم وتكريما ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ، وبالتالى فلا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها ، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الإستعمارى فى الممالك الإسلامية ، وهذا ماقمتم به خلال الأعوام السالفة خير قيام ، وهذا ماأهنئكم عليه ، وتهنئكم عليه المسيحية

---

(١) من أوربا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ٣١ (٢) ويحمل غلافه هذا العنوان (تاريخ محاضرات ج . إيزاك ــ حررها أ . البا للشرق الأدنى لطلبة الصف الخامس عن العصور الوسطى) راجع التبشير والاستعمار ٦٨ ، ٦٩ للدكتور مصطفى الخالدى والدكتور عمر فروخ (٣) أوربا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ٣٧ ، ٣٨ (٤) الذى عقد بها سنة ١٩١١ م

والمسيحيون جميعا[١] .

وأن قال وليم جيفور بالكراف : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة[٢] التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه[٣] .

٤ ــ وألف القمص زكريا بطرس رسالة بعنوان (بين المسيحية والإسلام) قدمها له القمص يوحنا بسطوروس ، ونشرتها كنيسة السيدة العذراء بطنطا : ادعى فيها أن القرآن يؤيد التثليث ويذكره فى آياته ، وأنه يشهد للمسيحيين الحاليين بالتوحيد ، وأنهم غير مشركين ، وغير كفرة ، وأن المسيح هو الله المتجسد .

٥ ــ ونشرت رسالة للأنبا شنودة (البابا شنودة حاليا) بعنوان (القرآن والمسيحية) قال فيها عن المسيح ــ توسلا للقول بألوهيته ــ فى صـ١ ، ٢ : إنه ولد بطريقة عجيبة لم يولد بها إنسان من قبل[٤] ولا من بعد ... ويقوم بمعجزات لم يعملها أحد مثله .

وأنكر فى تأكيد نسخ القرآن للتوراة والإنجيل فقال فى صـ٢ : ولم يذكر القرآن إطلاقا أنه نسخ التوراة أو الإنجيل ، بل على العكس ذكر أن المؤمنين ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل . وقال فى صـ٨ : إن كل ماسبق ينفى بأسلوب قاطع الفكرة الخاطئة التى ظنها البعض وهى أن القرآن نسخ التوراة والإنجيل ، من المحال أن يكون ناسخا لهما وفى نفس الوقت يدعو إلى الإيمان بهما ، ويحذرمن إهمال ذلك وأنكر تحريف أهل الكتاب للتوراة والإنجيل الموجودين حاليا ، فقال فى صـ٦ : وكون القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب فهذا يعنى صحة الإنجيل والتوراة وسلامتهما من التحريف ، وإلا فإنه يستحيل على المسلم أن يؤمن بأن القرآن نزل مصدقا لكتاب محرف .

وادعى بأن القرآن منح النصارى وظيفة الإفتاء فى الدين الإسلامى ، فقال فى صـ٤ : ولم يقتصر القرآن على الأمر بحسن مجادلة

---

(١) حقائق عن التبشير لعماد شرف ٣٣ (٢) يقصد حضارة أوربا الفاجرة
(٣) من الغارة على العالم الإسلامى ٣٩ (٤) أى حتى آدم ــ

أهل الكتاب ، بل أكثر من هذا :وضع القرآن النصارى فى مركز الإفتاء فى الدين وساق من الآيات مازعمه مؤيدا لادعائه . وزعم أن القرآن يصف النصارى الموجودين حاليا بالإيمان ، وعبادة الله ، وعمل الخير ، وأنهم من الصالحين الناجين من عذاب الله يوم القيامة ، وإن لم يؤمنوا . بمحمد ﷺ وكتابه ، إلى غير ذلك مما يتعارض مع الآيات القرآنية . والتعاليم الإسلامية .

وفى سنة ١٩٧٣ م ألقى البابا شنودة خطابا فى الكنيسة المرقصية الكبرى بالإسكندرية فى اجتماع سرى أعان الله على إظهار ماوقع فيه ، كله هجوم على القرآن ونبينا محمد ﷺ ، وعلى الإسلام والمسلمين .

ومما جاء فيه قوله : (يجب مضاعفة الجهود التبشيرية الحالية ، إذ أن الخطة التبشيرية التى وضعت بنيت على أساس هدف اتفق عليه للمرحلة القادمة ، وهو زحزحة أكبر عدد ممكن من المسلمين عن دينهم والتمسك به على ألا يكون من الضرورى اعتناقهم المسيحية ، فإن الهدف هو زعزعة الدين فى نفوسهم ، وتشكيك الجموع الغفيرة منهم فى كتابهم ، وصدق محمد ، ومن ثم يجب عمل كل الطرق ، واستغلال كل الإمكانيات الكنسية للتشكيك فى القرآن وإثبات بطلانه ، وتكذيب محمد) .

ثم قال-بالحرف الواحد ـــ : (وليعلم الجميع خاصة ضعاف القلوب أن القوى الكبرى فى العالم تقف وراءنا ، ولسنا نعمل وحدنا ، ولابد من أن نحقق الهدف ، لكن العامل الأول والخطير فيما نريد هو وحدة شعب الكنيسة ، وتماسكه وترابطه)[١] . كما نشرت رسائل أخرى من هذا القبيل .

ولما كانت تلك الرسائل تنشر بين المسلمين ،وماجاء بها يراد به التشكيك فى القرآن ونبى الإسلام ﷺ ، ويتعارض مع عقائدنا وماجاء فى قرآننا ، فى حين أن كل مؤلف منهم يدعى أن القرآن يؤيده

---

(١) من قذائف الحق للأستاذ محمد الغزالى ٦٢ ، ٦٣

فيما يفتريه ، ويستشهد بآياته فى غير موضعها تحريفا لها ، وانحرافا بها عما وضعت له .

أصبح من الواجب المحتم دحض مايتعارض منها مع تعاليم القرآن الكريم ، حفاظا على عقائد المسلمين من الزيغ ، وعلى كتابنا ورسولنا من التشكيك فيهما ، ودمغاً لما جاء فيها من أن القرآن يؤيد التثليث ، ويقر الاتحاد والحلول ، ولا يعارض التشبيه والتجسيم ويجعل من النصارى مفتين فى الدين وتصحيحا للآيات التى ينقلها كل مؤلف ناقصة حرفا أو كلمة ، أو مايبطل مدعاه ليفسرها على حسب هواه ، ويذهب بها إلى غير ماشرع الله ، ومن الله تعالى أستمد العون والتوفيق ،،،) .

د / محمد جمعة

الفصل الأول

فى الرد على ماجاء فى رسالة القمص زكريا بطرس مما يتعارض مع ماجاء به القرآن الكريم

وبه أحد عشر مبحثا

- الله ليس كمثله شىء .
- لا يعرف الله إلا الله .
- التوحيد والتثليث نقيضان لايجتمعان فى القرآن .
- منشأ عقيدة التثليث .
- القرآن لايشهد بالتوحيد للمسيحيين المعاصرين لنزوله ولم يؤمنوا به وبرسوله .
- والقرآن لايشهد لهم أنهم غير مشركين .
- والقرآن لايشهد لهم أنهم غير كفرة .
- المسيح ــ عليه السلام ــ بن مريم وليس ابن الله .
- المسيح ــ عليه السلام ــ ليس هو الله .
- الله منزه عن التجسد والحلول .
- حول عقيدة التجسد والحلول والصلب .

المبحث الأول

الله ليس كمثله شيء

قال القمص زكريا بطرس فى ص٥ :

كيف إذن تبحثون عن الله ، وتعرفون عقله وتدركون أفكاره . أ هـ

فقد وصف الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ بالعقل والتفكير ، والله منزه عن ذلك لأمور :

(١) لأن الله ـــ جل وعلا ـــ لايوصف ولا يسمى إلا بما وصف وسمى به نفسه فى كتابه الكريم ، أو سنة رسوله ﷺ الصحيحة الصريحة ، لأن ذلك توقيفى ، ولم يصف أو يسم ـــ سبحانه ـــ نفسه فى قرآنه المهيمن والأمين على سائر الكتب المتقدمة ، ولا فى سنة رسوله ﷺ بالعقل والتفكير ، فالله قد أحاط بكل شيء علما ، من غير إعمال عقل أو تفكير ، قال تعالى : ﴿ **عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾(١) .

(٢) ولأن العقل آلة التمييز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، والشيء وغيره ، والتفكير ترتيب أمور معلومة للتوصل بها إلى معرفة أمور مجهولة ، وذلك من صفات البشر ، والله منزه عن مشابهتهم ، قال تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾(٢) .

(٣) ولأن التفكير يكون ممن يجهل عواقب الأشياء ، ولا يعرف مصير الأمور ، تنزه الله عن ذلك ، فهو القائل : ﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾(٣) ، والقائل : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾(٤) .

---

(١) سبأ ٣ (٢) الشورى ١١ (٣) آخر الشورى (٤) الملك ١٤

المبحث الثانى

لايعرف الله إلا الله

وقال فى صـه أيضا : **الروح يفحص كل شىء حتى أعماق الله . أ هـ**
وردا لذلك أقول :

(١) المعروف عن الروح فى القرآن الكريم عندما يسند إليه شىء ، أنه جبريل — عليه السلام — قال تعالى : ﴿ **نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا** ﴾[٢] . وقال : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها** ﴾[٣] ، وجبريل-عليه السلام — وأى مخلوق — مهما كان علمه وفضله — لا يدرك ذات الله ولا يعرف كنهها وحقيقتها ، قال تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾[٤] .

وقال : ﴿ **يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما** ﴾[٥] . وقال : ﴿ **وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾[٦]. والمثل الأعلى : المثل البديع الذى ليس لغيره مايدانيه

ونهى سبحانه عن تشبيهه ، أو تمثيله بالغير ، فقال تعالى : ﴿ **فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون** ﴾[٧].

وقال على — كرم الله وجهه —:(إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار) .

(٢) وأيضا لا يُعرف الغائب إلا بقياسه على الحاضر ، قياس الأشباه على

---

(١) الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤ (٢) النبأ ٣٨ (٣) القدر ٤
(٤) الأنعام ١٠٣ (٥)طه ١١٠ (٦) الروم ٢٧ (٧) البقرة ٢٢

النظائر ، والله ـــ سبحانه ـــ لا مثل له ولا نظير ، فشتان بين المخلوق والخالق ، وبين الفانى والباقى ، ولذا قال سبحانه : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا** ﴾(١)، أى هل تعلم من يسمى باسمه ، أو يسمو إلى منزلته وعظمته .

وعن عبدالله بن مسعود قال : سألت النبى ﷺ : أى الذنب أعظم عند الله ؟

قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » رواه الشيخان(٢) .

(٣) إننا نعرف جلال الله وعظمته بمخلوقاته ، ولكننا لا ندرك كنهه ولا ذاته .

ومن العجب أنه بعد أن دون ماسبق فى رأس الموضوع ، عاد فناقض نفسه ، فنقل عن أبى بكر الصديق (ض) قوله : (البحث فى ذات الله إشراك ، والجهل بذاته إدراك) وعن الجنيدى قوله : (لا يعرف الله إلا الله)

ولكنه عاد إلى الخلط والتجسيم ، وتشبيه الله بمخلوقاته ، فقال فى صـ١٧ : المسيح هو الله المتجسد . المسيح هو الكلمة المتجسدة . المسيح هو ابن الله المتجسد . وقال فى صـ١٨ : وابن الله من له طبيعة الله ، وفى صـ١٩ قال : هل خلت السماء من الله عند تجسده ؟

* * *

المبحث الثالث

دحض افتراءات النصارى
أن الثالوث مذكور فى آيات القرآن

ويشتمل على : التوحيد والتثليث نقيضان لا يجتمعان فى القرآن . القرآن يحطم الثالوث ويتوعد الداعين إليه . تهديد من الله ووعيد شديد لمن يحاولون بعث الثالوث من جديد . حول عقيدة الثالوث .

---

(١) مريم ٦٥ (٢) اللؤلؤ ١ / ١٦

« التوحيد والتثليث »
نقيضان لا يجتمعان فى القرآن

قال القمص زكريا بطرس فى رسالته (بين المسيحية والإسلام) صـ ٦ : عقيدتنا : الله واحد فى ثالوث : الآب ، والكلمة ، والروح القدس.وقال فى صـ ٩ : تقول الآية : (الشهود فى السماء ثلاثة : الآب ، والكلمة ، والروح القدس . هؤلاء الثلاثة هم واحد) ثم قال : فلا نقصد من التثليث أن هناك ثلاثة آلهة بل إله واحد وهذا الإله الواحد موجود بذاته ويطلق على ذلك الآب : ناطق بكلمته ، ويطلق على ذلك الابن : حى بروحه ، ويطلق على ذلك الروح القدس .

ثم زعم أن القرآن يؤيد ثالوثه فقال :

ويذكر القرآن هذا الثالوث فى آياته كما يتضح من الآتى :

سورة النساء : ﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** ﴾ فيتضح من هذه الآيات الثالوث الذى نؤمن به ذات الله ، والكلمة ، والروح القدس .

وللرد على ذلك أقول :

لو أنه اقتصر على نشر هذه العقائد بين أهل دينه ، ولم يعمل على نشرها بين المسلمين ، ولم يدَّع أن القرآن الكريم ــ كتاب التوحيد الخالص ــ يؤيدها ، لما تعرضت للرد عليه ، وقلنا كما قال الله : ﴿ **لكم دينكم ولى دين** ﴾ أما وقد فعل الضد فلا مجال إلا الرد إجمالا ، ثم تفصيلا ، فأقول : بعد أن قام أصحاب الثالوث ودعاته ، بتقسيم الله (سبحانه) إلى ثلاثة أقانيم[1] . أو أجزاء لكل منها طبيعة الله (كما يقولون) فجعلوا الله الواحد ثلاثة ، قاموا بتوزيع أعمال الكون بينها ، فخصصوا لكل واحد مجموعة من العمل لا يشاركه فيها غيره .

---

(١) قال الأستاذ محمد مجدى مرجان فى كتابه (الله واحد أم ثالوث) صـ٩ : الأقانيم كلمة سريانية الأصل مفردها أقنوم ، وهى تعنى شخصا أو كائنا مستقلا بذاته ــ وقال فى المنجد الأقنوم ج أقانيم : الشخص ، سريانية الأصل

قال الأستاذ محمد مجدى مرجان[1] : فالله الآب ينسب إليه الخلق والتبنى والدعوة .

أما الله الابن ، فينسب إليه فداء البشرية وغفران الخطايا والذنوب ، أما الله الروح القدس فينسب إليه منح الميلاد الثانى ، والحياة الطاهرة للبشر ، وتقديس النفوس .

ومعنى ذلك أن الله الآب لا يستطيع غفران الذنوب ، وأن الله الابن ليس من اختصاصه تقديس النفوس ، وأن الله الروح القدس لا يملك الخلق . أ هـ .

هذه هى عقيدتهم التى فلسفوها وأرادوا نشرها بين المسلمين كما بينها من نشأ فيهم وتحرر منهم وصدق الله حيث يقول : ﴿ **ماالتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾[2]. وحيث يقول : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا** ﴾[3].

إن الإسلام الذى قوامه التوحيد الخالص هو دين محمد ودين المسيح ، ودين الأنبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام ، ولكن الجمع بين دين القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبين الديانة المبنية على أن الواحد ثلاثة حقيقة ، والثلاثة واحد حقيقة من المحال ، إذ كيف يمكن الجمع بين التوحيد والتثليث فهذه معادلة يستحيل تحقيقها ولا يمكن لعاقل أن يستسيغها ، ولذا قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره ٣ / ٤٣٦ : وزعموا أن الآب إله ، والابن إله ، والروح إله ، والكل إله واحد ، ثم قال : واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل ، فإن الثلاثة لا تكون واحدا ، والواحد لايكون ثلاثة ، ولا يرى فى الدنيا مقالة أشد فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى . أ . هـ على أن القاعدة عند المسلمين أنه إذا تعارض ظاهر النقل مع العقل السليم قدم العقل وصرف النقل عن ظاهره المستحيل ، فكيف إذا كان العقل السليم والنقل الصحيح المتواتر يقفان فى وجه ماجئت به ، ويعلنان عليه حربا ضارية ، لايقف أمامها شىء .

تتبع أدلة التوحيد الخالص فى القرآن الكريم ، وكتب العقيدة عند المسلمين ،

---

(١) المرجع السابق ص٢٧ (٢) المؤمنون ٩١ (٣) الاسراء ٤٢ ، ٤٣

فسوف تجدها لاتقف عند حد ، وانظر إليها بعين الإخلاص ، فستجذبك إليها كما جذبت غيرك ، وسيجرفك تيار التوحيد إلى الإله الواحد فى كل شىء . الذى ليس كمثله شىء .

وأعود إلى الرد على كلامه تفصيلاً فأقول : قال : عقيدتنا الله واحد فى ثالوث : الآب والكلمة والروح القدس .

فبناء على كلامه يكون الله هو الكلمة ، وقد أكد ذلك فى صـ ١٠ فقال : الكلمة هو الله ، والكلمة هى المسيح ، فالله هو المسيح ، وذلك باطل عقلا ونقلا . أما عقلا فالخالق وهو الله غير المخلوق ، وهو المسيح عليه السلام ، والمحدث غير الحادث ، فكيف يكون هو ؟ فإن قلتم بأن عيسى المسيح غير مخلوق فقد قلتم بتعدد الآلهة فكيف تدعون أنكم موحدون ؟ وأيضا القرآن الذى تستشهدون به والسورة التى تستدلون بما جاء فيها وهى سورة آل عمران ، والآية التى ذكرتها من هذه السورة فى صـ ١٠ وهى ﴿ **إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم** ﴾ وما جاء بعدها ، فى ذلك مايثبت أن المسيح مخلوق كما خلق غيره من الرسل وسائر البشر والعالم جميعه ، قال تعالى : ﴿ **إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾[١] فبشرها به قبل أن يخلقه وأعلمها أنه سيخلقه ثم خلقه وحتى لايعجب أحد من خلق عيسى من غير أب ، قال تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾[٢] .

وأما نقلا فلقوله تعالى ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾[٣] .

---

(١) آل عمران ٤٥ ــ ٤٧ (٢) آل عمران ٥٩ (٣) المائدة ١٧

وقوله سبحانه : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾[1] .

قال الأستاذ السيد رشيد رضا عند تفسيره للآية الأولى فى ٦ / ٣٠٨ : فجميع فرق نصارى هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وأن المسيح ابن مريم هو الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وبناء على كلامه أيضا يكون الله هو الروح القدس ، والروح القدس هو الله ، وهذا لا يقره عقل سليم ولا نقل صحيح من كتاب سماوى معصوم .

أما العقل فلأن روّح القدس عندهم ليس اسما ولا صفة لله تعالى ، لأن أسماءه وصفاته وكمالاته جل جلاله لا نهاية لها ، بل هو عندهم جوهر الله . تعالى الله عما يقولون .

قال الأستاذ يس منصور : إن الروح القدس هو الأقنوم الثالث فى اللاهوت ، وهو ليس مجرد تأثير أو صفة أو قوة ، بل ذات حقيقى وشخص حى ، وأقنوم متميز ولكنه غير منفصل ، وهو وحدة أقنومية غير أقنوم الآب وغير أقنوم العلم ومساولهما فى السلطان والمقام ، ومشترك وإياهما فى جوهر ولا هوت واحد[2] .

وحيث إن الروح القدس مساو لله فى كل شيء فإن كان تصرفه فى الكون هو نفس تصرف الله كان وجوده مع الله عبثا وإن كان غيره لزم عجز الله عن بعض مافى كونه وذلك محال ، لأنه صاحب العلم المحيط والإرادة الكاملة والقدرة الشاملة **وأما النقل** فالروح[3] تطلق ويراد بها الوحى الإلهى كما فى قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا** ﴾[4] وتطلق ويراد بها القوة التى يؤيد الله بها المؤمنين المخلصين كما فى قوله تعالى : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم**

---

(١) المائدة ٧٢

(٢) الله واحد أم ثالوث ١١٦ (٣) قال فى المختار : الروح يذكر ويؤنث والجمع الأرواح ، ويسمى القرآن وعيسى وجبرائيل عليهما السلام روحا ، والنسبة الى الملائكة والجن روحانى بضم الراء ، والجمع روحانيون ، وكذا كل شيء فيه روح روحانى بالضم .

(٤) الشورى ٥٢

الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾[1] وهذه القوة تشمل الملائكة الأطهار ، وتشمل الرعب الذى يلقيه الله فى قلوب الأعداء ، والوحى الإلهى الذى يؤيد الله به المؤمنين الصادقين ، وكم لله من قوة معنوية يؤيد بها المجاهدين فى سبيله ، وتطلق الروح ويراد بها جبريل عليه السلام كما فى قوله تعالى : **﴿ نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾**[2] وقوله تعالى : **﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾**[3] والراجح أن روح القدس هنا جبريل بدليل قوله تعالى :

﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾[4] وروح القدس أى الروح المقدس أى الطاهر . وجبريل خلق من خلق الله فكيف يكون هو الله أو مساويا له ؟ وقوله تعالى : **﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾** يعطينا أن روح القدس خاضع لتعاليم الله وتحت تصرفه وأمره سواء كان روح القدس هو جبريل أو قوة غيبية أو وحيا من الله ومن كان خاضعا لله وتحت تصرفه وأمره كيف يكون هو الله أو مساويا له ؟

وأيضا يقول الله فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذى تستدلون بآياته : **﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾**[5] وهذا قصر يعطينا أن خلق كل مافى الكون وتصريفه لله وحده ليس لغيره من ذلك شيء ولذلك قال ابن عباس من بقى له شيء فليطلبه ، فأين مابقى للأقانيم من عمل فى هذا الكون ؟

فما هذا العبث ، وكيف تقولون بآلهة لا عمل لها ؟

لقد توالت الآيات وتتابعت فى القرآن الكريم معلنة أنه لا شيء لأحد مع الله فى هذا الكون على الإطلاق ، فقال تعالى بصيغة الحصر والقصر **﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل**

---

(١) أخر المجادلة (٢) الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤
(٣) البقرة ٨٧ (٤) النحل ١٠٢ (٥) الأعراف ٥٤

عما تعملون ﴾[١]وقال : ﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾[٢]فأين مابقى لغير الله من الثالوث ؟ إن أعضاء الثالوث الذين لا عمل لهم لا يصح وجودهم مع الله الذى يقول : ﴿ **له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير** ﴾[٣]ولذا قال الأستاذ محمد مجدى مرجان : إن دعوة الثالوث ظلت مجهولة عن البشر وعن كافة الأنبياء منذ أن خلق الله العالم حتى طلع بها علينا دعاة الثالوث .

أما الأنبياء كافة فقد نادوا دوما بوحدانية الخالق مدبر الوجود الذى لا يساويه ولا يماثله أحد والذى لا يشبهه ولا يدانيه شئ بل هو سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد منذ الأزل والى الأبد .

قال بهذا كل الأنبياء ونزلت به جميع رسالات السماء وسطرته كافة الكتب السماوية التى يقدسها البشر من جميع الأديان . سواء منها التوراة أم الإنجيل أم القرآن[٤] . أ هـ

ثم انظر إليه كيف ينطق بما يشهد عليه فيقول :

(فلا يقصد من التثليث أن هناك ثلاثة آلهة ، بل إله واحد) فيريد أن يقنعنا بأن التثليث يدل على التوحيد فلوصح هذا لكان التوحيد يدل على التثليث ، وهذا لا يثبت فى لغة ولا يقول به عاقل.ولماذا هذا التأويل البعيد ، وكلامكم ينقضه ، فأنتم تقولون : كل أقنوم من الثلاثة مساو لله فى طبيعته وجوهره والله إله ، فكل أقنوم إله . يؤيد ذلك ماجاء فى صـ١٠ : روح القدس هو روح الله ، وروح الله غير مخلوق وغير المخلوق هو الله.والأستاذ عوض سمعان يقرر : فى كتابه (الله بين الفلسفة والمسيحية) أن الله رغم إعلانه لنا أنه واحد إلا أنه فى حقيقته وباطنه مكون من ثلاثة أجزاء ، وكل جزء من هذه الأجزاء والتعينات هو إله كامل[٥]. أ هـ

فهو يقرر أن الله رغم ظهوره للناس على أنه واحد إلا أنه فى حقيقته وداخليته ثلاثة آلهة ، فهو واحد فى الظاهر ، وثلاثة فى الباطن ، تعالى الله عن ذلك فهو

---

(١) أخر هود (٢) آخر الشورى (٣) الحديد ٢

(٤) الله واحد أم ثالوث ١٢٨ (٥) المرجع السابق ٢٤

القائل فى القرآن الكريم الذى تعهد بحفظه : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم** ﴾[1] . جل شأن الله ، فليس معه أو دونه إله ، وليس قبله أو بعده أحد ، وليس مظهره مخالفا لمخبره ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾[2] .

ثم يقول القمص زكريا :

(وهذا الإله الواحد موجود بذاته ويطلق على ذلك الآب ، ناطق بكلمته ويطلق على ذلك الابن ، حى بروحه ويطلق على ذلك روح القدس) ويوضح عقيدتهم هذه القمص ابراهيم فى كتابه (التثليث والتوحيد) صـ١٥٦ فيقول :

(إن الذات والد للنطق فيقال له الآب ، والنطق مولود من الذات فيقال له الابن والحياة منبعثة من الذات فيقال لها الروح القدس)[3] .

أقول : هل يسمى الله ناطقا وكلامه نطقا ؟ لم يرد فى القرآن المجيد المهيمن على غيره من الكتب تسميته ناطقا وتسمية كلامه نطقا ، لأن النطق من صفات الحوادث وما شابه الحوادث فهو حادث مثلها ، وإنما ورد فى القرآن تسمية الله متكلما وتسمية قرآنه كلاما ، فقال تعالى : ﴿ **وكلم الله موسى تكليما** ﴾[4] . وقال : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾[5] . لأن الكلام قد يكون بلا حرف وصوت وقديما قال الشاعر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وقال ابن تيمية وليس فى التوراة والإنجيل والزبور تسمية الله ناطقا[6] .

وقوله : حى بروحه يلزم مشابهة الله للحوادث لأنها هى التى تحيا بوجود الروح فيها والله منزه عن ذلك إذ ماشابه الحوادث فهو حادث ، ويلزم منه أيضا أن يكون الله مركبا من ذات وروح ، والمركب محتاج الى من يركبه ، فيكون حادثا ـــ وذلك محال ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

---

(١) الحديد ٣ (٢) الأنعام ١٠٢ ، ١٠٣ (٣) المصدر السابق ١١ (٤) النساء ١٦٤
(٥) التوبة ٦ (٦) الجواب الصحيح ١٤٥/٢

فلا يجوز أن تضاف الروح إلى الله ويراد بها مايريد الإنسان بقوله : روحى ، بل تضاف إليه على أنها ملائكته ، أو وحيه ، أو تأييده ، أو مخلوقه والله سبحانه يضيف إلى نفسه الأعيان التى يخصها بخصائص يحبها مثل كلمة الله ، ورسول الله ، ﴿ **وطهر بيتى للطائفين** .. ﴾[1] . ﴿ **عيناً يشرب بها عباد الله** ﴾[2] . ﴿ **ناقة الله** ﴾[3] .

وكذلك اختصت الروح الخيرة بأن يقال لها روح الله ، قال تعالى فى خلق آدم عليه السلام : ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[4] . وقال فى خلق الإنسان ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾[5] .

وقال فى خلق عيسى عليه السلام : ﴿ **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا** ﴾[6] . فالنسمة التى تبعث الحياة فى الإنسان روح من الله ، مخلوقة له سبحانه تعرف بآثارها ولا يعرف كنهها إلا الله قال تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[7] . والخلق والأمر ملك لله وتحت تصرفه وقهره كما سبق بيانه .

لكن الأرواح الخيرة تضاف لله فيقال لها روح الله أو أرواح من الله ، بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشياطين والكفار ، فإنها مع كونها مخلوقة لله لاتضاف إليه إضافة الأرواح المقدسة ، كما يضاف إليه تعالى الخير ولا يضاف إليه الشر تأدبا قال تعالى : ﴿ **وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا** ﴾[8] . وقال سبحانه على لسان ابراهيم : ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾[9] .

ومع هذه الأدلة العلمية والنقلية ، التى تنزه الله سبحانه عن مشابهته للحوادث ، يقول الأستاذ يس منصور ، إننا لا يمكننا أن نفهم الله إلا عن طريق تصوره بالصورة البشرية[10].

---

(١) الحج ٢٦ (٢) الإنسان ٦ (٣) الشمس ١٣
(٤) ص ٧١ ، ٧٢ . (٥) السجدة ٧ : ٩ (٦) الأنبياء ٩١ (٧) الإسراء ٨٥
(٨) الجن ١٠ (٩) الشعراء ٨٠ (١٠) الله واحد أم ثالوث ١٤

فالله فى نظر فلاسفة المسيحيين له كيان قائم بذاته كالإنسان تماما والله له ابن ، هو المسيح المتجسد ، كالإنسان كذلك ، والله حى بروحه كالإنسان أيضا ، ومن هذه الأقانيم ، أو العناصر الثلاثة ، يتكون الله ، كما يتكون الإنسان تماما .

بهذا المنطق الغريب يتحدث أصحاب الثالوث ، وبهذا المنطق العجيب ، يريدون أن يقنعونا بالثالوث ، والتعدد ويريدون أن ينشروه بين المسلمين ويحملوهم على اعتناقه وتقبله . يريدون هذا أو خيل إليهم ذلك فخالوه ، ونسوا أن المسلمين بكتابهم المجيد ، فى حصن حصين منه ، ويكفيهم من القرآن الكريم ، الذى يتمشى مع العقول ، قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شىء** ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد.الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد** ﴾[2] .

القرآن الكريم يحطم الثالوث ويتوعد الداعين إليه

وإن تعجب فعجب عجاب لدعاة الثالوث حين أرادوا الإمعان فى تضليل الدهماء من الناس وتغطية موقفهم المتهاوى أمام العامة ، فتظاهروا بأن فى القرآن ذكرا لثالوثهم وإشادة به ، فجاءوا بآية منه بعد أن حذفوا منها ماعلموه ضدهم من صدرها وعجزها ، وأبقوا منها مازعموه تدعيما لثالوثهم ، فكان هدما له وقضاء عليه ، وكانت الآية من بدايتها لنهايتها حربا على الثالوث ومحوا له من الوجود .

﴿ **أفرأيتم اللات والعزى.ومناة الثالثة الأخرى** ﴾[3] . كيف حطمها القرآن المجيد بمعاول التوحيد إنه حطم الثالوث فلم تقم له قائمة أمام التوحيد ، كما حطم هذه الأصنام فلم يعد لها أثر فى الوجود ، وصدق الله : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾[4] ، ظن القمص زكريا أنه وجد ضالته ، وأتى بما يسند ثالوثه المتداعى ، ويبقى فيه الروح ولو إلى

---

(١) الشورى ١١ (٢) سورة الإخلاص .

(٣) النجم ١٩ ، ٢٠ (٤) الأنبياء ١٨

حين ، فقال : ويذكر القرآن هذا الثالوث فى آياته كما يتضح من الآتى : سورة النساء ﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** ﴾ .

فيتضح من هذه الآية الثالوث الذى نؤمن به : ذات الله : والكلمة ، والروح . وإليكم الآية بجملتها من بدئها لنهايتها ، لتروا أنها حجج بالغة ، وشهب محرقة ، حجج بالغة ضد الثالوث ودعاته ، وشهب محرقة لهيكل الثالوث وحماته .

﴿ **يأأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولايجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا** ﴾(١) .

المعنى التفصيلى :

قوله تعالى : ﴿ **يأأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم** ﴾ أى لا تتجاوزوا الحدود التى حدها الله لكم فى الدين ، فإن الزيادة فى الدين كالنقص فيه ، فلا تفرطوا فى رفع شأن عيسى عليه السلام ولا تدعوا ألوهيته .

﴿ **ولا تقولوا على الله إلا الحق** ﴾ فلا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد ، واتخاذ الصاحبة والولد ، بل نزهوه عن كل ذلك ، ولا تعتقدوا إلا القول الثابت بنص دينى متواتر ، أو برهان عقلى قاطع ، وليس لكم على مازعمتم من دعوى الاتحاد والحلول واتخاذ الصاحبة والولد شىء منها .

﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله** ﴾ إلى بنى اسرائيل ، وقد أمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا ، وزهدهم فى الدنيا وحثهم على

---

(١) النساء ١٧١ : ١٧٣

التقوى ، وبشرهم بمحمد ﷺ خاتم النبيين الذى يرشدهم إلى الاعتدال فى كل شيء ، ويقيمهم على الصراط المستقيم ، ويهديهم الى الجمع بين حقوق الأرواح وحقوق الأبدان .

﴿ **وكلمته ألقاها إلى مريم** ﴾ أى وهو تحقيق كلمته التى ألقاها الى مريم ومصداقها ، والمراد كلمة التكوين أو البشارة ، فإنه لما أرسل الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ، بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاما زكيا ، فاستنكرت أن يكون لها ولد وهي عذراء لم تتزوج فقال لها : ﴿ **كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾(١) . فكلمة (كن) هى الكلمة الدالة على التكوين بمحض قدرة الله تعالى عند إرادته خلق الشيء وإيجاده ، وقد خلق المسيح بهذه الكلمة (كن) ومعنى (ألقاها الى مريم) أوصلها إليها وبلغها إياها .

فمعنى كون عيسى كلمة الله ، أنه وجد بسبب كلمة من الله ، هى (كن) فهو مجاز من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب ، وإنما خص عيسى عليه السلام بكلمة الله ـــ مع أن العالم كله مخلوق بكلمة الله (كن) قال تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾(٢) ـــ لأنه وجد بغير الأسباب العادية ، أي بغير واسطة أب وسائر أولاد آدم وإن وجدوا بالكلمة (كن) لكن بواسطة أب ، فإطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام أظهر ، ويبين ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾(٣) .

وقال ابن تيمية : قال قتادة : ليس الكلمة صار عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى ، وقال أحمد : المعنى فى قوله جل ثناؤه : ﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** ﴾ فالكلمة التى ألقاها الى مريم حين قال له (كن) فكان عيسى بكن ، وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان ، فالكن من الله قوله(٤) ـــ وقال أبو عبيد : كلمته (كن) فكان(٥) وأما

---

(١) آل عمران ٤٧ (٢) يس ٨٢ (٣) آل عمران ٥٩ (٤) الجواب الصحيح ١ /١٧٧
(٥) البخارى ٤ /٣١٩

قوله تعالى : ﴿ **وروح منه** ﴾ فمعناه أنه روح كائنة من جهته تعالى ، وجعلت منه وإن كانت بنفخ جبريل لكون النفخ بإرادته تعالى وأمره ، فهو مجاز أيضا من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب ، وسمى عيسى عليه السلام روحا لأنه حدث عن نفخ جبريل فى درع مريم بأمره سبحانه ، يوضحه قوله تعالى : ﴿ **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا** ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا** ﴾ الآيات[٢] .

فحملت به من ذلك النفخ ، وذلك غير روحه التى يشاركه فيها سائر البشر فلما خُلِق عليهِ السلام من نفخ الروح ومن مريم سمى روحا بخلاف سائر البشر فإنه يخلق من ذكر وأنثى ثم ينفخ فيه الروح بعد مضى أربعة شهور وهذا لا ينافى أن الله أيده بالوحى وروح القدس كما أيد سائر الأنبياء ، وكذلك المؤمنين المخلصين ويوضحه قوله تعالى فيه : ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾[٣] وقوله تعالى فى صفات المؤمنين المخلصين : ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾[٤] .

فقد كان مؤيداً بهذا الروح مدة حياته ، ولذلك غلبت عليه الروحانية ، وظهرت آيات الله فيه زمن الطفولية والرجولية ، كما قال تعالى : ﴿ **إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا** ﴾[٥] .

فلما كان كذلك أطلق عليه أنه روح ، كأنه هو عين ذلك الملك الذى جعله الله سبب ولادته ، وأيده به مدة حياته كما يقال رجل عدل على سبيل المبالغة ، والمراد ذو عدل .

وآية الله تعالى فى خلق عيسى بكلمته ، وجعله بشرا سويا بما نفخ فيه من روحه ، كآيته فى خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه ، إذ كان خلق كل منهما بغير السنة العامة فى خلق الناس من ذكر وأنثى كما سبق فى قوله تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن**

---

(١) الأنبياء ٩١ (٢) مريم ١٧ (٣)البقرة ٨٧ (٤) آخر المجادلة (٥) المائدة ١١٠

فيكون ﴾[١] . وقد جاء فى إنجيل متى (أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا ، لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس)[٢] . وفى إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل وتبشيره إياها بولد ، ومحاورتهما فى ذلك ومنها أنها سألته عن كيفية ذلك فقال لها : (الروح القدس يحل عليك)[٣].

من ذلك نعلم أن روح القدس عندهم وعندنا واحد ، وهو ملك من ملائكة الله الذين لا يحصى عددهم ، وأن عيسى خلق بواسطته ، فلا يستفاد إذا من قوله وروح منه أنه جزء من الله أو أنه الله ، تعالى الله عن التركيب والحلول والاتحاد بخلقه .

ولأن الإعراب يزيد المعنى وضوحا أقول فى قوله تعالى : **﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ﴾** المسيح مبتدأ ، وعيسى بدل منه أو عطف بيان وابن مريم صفته مفيدة لبطلان ماوصفوه عليه السلام به من بنوته لله تعالى (رسول الله) خبر المبتدأ ، والجملة مستأنفة لبيان تعليل النهى عن القول بالباطل المستلزم للأمر بضده) ، أعنى الحق ، أى أنه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها .

(وكلمته) عطف على الخبر ، أى أنه تكون بكلمته وأمره الذى هو (كن) من غير واسطة أب ولا نطفة (ألقاها الى مريم) فى موضع الحال وقد مقدرة ، أى حال كونه أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام فى جيب درعها ، وقيل أعلمها إياها وأخبرها بها بطريق البشارة ، وذلك قوله تعالى : **﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾**[٤] .

(وروح) عطف على الخبر أيضا (ومنه) صفة لروح ، ومن ابتدائية لاتبعيضية كما زعمت النصارى ، وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح ، أى كائنة من جهته تعالى بتخليقه وتكوينه وجعلت منه وإن كانت بنفخ جبريل لكون النفخ بأمره تعالى ، وأضيفت الروح إليه تشريفا له كما يقال : بيت الله ، ونعمة الله

---

(١) آل عمران ٥٩ (٢) متى ١ : ١٨ (٣) لوقا ١ /٣٥ (٤) آل عمران ٤٥

وناقة الله ، وليس كما زعمت النصارى أنه ابن الله ، أو إله معه أو ثالث ثلاثة ، لأن ذا الروح مركب والإله منزه عن التركيب .

وقال أبو السعود فى تفسيره (وروح منه) ومن لابتداء الغاية مجازا ، لاتبعيضية كما زعمت النصارى ، يحكى أن طبيبا حاذقا نصرانيا للرشيد ، ناظر على ابن حسين الواقدى المروزى ذات يوم فقال له : إن فى كتابكم مايدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية ، فقرأ الواقدى قوله تعالى : ﴿ **وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه** ﴾[1] . فقال : اذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزء منه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فانقطع النصرانى فأسلم ، وفرح الرشيد فرحا شديدا ووصل الواقدى بصلة فاخرة .

وقال أحمد : وأما قوله جل ثناؤه (وروح منه) يقول من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى : ﴿ **وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه** ﴾ يقول من أمره[2] . وتقديم كونه عليه السلام رسول الله فى الذكر مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحا منه فى الوجود لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه ، غير محتمل للتأويل ، وتعيين مآل مايحتمله وسد باب التأويل الزائغ .

ثم قال تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة** ﴾

أى فآمنوا بالله إيمانا يليق به وهو أنه واحد أحد تنزه عن صفات الحوادث ، وأن كل مافى الكون مخلوق له ، وآمنوا برسله كلهم بما فيهم عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام إيمانا يليق بشأنهم وهو أنهم عبيد له خصهم بضروب من التكريم والتعظيم وألهمهم بنوع من العلم والهداية بالوحى سبيل الحق والخير والسعادة ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه وحده ، ويشكرونه على نعمه .

ولا تقولوا : الآلهة ثلاثة : ، الله والمسيح ومريم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله** ﴾[3] . أو المعبودات ثلاثة : الآب والابن وروح القدس ، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر وكل منها إله كامل ، ومجموعها إله كامل ، لا تقولوا شيئا من ذلك . فإن فى هذا تركا للتوحيد الذى هو ملة ابراهيم وسائر الأنبياء ، واتباعا

---

(١) الجاثية ١٣ (٢) الجواب الصحيح لابن تيمية ١ /١٧٨ (٣) المائدة ١١٦

لعقيدة الوثنيين والجمع بين التوحيد والتثليث تناقض تحيله العقول السليمة ، ولا تقبله القلوب الواعية .

﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ أى انتهوا عن ذلك وقولوا قولا آخر خيرا لكم منه ، وهو قول جميع النبيين والمرسلين الذين جاءوا بتوحيد الله وتنزيهه ، فإن المسيح الذى سميتموه إلها يقول كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ **ماقلت لهم إلا ماأمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾[1] . ويقول فى إنجيل يوحنا ١٧ : ٣ (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

﴿ **إنما الله إله واحد** ﴾ بالذات منزه عن التعدد ، فليس له أجزاء ولا أقانيم ، ولا هو مركب ولا متحد بشىء من المخلوقات ﴿ **سبحانه أن يكون له ولد** ﴾ أى تقدس عن أن يكون له ولد كما قلتم فى المسيح إنه ابنه أو إنه عينه ، والتعبير بالولد دون الابن الذى يعبرون به فى كلامهم لبيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقى الذى يفهم من هذا اللفظ فلابد أن يكون ولدا ، أى مولودا من تلقيح أبيه لأمه ، وهذا محال على الله تعالى ، وإن أرادوا الابن المجازى لا الحقيقى فلا خصوصية لعيسى فى ذلك ، لأنه قد أطلق فى كتب العهد العتيق والعهد الجديد على آدم ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأخيار .

﴿ **له مافى السموات ومافى الأرض** ﴾ أى إنه ليس له ولد يصح أن يسمى ابنا له حقيقة بل له مافى السموات ومافى الأرض خلقا وملكا وتصريفا ، والمسيح من جملتها كما قال تعالى : ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾[2] . والملكية تنافى البنوة ، فكيف يكون المملوك بعد هذا ابنا لله؟ تعالى الله عن ذلك . ولافرق فى هذا بين الملائكة والنبيين ، ولابين من خلق ابتداء من غير أب وأم ، كالملائكة وآدم ، ومن خلقه من أصل واحد كحواء وعيسى ، ومن خلقه من الزوجين الذكر والأنثى فكل هؤلاء عبيده يحتاجون الى فضله وكرمه وجوده وهو يتصرف فيهم كيف يشاء .

---

(١) المائدة ١١٧ (٢ ، مريم ٩٣ : ٩٥

﴿ **وكفى بالله وكيلا** ﴾ أى كفى به حافظا لخلقه ومستقلا بتصريف شئونهم وتدبير أمورهم فلا حاجة له الى ولد يعينه على ذلك ، فهو غنى عن الولد ، فإن الولد إنما يحتاج إليه أبوه ليعينه فى حياته ، ويقوم مقامه بعد وفاته ، والله منزه عن كل ذلك .

﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون** ﴾ جاء فى الخازن أن وفد نجران قالوا : يامحمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله ، فقال ﷺ إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبدالله فنزلت (لن يستنكف المسيح) الآية .

والمعنى لن يأنف المسيح ولن يترفع عن أن يكون عبدالله لعلمه بعظمة الله تعالى ومايجب له من العبودية والشكر ، ولا الملائكة المقربون يستنكف أحد منهم ويترفع عن أن يكون عبدا له تعالى ، وذكر الملائكة للرد على من زعم أنها آلهة أو بنات الله ، سبحانه عما يزعمون .

﴿ **ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا** ﴾ أى ومن يمتنع عن عبادته تعالى أنفة وكبرا ، ويترفع عنها إعجابا بنفسه وغرورا بها ، فسيجزيه أشد جزائه ويذيقه أليم عقابه ، حين يحشر الناس جميعا للجزاء المستنكفين منهم والمستكبرين مع غيرهم المقابلين لهم فى صعيد واحد كما ورد فى الحديث ثم يحاسبهم ويجزيهم على حسب أعمالهم وبين هذا الجزاء فقال تعالى : ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا** ﴾ أى ولا يجدون لهم غير الله تعالى وليا يتولى شيئا من أمرهم يوم الجزاء والحساب ولا نصيرا ينصرهم فيدفع عنهم العذاب .

فهل بعد هذا يوجد فى القرآن إشادة بالثالوث ؟

لقد حطمت هذه الآية الكريمة الثالوث فى جميع صوره وأشكاله ، ومحته من الوجود كما سبق بيانه ، وإليكم تلخيص ذلك وإجماله :

تلخيص وإجمال لما جاء فى الآية الكريمة :

(١) إن الله نهاكم بقوله : ﴿ **يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم** ﴾ عن الزيادة

فى الدين بادعاء آلهة أو أقانيم مع الله ، أو أن المسيح ابن الله له طبيعة الله ، أو هو الله المتجسد أو إله معه .

(٢) ونهاكم بقوله ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أن تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد والتجسد ، أو أنه واحد فى ثالوث ، أو حى بروحه ، لأنها من صفات الحوادث .

(٣) وقال (إنما المسيح عيسى ابن مريم) ولم يقل (ابن الله) فكيف تقولون إنه ابن الله وله طبيعة الله .

(٤) وبين بقوله (ابن مريم) أنه حدث بعد أن لم يكن ، وكل من كان كذلك كان مخلوقاً لا إلهاً فكيف يكون هو الله ، أو ابن الله له طبيعته ، أو مساوياً له فى ألوهيته .

(٥) وأخبر عنه فى الآية بأنه رسول الله ولم يقل إنما المسيح عيسى ابن مريم الله ، ولا شك أن الرسول غير المرسل ، فرسول الله عبد مطيع لله : فكيف يكون هو الله ، أو ابنا له طبيعته أو إلها معه ؟

(٦) فى الجملة القرآنية قصر بإنما ، ومعناه قصر المسيح عيسى عليه السلام على الرسالة لايتعداها الى غيرها من الألوهية أو الأقنومية ، أو البنوة الحقيقية ، فكيف تقولون : إنه إله مع الله أو أقنوم فى اللاهوت مع الله ، أو ابن الله له طبيعته وذاتيته .

(٧) المسيح عليه السلام رسول من رسل الله ، ورسل الله ليس فيهم شىء من طبيعة الله ولا صفاته فالمسيح كذلك ، فكيف تقولون إنه مساو لله ، أو له طبيعته ، أو أقنوم معه ؟

(٨) أثبتت الآية الكريمة أن المسيح عيسى مخلوق بكلمة الله (كن) وكل مخلوق بكلمة الله لايشبه الله فى شىء ، لأن المخلوق غير الخالق ، فالمسيح عيسى لايشبه الله فى شىء ، فليس هو الله ، ولا من طبيعته ، ولا أقنوما معه .

(٩) وأفادت الآية أن عيسى ليس كلمة الله على الحقيقة ، وإنما هو على المجاز ، لأن الكلمة غير مدلولها ، ولأن عيسى يموت وكلمة الله لاتموت . وأكد

ذلك بقوله : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ وأيضا كلام الله الذى سمعه موسى عليه السلام ليس هو المسيح ، فالمسيح ليس كلام الله ، وليس كلمة الله على الحقيقة ، فكيف تقولون إنه الله أو له طبيعته ، أو يشبهه فى شيء ؟

(١٠) وأفادت الآية أيضا أن المسيح روح كائنة من جهته تعالى بتخليقه وتكوينه اذن فليس هو الله أو أقنوما معه ، أو جزءا منه .

(١١) ودعاكم الله بقوله ﴿ **فآمنوا بالله ورسله** ﴾ إلى الإيمان به إيمانا يليق بذاته وهو أنه الواحد الأحد الذى ليس كمثله شيء وإلى الإيمان برسله إيمانا يليق بشأنهم ، وهو أنهم عبيد له اختصهم بحمل رسالته الشريفة ، وعيسى عليه السلام من جملتهم فكيف تخصونه من بينهم بأنه الله أو ابن له ، أو له طبيعته ، أو فيه صفة من صفاته .

(١٢) وأيضا بين الله بقوله ﴿ **فآمنوا بالله ورسله** ﴾ أن رسل الله غير الله لأن العطف يقتضى المغايرة ولأن إضافتهم لله تقتضى عبوديتهم له ، فهم خاضعون لسلطانه ، منفذون لأوامره وأحكامه ، والمسيح منهم فهو مثلهم فلا يمتاز عنهم بشيء يرتقى به الى ذات الله أو صفة من صفاته ، أو شيء من اختصاصاته .

(١٣) ونهاكم الله بقوله ﴿ **ولا تقولوا ثلاثة** ﴾ عن القول بثلاثة آلهة أو أقانيم أو معبودات ، بل ولا تقولوا ثلاث كلمات ولا أسماء أو صفات ، فكلمات الله لاتقف عند حد : ﴿ **ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾[1] .

وأسماؤه وصفاته لايحصرها العد ، ولماذا تنزلون به جل وعلا من عليائه إلى مستوى تخيلاتكم ومفترياتكم فتسمونه بالأقنوم ، ولا هوته بالأقانيم ﴿ **إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان** ﴾[2] والله العليم بجلال ذاته والمحيط بأسمائه وكمالاته يقول : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه**

(١) لقمان ٢٧ (٢) النجم ٢٣

سيجزون ماكانوا يعملون ﴾[1].

(١٤) وفى قوله تعالى : ﴿ **انتهوا خيرا لكم** ﴾ تأكيد ووعيد شديد للنهى عن القول بثلاثة آلهة أو أقانيم أو معبودات أو صفات .

(١٥) وفى قوله تعالى : ﴿ **إنما الله إله واحد** ﴾ قصر لله على الوحدانية فى الألوهية ، فليس الله ثلاثة آلهة أو معبودات أو أقانيم .

(١٦) وفى قوله تعالى : ﴿ **سبحانه أن يكون له ولد** ﴾ تنزيه الله عن أن يكون المسيح أو غيره ابنا لله أو مساويا له .

(١٧) وفى قوله تعالى : ﴿ **له مافى السموات ومافى الأرض** ﴾ قصر إيجاد وملك وتصريف مافى السموات ومافى الأرض على الله وحده ومن جملتهم المسيح عليه السلام فكيف يكون هو الله أو ابنا له أو له طبيعته أو أقنوما معه فى ألوهيته ، أو مشاركا له فى تصريف كونه .

(١٨) وفى قوله تعالى : ﴿ **وكفى بالله وكيلا** ﴾ بيان لكفاية الله وقيامه بحفظ خلقه والاستقلال بتصريف شئونهم فليس محتاجا إلى إله معه أو ابن أو أقنوم يعينه على ذلك .

(١٩) وفى قوله تعالى : ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون** ﴾ بيان مؤكد أن المسيح لن يترفع عن عبوديته لله لعلمه بعظمته فكيف تجعلونه مساويا له فى الألوهية أو المعبودية أو الأقنومية .

(٢٠) وفى قوله تعالى : ﴿ **ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا** ﴾ وعيد شديد وزجر فى تأكيد للمستكبرين عن عبادة الله والمسيح عليه السلام وهو أعلم قومه بمقام ربه أول من يخشى هذا الوعيد والتهديد فكيف تجعلونه هو الله ، أو مساويا له أو أقنوما معه لايخشاه ولا يخافه فى شيء

وهكذا رمى الله الثالوث بعشرين قذيفة من قذائف الحق قوضت أركانه وحطمت بنيانه ، ومحته من الوجود كما سبق بيانه وحقت عليه كلمة الله : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم**

(١) الأعراف ١٨٠

الويل مما تصفون ﴾[1] .

وصدق الله : ﴿ **ومامن إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم** ﴾[2] فلا إله إلا الذى خلق كل شيء وليس كمثله شيء ، فأى معنى تتصورون من معانى الألوهية فهو له وحده ، لايساويه أحد فى عزته فى ملكه ولايساميه مسام فى حكمته فى خلقه فيكون شريكا له فى ألوهيته ، أو ندا له فى ربوبيته ومالولد إلا نسخة من الوالد يساويه فى جنسه ونوعه ، وهو تعالى فوق الأجناس والأنواع وفوق التصورات والأوضاع ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾[3] .

تهديد من الله ووعيد شديد لمن يحاولون بعث الثالوث من جديد :

نظرا لأن فى التثليث اعتداء على المقام الكبير ، مقام الله العلى العظيم صاحب الأسماء الحسنى والصفات التى لاتحصى ، ومن كفر به فقد كفر بمن لايتناهى جلاله وكماله وبره وإحسانه ، فيستحق أن يعذب عذابا لايتناهى سعيره وزفيره وصراخه وعويله نظرا لذلك لم يقتصر القرآن على ماساقه من الأدلة السابقة على إبطال الثالوث ، وماصبه على هيكله من قذائف فانهارت به فى نار جهنم

بل أصدر حكمه القاطع بكفر من يقولون بالتثليث ، وأنذرهم بالويل والثبور والعذاب الشديد فى آيات بينات من سورة المائدة التى تعد من أواخر السور نزولا فى القرآن المجيد ، ملأها بالتهديد والوعيد الشديد لمن لم يقلع عن التثليث أو يحاول بعثه من جديد وشحنها بالأدلة القاطعة والشهب المحرقة للثالوث ودعاته فقال تعالى :

﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم.أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم.ماالمسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون.قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولانفعا والله هو السميع العليم.قل ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ولاتتبعوا أهواء قوم قد**

---

(١) الأنبياء ١٨ (٢) آل عمران ٦٢ (٣) الصافات ١٨٠

ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾[1]

ومعنى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ يقسم الله جل جلاله مؤكدا كلامه فيقول لقد كفر بالله الذين قالوا إن خالق السموات والأرض ومابينهما ثالث أقانيم ثلاثة :

أب والد غير مولود وابن مولود غير والد ، والروح القدس الناشىء عنهما ، قال الدكتور بوست فى تاريخ الكتاب المقدس عند الكلام على لفظ الجلالة[2] :

(طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر الله الأب ، والله الابن والله الروح القدس ، فإلى الأب ينتمى الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفدى والى الروح القدس التطهير غير أن الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء،وقال ابن تيمية[3] : جميع طوائف النصارى المشهورة : الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بالأقانيم الثلاثة الأب والابن وروح القدس ، فتقول : إن الله ثالث ثلاثة وتقول عن المسيح إنه ابن الله وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التى تتضمن ذلك وهو قولهم

(نؤمن بإله واحد،أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض،كل مايرى ومالايرى وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق.أ هـ

ثم ذكر الله الدليل الهادم للثالوث ورد عليهم ماقالوه بلا روية ولابصيرة فقال : ﴿ ومامن إله إلا إله واحد ﴾ أى لايوجد إله إلا من اتصف بالوحدانية فى الذات والصفات والأفعال وهو الإله الذى لا تركيب فى ذاته ولافى صفاته فليس ثَمَّ تعدد ذوات وأعيان ولاتعدد أجناس وأنواع ولاتعدد جزئيات وأجزاء ، وصدق الله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[4] ﴿ قل لوكان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا. سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾[5] ثم توعدهم على هذه المقالة فقال :

﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ أى

---

(١) المائدة ٧٣ : ٧٧ (٢) من تفسير المنار ٦ /٣٠٨ (٣) فى الجواب الصحيح ٢ /٣٢٩
(٤) الانبياء ٢٢ (٥) الاسراء ٤٢ ، ٤٣

وإن لم ينتهوا عن قولهم بالتثليث أياكان نوعه ويتركوه ويعتصموا بعروة التوحيد ويعتقدوه ، فوالله ليصيبنهم عذاب شديد يوم القيامة جزاء كفرهم وفى الآية إيماء إلى أن هذا العذاب لايمس إلا الذين كفروا منهم خاصة دون من تاب وأناب الى الله تعالى ورجع عن عقيدة التثليث وغيرها من العقائد الباطلة ثم تعجب من حالهم بإصرارهم على التثليث بعد أن ظهرت لهم البينات وقامت عليهم الحجج المبطلة له والنذر بالعذاب المترتب عليه فقال :

﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ؟** ﴾ أى أيسمعون ماذكر من التفنيد والإبطال لآرائهم والوعيد عليها ، ثم لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى التوحيد الخالص واستغفار الله عما فرط منهم والحال أن ربهم واسع الرحمة عظيم المغفرة يقبل التوبة من عباده ويغفر لهم مافرط من الزلات إذا هم آمنوا وأحسنوا واتقوا وعملوا الصالحات ، ثم ذكر أن المسيح رسول كغيره من الرسل فلا يكون إلها وأقام الدليل على ذلك فقال :

﴿ **ماالمسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام** ﴾ أى ليس المسيح إلا رسول من الرسل الذين بعثهم الله لهداية عباده قد مضت من قبله رسل اختصهم الله مثله بالرسالة وأيدهم بالآيات وأمه إحدى النساء طبعت على الصدق فى قولها والتصديق بربها وكانت هى وابنها عيسى ـــ عليه السلام ـــ يأكلان الطعام ، وهذا علامة البشرية فكيف تدعون لهما الألوهية ؟

وبعد أن بين حالهما بيانا لاتحوم حوله شائبة من الريب تعجب من حال من يدعى لهما الربوبية ولا يرعوى عن غيه وضلاله ، ولا يتأمل فيما هو عليه من رأى فاسد وتفكير خاطىء فقال :

﴿ **انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون** ﴾ أى انظر أيها السامع نظرة عقل وفكر كيف نبين لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين البالغة أقصى الغايات ، فى الوضوح على بطلان مايدعون فى أمر المسيح ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها ، ولا ينتقلون من مقدماتها الى نتائجها ، ومن مبادئها الى غاياتها ، فكأنهم فقدوا عقولهم وصارت أفئدتهم هواء .

ثم لقن نبيه حجة أخرى على بطلان مدعاهم يوردها فى سياق الإنكار

عليهم ، وتبكيتهم على عبادة مالا فائدة فى عبادته فقال :

﴿ **قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا** ﴾ أى قل أيها الرسول لهؤلاء النصارى وأمثالهم الذين عبدوا غير الله أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا تخشون أن يعاقبكم به إذا تركتم عبادته ، وترجون أن يدفعه عنكم إذا عبدتموه ، ولا يملك لكم نفعا ترجون أن يجزيكم به إذا عبدتموه ، وتخافون أن يمنعه عنكم إذا كفرتموه .

﴿ **والله هو السميع العليم** ﴾ والحال أن الله تعالى هو السميع لأدعيتكم وسائر أقوالكم ، العليم بحاجاتكم ، وسائر أحوالكم ، فلا ينبغى أن تدعوا غيره ، ولا أن تعبدوا سواه .

ثم نهاهم عن الغلو فى الدين فقال : ﴿ **قل ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق** ﴾ الغلو : الإفراط وتجاوز الحد ،

والمعنى : قل يامحمد : ياأهل الكتاب لاتتجاوزوا الحدود فى المسيح بالإفراط أو التفريط ، فاليهود أفرطوا فى إهانته هو وأمه ، والنصارى يرفعونه الى مقام الألوهية ، فالوسط والحق الحق ــ كما هو شريعة الإسلام فى المسيح وأمه ــ الذى ذكر فى القرآن .

ثم حذرهم من اتباع الأهواء الضالة فقال : ﴿ **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ أهواء : آراء قوم دعت إليها الشهوة دون الحجة والبرهان .

والمعنى : ياأهل الكتاب لاتتبعوا أهواء قوم وآراءهم القائمة على الهوى والشهوة ، لاعلى الحجة والبرهان ، وهم أهل الكتاب الذين كانوا على الضلال قبل مبعث النبى ﷺ وأضلوا كثيرا ممن تابعهم ، وضلوا عن الطريق الوسط والصراط المستقيم لما بعث محمد ﷺ فكذبوه وحسدوه ، وبغوا عليه ، وقد وصفهم الله بثلاث درجات فى الضلال ، فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ، ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم ، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى إنهم الآن ضالون كما كانوا . وليست هناك حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقابه من هذه الحالة نعوذ بالله منها ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن**

الله لايهدى القوم الظالمين ﴾[1] .

حول عقيدة الثالوث وبنائها على الأهواء الباطلة :

(١) قال الإمام ابن القيم بعد ذكر مجامعهم العديدة لتقرير مايريدون من عقيدة واختلافهم فيها فى كل مجمع عن الآخر[2] :

فهذه حال المتقدمين مع قرب زمانهم من أيام المسيح ، ووجود أخباره فيهم ، والدولة دولتهم والكلمة كلمتهم ، وعلماؤهم إذ ذاك أوفر ماكانوا ، واهتمامهم بأمر دينهم واحتفالهم به كما ترى ، وهم حيارى تائهون ، ضالون ، مضلون لايثبت لهم قدم ، ولا يستقر لهم قول فى إلههم ، بل كل منهم قد اتخذ إلهه هواه ، وصرح بالكفر والتبرى ممن اتبع سواه قد تفرقت بهم فى نبيهم وإلههم الأقاويل ، وهم كما قال الله تعالى : ﴿ **قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ فلو سألت أهل البيت الواحد عن دينهم ومعتقدهم فى ربهم ونبيهم لأجابك الرجل بجواب ، وامرأته بجواب ، وابنه بجواب ، والخادم بجواب . فما ظنك بمن فى عصرنا هذا وقد طال عليهم الأمد وبعد عهدهم بالمسيح ودينه ؟

وهؤلاء هم الذين أوجبوا لأعداء الرسل ـــ من الفلاسفة والملاحدة ـــ أن يتمسكوا بما هم عليه ، فإنهم شرحوا لهم دينهم الذى جاء به المسيح على هذا الوجه ، ولا ريب أن هذا دين لايقبله عاقل . فتواصى أولئك بينهم أن يتمسكوا بماهم عليه ، وساءت ظنونهم بالرسل والكتب ، ورأوا أن ماهم عليه من الآراء أقرب من المعقول من هذا الدين . وقال لهم هؤلاء الحيارى الضلال : إن هذا هو الحق الذى جاء به المسيح ، فتركب مر هذين الظنين الفاسدين إساءة الظن بالرسل ، وإحسان الظن بما هم عليه .

(٢) ويؤكد أن هذه العقيدة كما أنها لايقرها نقل لايقبلها عقل ، ماقاله الدكتور

(١) القصص ٥٠ (٢) فى كتابه : إغاثة اللهفان ٢ /٢٨١

وولتر أوسكار لندبرج[1] ـــ ففى جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم فى إله هو على صورة الإنسان ، بدلا من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة لله على الأرض وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التى تعلموها منذ الصغر لايمكن أن تنسجم مع أسلوبهم فى التفكير ، أو مع أى منطق مقبول ، وأخيرا عندما تفشل جميع المحاولات فى التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة ، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمى ، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية ، وعندما يصلون الى هذه المرحلة ، ويظنون أنهم قد تخلصوا من أوهام الدين وما ترتب عليها من نتائج نفسية ، لايحبون العودة الى التفكير فى هذه الموضوعات ، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع وتدور حول وجود الله ، أ هـ

(٣) إنك لو قرأت الأناجيل الأربعة فصلا فصلا وكلمة كلمة فلا تجد فيها إشارة من بعيد أو قريب الى مايعرف بالأقنوم أو الأقانيم ، بل إنها تتحدث عن الله باعتباره ذاتا واحدة فى الكمال والجلال والسلطان ، سواء كان ذلك على لسان المسيح أم حوارييه فكلمة أقنوم كلمة غريبة مولدة لم يقلها المسيح ولم تثبتها الأناجيل المعتمدة .

ولذا قال ابن تيمية : إن قولهم بالأقانيم مع بطلانه فى العقل والشرع لم ينطق به عندهم كتاب ولم يوجد هذا اللفظ فى شيء من كتب الأنبياء التى بأيديهم ، ولافى كلام الحواريين ، بل هى لفظة ابتدعوها ، ويقال : إنها رومية ، وقد قيل الأقنوم فى لغتهم معناه الأصل ، ولهذا يضطربون فى تفسير الأقانيم ، تارة يقولون أشخاص ، وتارة خواص ، وتارة صفات ، وتارة جواهر وتارة يجعلون الأقنوم اسما للذات والصفة معا ، وهذا تفسير حذاقهم[2] وفى إنجيل متى يقول ابليس للمسيح بعد أن أخذه الى جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها يقول له ليجربه : (أعطيك هذه

---

(١) من كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص ٣٢

(٢) الجواب الصحيح ٢ / ١٠٢

جميعا إن خررت وسجدت لى !

حينئذ قال له يسوع : اذهب ياشيطان ، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد)[1] . فالمسيح هنا لا يولى وجهه إلا شطر معبود واحد هو الله ، لا الى الإله ذى الثلاثة أقانيم ولا الى أقنوم واحد منها . وأعوذ بالله من اطلاق كلمة أقنوم على الله فإننا لانسمى الله ولا نصفه إلا بما سمى به نفسه أو وصفها به فى كتابه الكريم أو حديث رسوله الصحيح الصريح المقطوع به ولكنا نحكى قولهم لها ، وحاكى الكفر ليس بكافر،وفى مرقص سأل أحد الكتبة السيد المسيح قائلا : (أية وصية هى أول الكل ؟ فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا هى : اسمع ياإسرائيل : الرب إلهنا رب واحد)[2] .

(٤) ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب[3] : وفى الأناجيل مئات من كلمات المسيح يتحدث عن الله بأنه الله ذو المفهوم الواحد ، ولم يتحدث عنه مرة واحدة بأنه ذو مفاهيم ثلاثة : آب ، وابن ، وروح القدس . ولو أن هذا كان من رسالة المسيح لما تركه لتلاميذه من بعده ، ولا لغيرهم يبينونه للناس ويدعونهم الى الإيمان به ، ولكان ذلك الى المسيح نفسه ، فهو أولى الناس به ، وأقدرهم على شرحه وتبيانه .

وإذا كان المسيح يتخلى عن التعريف بالله — هذا التعريف العميق البعيد الأغوار — وهو مطلوب ديانة ومعتقدا ، فكيف يكون قد أدى رسالته ، وفتح للناس معالم الهدى الى الله ؟ وهل هناك ماهو أهم وأولى من هذا العمل لو أنه كان مما تقوم عليه عقيدة الناس ويتم به إيمانهم ؟

(٥) إن الثالوث المسيحى لو كان من أصل دينهم وعقائدهم السماوية لما ظل مجهولا حتى أوائل القرن الرابع الميلادى ، ولما عقدت له عدة مجامع حتى تضعه فى صيغته وصبغته النهائية وتجعل المسيح وروح القدس شريكين لله ، لكل عمل يقوم به .

---

(١) متى ٤ (٥ : ١٠) (٢) مرقص ١٢ (٢٨ ، ٢٩) (٣) فى كتابه (المسيح فى القرآن) ٢١٦ .

(٦) قالت طائفة من العقلاء : إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى ، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ماقالوا ، بل تكلموا بجهل وجمعوا فى كلامهم بين النقيضين ، ولهذا قال بعضهم : لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا وقال آخر : لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولا وامرأته قولا آخر وابنه قولا ثالثا[١] .

(٧) إن الأستاذ جنى بير الذى كان أستاذاً لتاريخ الأديان بجامعة السربون فى النصف الأول من القرن العشرين الى عهد قريب أثبت فى مؤلفاته الأربعة[٢] . بما لا يدع مجالا للشك أن المسيحية الحالية ليست هى مسيحية المسيح ، بل ولا تمت الى مسيحية المسيح بصلة إلا الصلة الإسمية ..... وأن المسيح عليه السلام . أتى مبشرا بالرحمة والإشفاق والتعاون والمحبة ...... وأن التثليث وفكرة الألوهية التى تمشى على الأرض متمثلة فيه ، أو البنوة للإله ، هذه العقائد المعقدة التى لا يستسيغها عقل ، ولا يطمئن إليها فؤاد ، بغيدة كل البعد عن رسالة المسيح[٣] .

(٨) وقال الأستاذ محمد الغزالى : والقول بأن الثلاثة واحد كالقول باجتماع النقيضين ، ليس مسألة غامضة بل مسألة مستحيلة بالبداهة[٤] .

* * *

---

(١) الجواب الصحيح صـ ١٥٨ (٢) الأول عن العصر الذى نشأ فيه المسيح ، والثانى عن المسيح نفسه ، والثالث عن تطور العقائد . والرابع عن المسيحية القديمة ، ومسيحية العصور الوسطى ، والمسيحية الحديثة (٣) انظر أوربا والإسلام العدد السابع للدكتور عبد الحليم محمود صـ ١٣ ، ١٦

(٤) عقيدة المسلم ٦٨

المبحث الرابع .

منشأ عقيدة التثليث[1]

عقيدة التثليث وثنية نقلها الوثنيون المتنصرون إلى النصرانية ، واعتمدوا فيها على بعض ألفاظ فى الكتب اليهودية ، جعلوها تكأة لهم على ماأرادوا ، وحرفوا فيها وأوّلوا ، لتفيدماادعوا ، وبذا هدموا آيات التوحيد ، وقد فصل ذلك علماء أوربا ، وأتوا عليه بشواهد كثيرة من الآثار القديمة والتاريخ ، وإليك البيان :

التثليث عند البراهمة :

قال البحاثة موريس فى كتابه الآثار الهندية القديمة م ٦ ص ٣٥ : كان عند أكثر الأمم الوثنية البائدة تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثى ، أو الثالوثى .

التثليث عند البوذيين :

قال مستر فابر فى كتابه أصل الوثنية : كما نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفا من برهما ، وفشنو ، وسيفا ، نجد عند البوذيين ثالوثا ، فإنهم يقولون : إن (بوذه) إله له ثلاثة أقانيم .

التثليث عند قدماء المصريين :

قال مستر دوان فى كتابه (خرافات التوراة)ص ٤٧٣ : وكان قسيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس فى تعليمهم للمبتدئين بقولهم : إن الأول خلق الثانى ، وهما خلقا الثالث ، وبذلك تم الثالوث المقدس .

---

(١) هذا المبحث مختصر من تفسير المنار للسيد رشيد رضا رحمه الله ٦ / ٨٨ : ٩٤

وسأل توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكى : أن يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه ؟ وهل يكون بعده أحد أعظم منه ؟ .

فأجابه الكاهن : نعم يوجد من هو أعظم ، وهو الله قبل كل شيء ، ثم الكلمة ، ومعهما روح القدس ، ولهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة ، وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت القوة الأبدية ، فاذهب يافانى ياصاحب الحياة القصيرة .

ثم قال المؤلف :

لاريب أن تسمية الأقنوم الثانى من الثالوث المقدس (كلمة)هو من أصل وثنى مصرى دخل فى غيره من الديانات كالمسيحية و (أبولّو) المدفون فى دهلى يدعى الكلمة ، وفى علم اللاهوت الإسكندرى الذى كان يعلمه بلاتو قبل المسيح بسنين عديدة (الكلمة هى الإله الثانى) ويدعى أيضا ابن الله البكر .

وقد أكد العلامة جار سلاف كرينى أستاذ الحفريات بجامعة اكسفورد ببريطانيا فى كتابه (ديانات قدماء المصريين) وجود التماثل والتطابق التام بين الثالوث المسيحى والثالوث الفرعونى ، الأمر الذى دعاه إلى التقرير بأن الثالوث المسيحى مأخوذ عن الثالوث الفرعونى .

التثليث عند أهل أوربا : اليونان ، والرومان وغيرهما :

قال صاحب كتاب (ترقى الأفكار الدينية)م ١ ص ٣٠٧ : إن اليونانيين كانوا يقولون : إن الإله مثلث الأقانيم ، وإذا شرع قسيسوهم بتقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات ، إشارة إلى الثالوث ، ويرشون المجتمعين حول المذبح ثلاث مرات ، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، ويعتقدون أن الحكماء قالوا : إنه يجب أن تكون جميع الأشياء المقدسة مثلثة ، ولهم اعتناء بهذا العدد فى جميع شعائرهم الدينية .

ونقل دوان عن أورفيوس أحد كتاب اليونان وشعرائهم قبل المسيح بعدة قرون أنه قال : (كل الأشياء صنعها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم) وقال دوان فى ص ٣٧٧ من كتابه المذكور : كان الإسكندناويون يعبدون إلها مثلث الأقانيم يدعونها : أودين ، وتورا ، وفرى ، ويقولون : هذه الثلاثة الأقانيم إله واحد .

وقال فسك فى ص ٢٠٥ من كتاب الخرافات ومخترعوها : كان الرومانيون الوثنيون القدماء يؤمنون بالتثليث ، يؤمنون بالله أولاً ، ثم بالكلمة ، ثم بالروح .

وقال السيد رشيد رضا ، رحمه الله فى تفسير المنار ٦ / ٩٢ :

وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول قسطنطين فيهم هذه الشعائر كلها ، ونسخت بها شريعة المسيح التى هى التوراة ، ويسمون أنفسهم مع ذلك مسيحيين ، ويعملون كل شيء باسم المسيح : فهل ظلم أحد من البشر بالافتيات عليه كما ظلم المسيح عليه السلام ؟ لا لا .

والخلاصة .

أن الديانة النصرانية بنيت على أساس التوحيد الخالص ، فحولها الكهنة إلى ديانة وثنية ، تقول بتثليث غير معقول أخذوه من تثليث اليونان ، والرومان ، المقتبس من تثليث المصريين ، والبراهمة اقتباسا مشوها ، ونسخوا شريعة سماوية برمتها ، واستبدلوا بها بدعا وتقاليد غريبة عنها فقد كانت ديانة توحيد وزهد وتواضع ، وإيثار وعبودية ، فجعلوها ديانة تثليث ، وطمع وكبرياء ، وترف واستعباد للبشر ، ديانة أصولها التى هم عليها مقتبسة من الوثنية الأولى ، ولم ترد كلمة تدل على عقيدتها عن أنبياء بنى إسرائيل ، ولكنهم زعموا أنها مستمدة من جميع كتب أنبياء بنى إسرائيل ، ديانة نسبوها إلى المسيح عليه السلام ، وليس عندهم نص من كلامه فى أصول عقيدتها التى هى التثليث ، وإنما عندهم نصوص من كلامه تدل على التوحيد ، وإبطال التثليث ، وعدم المساواة بين الأب والابن .

ولو لم يكن عندهم من النصوص فى هذه العقيدة إلا مارواه يوحنا فى الفصل السابع عشر من إنجيله لكفى ، وهو قوله ـ عليه السلام ـ : (٣ وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

فهذا نص واضح فى أنه هو الإله وحده ، وأنه هو رسوله ، وهذا هو الذى دعا إليه القرآن ، وكان يجب أن يكون أساس عقيدتهم يرد إليه كل مايوهم خلافه ، ولو بالتأويل ، لأجل المطابقة بين المعقول والمنقول .

وقال مرقص فى الفصل الثانى عشر من إنجيله : إن أحد الكتبة سأل يسوع

عن أول الوصايا ، فأجابه : (٢٩ أول كل الوصايا اسمع ياإسرائيل الرب إلهنا رب واحد إلخ ... ٣٢ فقال له الكاتب : جيدا يامعلم بالحق قلت ، لأنه الله واحد وليس آخر سواه ... ٣٤ فلما رآه يسوع أنه أجاب بعقل قال له : (لست بعيدا عن ملكوت الله ولم يجسر أحد بعد ذلك أن يسأله) .

وروى يوحنا فى الفصل الأول من إنجيله، أنه قال(٢٨ ـــ ١٨ الله لم يره أحد قط) . ومثله فى الفصل الرابع من رسالة يوحنا الأولى (١٢ الله لم ينظره أحد قط) .

وقال بولص فى الفصل السادس من رسالته الأولى إلى أهل تيموثاوس (١٦ الذى لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه) وقد رأى الناس المسيح والروح القدس ، فكيف يكون كل منهما هو الله ؟ هذا افتراء ما فى ذلك امتراء .

ومن هذه النصوص نعلم أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة ، التى تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل ، فإن فرضنا أنه ورد ماينافيها وجب رده ، أو إرجاعه إليها .

* * *

المبحث الخامس .

القرآن لايشهد بالتوحيد للمسيحيين .

المعاصرين لنزوله ولم يؤمنوا به وبرسوله .

قال القمص زكريا فى ص ٧ :

أولا : المسيحيون موحدون ، ثم قال : يشهد القرآن للمسيحيين بالتوحيد ، أى إنهم يعبدون إلها واحدا ، وهو الله ، يتضح ذلك مما يأتى :

١ — سورة العنكبوت ، وساق الآية هكذا .

﴿ **لاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ... وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد** ﴾ بعد أن حذف من أولها ، ووسطها ، وآخرها ، مايؤثر على معناها ، وإليكم الآية بكاملها ، قال تعالى : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾[١] .

وقبل أن أعرض لمعنى الآية ، أذكر عقيدة المسيحيين ، كما ذكرها من كان فيهم ، وتحرر منهم فأقول :

قال الأستاذ محمد مجدى مرجان[٢] : وتدعيما لعقيدة الثالوث ، وإبرازا لمبادئها قام كبار أساقفة المسيحية بعقد مجامع دينية فيما بينهم سميت بالمجامع المقدسة : أولها مجمع نيقة سنة ٣٢٥ م أتموا فيها وضع أسس المسيحية الجديدة ،

---

(١) العنكبوت ٤٦ (٢) فى كتابه (الله واحد أم ثالوث) ٢٥ ، ٢٦ ، وذكر نحوها ابن تيمية فى كتابه (الجواب الصحيح) ٢ /٣٢٩ ، ٣٣٠ عن الحسن بن أيوب الذى كان مسيحيا وأسلم أيضا بعد دراسة عميقة

وأهمها قانون الإيمان المسيحى ، الإيمان الثالوثى ، الذى يردده الإخوة المسيحيون داخل الكنائس خلف القسيسين قائلين :

(نؤمن بإله واحد ، الله الآب ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، مايرى ومالايرى ، نؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو الآب فى الجوهر ، كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ، هذا الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى ، وتألم وقبر ، وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وأيضا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات ، الذى ليس لملكه انقضاء .

نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب نسجد له ونمجده مع الآب والابن الناطق فى الأنبياء ، وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وننتظر قيامة الأموات ، وحياة الدهر الآتى ، آمين ...) .

هذا القانون المسيحى الذى صاغه أحبار الكنيسة يحوى غالبية العقائد التى تسير عليها مسيحية اليوم ، والتى نرجو أن يتاح لنا مجال مناقشتها ، ولكن يعنينا منها هنا ما يتعلق فيها بالثالوث الإلهى ، الثالوث الذى صنعته أيدى المجامع الكهنوتية ، وقدمته للبشر لعبادته ، الثالوث الذى يتكون من الله الواحد الآب ، والرب الواحد الابن المساوى للآب فى كل شيء ، فهو إله حق كما أن أباه إله حق ، أى إنهما إلهان ، ثم الرب المحيى ، الروح القدس وهو إله ثالث ، فكلهم آلهة لهم العبادة والسجود والتمجيد ، وهؤلاء الثلاثة هم واحد .. اه .

وبعد ، فهل يشهد القرآن لأصحاب هذه العقيدة بالتوحيد ، أم بالتثليث ؟ .

إليكم ما يشهد به القرآن لهم : ١ ـــ قال تعالى :

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا

إلا ليعبدوا إلها واحدا لاإله إلا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾(١) . ٢ — وقال تعالى : **﴿ قل ياأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وماأنزل إليكم من ربكم ﴾**(٢) أى لستم على شىء من أمر الدين حتى تقيموا التوراة والإنجيل فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص والعمل الصالح ، وفيما بشّرا به من بعثة النبى محمد ﷺ وماأنزل إليكم من ربكم على لسانه وهو القرآن المجيد الذى أكمل الله به دين الأنبياء والمرسلين .

٣ — وقال تعالى : **﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾**(٣) فالآية الأولى تشهد لهم بتعدد الأرباب ، والآية الثانية تشهد بأنهم ليسوا على شىء من الدين الصحيح حتى يقيموا تعاليم التوراة والإنجيل المنزلين من عند الله ، لا المحرفين ، وحتى يقيموا تعاليم القرآن الشاهد والمهيمن والأمين على تعاليم التوراة والإنجيل ، والآية الثالثة تشهد عليهم بالتثليث شهادة مؤكدة بالقسم الإلهى ،وتتوعدهم عليه بالعذاب الأليم إن لم ينتهوا عنه .

فأين ما فى القرآن من الشهادة لهم بالتوحيد ؟ .

إنه يدعوهم ويدعو أهل الكتاب جميعا إلى التوحيد ، فيقول : **﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾**(٤) أما الآية التى ذكرها على أنها تشهد أن المسيحيين يعبدون الإله الواحد فهى تبين عقيدة المسلمين ، لا عقيدتهم ، وتدعوهم إلى التوحيد ، ولا تشهد لهم به ، وإليكم البيان .

قال تعالى : **﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾** .

---

(١) التوبة ٣١ ، ٣٢ (٢) المائدة ٦٨ (٣) المائدة ٧٣
(٤) آل عمران ٦٤

فالخطاب فى هذه الآية للمؤمنين من أمة محمد ﷺ والمعنى : ولا تجادلوا يأمة محمد من أراد الاستبصار فى الدين من اليهود والنصارى إلا بالطريقة الفضلى ، التى هى أحسن الطرق وأقومها ، كمقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ، والمشاغبة بالنصح ، والسوْرة بالأناة ، على وجه لا يدل على الضعف ، ولا يؤدى إلى إعطاء الدنية ، فإن هذه الطريقة أدعى إلى المسالمة والمصافاة ، وإزالة ما فى القلوب من الضغائن والأحقاد ، ونحو الآية : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾[1] .

ثم استثنى الله من هذه المعاملة الحسنة الذين ظلموا من أهل الكتاب .

فقال تعالى : (**إلا الذين ظلموا منهم**) بالإفراط فى الاعتداء ، والعناد ، أو بإثبات الولد ، أو بقولهم يد الله مغلولة ، ونحو ذلك ، ولم تنفع معهم الطريقة التى هى أمثل وأجمل ، فعاملوهم بالشدة والغلظة ، وماترونه مناسبا لردعهم عن غيهم وضلالهم ، فالرفق لا يفيد مع المعاندين المكابرين ، كما قال الشاعر الحكيم :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

ثم ذكر الله لنا مثلا للمجادلة بالتى هى أحسن فقال مخاطبا المؤمنين من أمة محمد ﷺ : ﴿ **وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ .

أى إذا حدثكم أهل الكتاب عن كتبهم وأخبروكم عنها بما يمكن أن يكونوا صادقين فيه ، وأن يكونوا كاذبين ، ولم تعلموا حالهم فى ذلك فقولوا لهم : آمنا بالقرآن الذى أنزل إلينا ،وبالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم ، ومعبودنا ومعبودكم واحد ونحن لأمره ونهيه منقادون .

سبب نزول هذه الآية : روى البخارى عن أبى هريرة قال : (كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا) الآية[2] وفيه تعريض بحال الفريقين حيث (**اتخذوا أحبارهم**

---

(١) النحل ١٢٥ (٢) فى ٦ /٤٨

ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً ، لاإله الا هو سبحانه عما يشركون) .

وقد جاء هذا التعريض من تصدير الجملة الإسمية بالضمير (نحن) أى نحن المنقادون له فى التوحيد وغيره ، لاغيرنا ممن لم يؤمن بالقرآن ، وينفذ تعاليمه ، ويذعن لأحكامه .

وهكذا تبين من استعراض الآية وأسباب نزولها أنها لاتشهد لأهل الكتاب بالتوحيد ، ولكنها تدعوهم إليه بالطريقة المثلى .

وكيف تشهد للنصارى بالتوحيد ، والدكتور جورج بوست فى تاريخ الكتاب المقدس ـ عند الكلام على لفظ الجلالة ـ يقول كما تقدم : طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر (مت ٢٨ : ١٩ ، ٢كو ١٣ : ١٤) الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، فإلى الآب ينتمى الخلق بواسطة الإبن (مز ٣٣ : ٦) وإلى الابن الفدى وإلى الروح القدس التطهير ، غير أن الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء .

أتريدون بعد هذا التثليث الموجود فى عقيدتكم ، والمدون فى كتبكم أن تشهد لكم الآية بالتوحيد ؟ .

يالله مما يفعل الهوى والتقليد الأعمى برءوس أصحابه وعقولهم : أناس لايؤمنون بالقرآن ، ولا برسوله ، ولا يعملون بمقتضى هذا الإيمان ، كما نؤمن نحن بسائر كتب الله ورسله ، ونعمل بمقتضى ذلك ، ثم يريدون أن يشهد لهم القرآن بالتوحيد والإيمان (إنها لإحدى الكبر) حيث يريد أصحاب الثالوث أن ينتزعوا ـــ قسرا وافتراء ـــ من القرآن شهادة لهم بالتوحيد والإيمان .

ثم انطلق القمص زكريا فى افترائه على القرآن فقال ـــ مستدلا أيضا على شهادة القرآن للمسيحيين بالتوحيد :

٢ ـــ سورة آل عمران :

« ..أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر » .

فنحى منحى سلفه من الإسرائيليين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، فذكر الآية بعد أن حذف صدرها ، وترك ثلاث آيات قبلها تعيّن المراد منها ، فعل ذلك ليحرف كلام الله فى القرآن عن مواضعه — كما فعلوا فى التوراة والإنجيل — وليؤوله على حسب هواه ، ويذهب به إلى غير ما شرع الله ، وسترى بعد عرض الآيات ، وذكر الآية كاملة أنها لم تتعرض للنصارى بشيء وليس فيها أى دليل على مايريد ، فالآية مذكورة بعد قوله تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

ثم قال تعالى :

﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾[1] .

فقد بين الله فى الآية الأولى أن أمة محمد ﷺ الذين آمنوا به وبكتابه وعملوا بما جاء فيه خير أمة فى الوجود ؛ لأنهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله إيمانا كاملا ، شاملا لكل مايجب الإيمان به .

ثم ذكر أن أهل الكتاب لو آمنوا إيمانا حقيقيا لكان خيرا لهم . لكنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، ويؤمنون ببعض الرسل ، كموسى وعيسى ، ويكفرون بمحمد ، على أنهم كيف يدعون الإيمان ، وفى كتبهم البشارة بمحمد وصفته ، كما قال تعالى :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[2] فلو آمن أهل الكتاب بكتبهم لآمنوا بمحمد

(١) آل عمران ١١٠ : ١١٤ (٢) البقرة ١٤٦

ﷺ وقرآنه .

ثم ذكر الله أن من أهل الكتاب جماعة ، مؤمنون حقيقة ، كعبد الله بن سلام ، وأضرابه ، وكثير منهم فاسقون ، وخارجون عن حدود الدين وكتبه .

وبين الله فى الآية الثانية أنهم لن يضروا المؤمنين إلا ضررا بسيطا ، وأنهم إن قاتلوهم ينهزموا أمامهم ، وأنهم لاينصرون أبدا .

وبين فى الآية الثالثة أن الذلة قد ضربت عليهم ، وأثّرت فيهم كما يؤثر الضرب فى النقد فلا خلاص لهم منها إلا بسبب عهد من الله ، وهو ماقررته الشريعة لهم ، من العدل والمساواة ، وعهد من الناس ، وهو مايقتضيه مشاركتهم فى الوطن والحاجة ، والانتفاع فى الصناعة والتجارة ، وأنهم مستحقون لغضب الله وسخطه ، والمسكنة محيطة بهم إحاطة المكان بمن فيه ، وذلك بسبب كفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وهذا بسبب معصيتهم لله وتعديهم لحدوده .
وهذه الصفات الذميمة من ضرب الذلة والمسكنة والاستحقاق لغضب الله بسبب الكفر والمعاصى ، وقتل الأنبياء بغير حق ، تكررت فى القرآن الكريم فى جانب اليهود خاصة .

فقوله بعد ذلك (**ليسوا سواء**) لابد أن يكون متناولا لهم ، والمعنى : ليس أهل الكتاب من اليهود متساوين فى هذه الصفات والأعمال القبيحة التى ذكرت فيما سبق ، بل منهم المؤمنون وهم الأقلون ، ومنهم الفاسقون ، وهم الأكثرون ، كما قال فى الآية السابقة ﴿ **منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ .

وقوله عقب ذلك ، ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾ لابد أن يكون متناولا لليهود كذلك ، فإنه لما بين وصف فاسقيهم فى الآية السابقة ، كان من العدل الإلهى أن يبين وصف مؤمنيهم ، فقال تعالى : ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة** ﴾ الخ .

ومعنى (**أمة قائمة**) أى أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه ، وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه ، ومن تبعيضية ، أى بعض أهل الكتاب جماعة مستقيمة على الحق متبعة للعدل ، لاتظلم ولا تخالف أمر الله ، والمراد بهذه الأمة

جماعة من اليهود أسلموا ، كعبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعيد ، وأسيد بن عبيد ، وأضرابهم ، كما رواه ابن جرير عن ابن عباس .

﴿ **يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾ أى يتلون القرآن بالليل وهم يصلون متهجدين .

وقوله تعالى : ﴿ **يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ يدل على أنهم يؤمنون بالله وبجميع ماأنزل من كتب ، ومنها القرآن الكريم ، وبجميع رسله الذين أرسلهم ومنهم محمد ﷺ الذى أرسله الله تعالى إلى جميع الناس بما فيهم أهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ **قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم** ﴾[2] .

وما من نبى من الأنبياء إلا وقد أخبر قومه بحقيقة دين نبينا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم [3] .

ومن آمن ببعض الرسل ، وكفر ببعضهم فليس بمؤمن ، بل هو كافر ، ومأواه النار ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا** ﴾[4] .

وقد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود الذين كفروا بالمسيح ــ عليه السلام ــ ومحمد ﷺ ليسوا بمؤمنين ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ .

وإذا كانت الآية السابقة قد تناولت اليهود فقط ، فهناك آية تناولت النصارى وحكمهم فيها حكم اليهود فى الآية السابقة ، وهذه الآية هى قوله تعالى : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وماأنزل إليكم وماأنزل إليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع**

---

(١) الأعراف ١٥٨ (٢) النساء ٤٧ (٣) ق ٢ / ١٨٦ (٤) النساء ١٥٠ ، ١٥١

الحساب ﴾[1].

فقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية نزلت فى النجاشى ونحوه ممن آمن بالنبى ﷺ لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبى ولا العمل بشرائع الإسلام الظاهرة لكون أهل بلده نصارى ، لايوافقونه على إظهار شرائع الإسلام .

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبى ﷺ ، ومثله فى ذلك مثل من يؤمن بالنبى فى بلاد الحرب ، ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام ، ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة ، بل يعمل مايمكنه ، ويسقط عنه مايعجز عنه ، كما قال تعالى : ﴿ **فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾[2] .

فقد يكون الرجل فى الظاهر من الكفار ، وهو فى الباطن مؤمن كما كان مؤمن آل فرعون ، قال تعالى : ﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم** .. ﴾[3] إلى أن قال تعالى : ﴿ **فوقاه الله سيئات مامكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾[4] .

فهو من آل فرعون باعتبار النسب والظاهر ، وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب ، وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء .

وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو فى الظاهر منهم ، وهو فى الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ ويعمل بما يقدر عليه ، ويسقط عنه مايعجز عنه علما وعملا لقوله تعالى : ﴿ **لايكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾[5] وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام كعجز النجاشى .

وفى حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : لما مات النجاشى قال ﷺ : ﴿ استغفروا لأخيكم ﴾ فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر لعلج[6] مات بأرض الحبشة ؟ فنزلت ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وماأنزل إليكم وماأنزل إليهم** ﴾ ذكره ابن أبى حاتم وغيره بأسانيدهم .

---

(١) آل عمران ١٩٩ (٢) النساء ٩٢ (٣) غافر ٢٨ (٤) غافر ٤٥

(٥) البقرة ٢٨٦ (٦) العلج بوزن العجل الواحد من كفار العجم

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (وإن من أهل الكتاب) يعنى مسلمة أهل الكتاب ، وقال عباد بن منصور : سألت الحسن البصرى عن قول الله ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله** ﴾ الآية ، قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه ،وعرفوا الإسلام ، فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين ، للذى كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ ، واتباعهم محمدا ﷺ رواه ابن أبى حاتم [1] .
وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ) [2].

وهكذا نجد القرآن الكريم إذا أثنى على أحد من أهل الكتاب المعاصرين لنزوله إنما يثنى على من آمن منهم بمحمد ﷺ وكتابه الكريم ، كما فى الآيتين السابقتين ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايهدى القوم الظالمين** ﴾[3] .

ولا يمدح القرآن أناسا تكبروا عن الاستجابة لندائه ، فلم يقبلوا ماجاء به من أن محمدا رسول الله إلى الناس كافة ، أهل كتاب ، أو غير أهل كتاب ، ولم يذعنوا لتشريعه الصادر عن الله الذى أنزله ، بل يعتبر القرآن كل من لم يؤمن بمحمد وكتابه كافرا ومخلدا فى النار ، سواء كان من أهل الكتاب أو من غير أهل الكتاب قال تعالى :

﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة . وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة . وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة . إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾[4]

والمعنى : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين متروكين هملا بدون إرشادهم إلى الحق ، وإقامة الحجة عليهم ، وهذه الحجة هى رسول من الله ،

---

(١) هذه الأحاديث فى تفسير ابن كثير ٤٤٣/١ ، ٤٤٤ (٢) اللؤلؤ والمرجان ١ /٣٠
(٣) الأحقاف ١٠ (٤) البينة ١ : ٦

وهو محمد ﷺ يتلو قرآنا صار فيما بعد مكتوبا فى صحف منزهة عن الباطل والتحريف ، فيها آيات مستقيمة لاعوج فيها ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب وصاروا شيعا وأحزابا إلا بعد أن جاءهم محمد ﷺ بكتابه حسدا له وبغيا ، وماأمروا إلا أن يعبدوا الله وحده ، بعيدين عن الشرك مستقيمين على دين إبراهيم وغيره من الرسل ، ولكنهم حرفوا وبدلوا فعبدوا أحبارهم ورهبانهم ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا .

وأمروا بأن يقيموا الصلاة فيؤدوها على الوجه الأكمل ، فى أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها ، وأن يعطوا الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس ، وخص الصلاة والزكاة لشرفهما ، وذلك المذكور من العبادة والإخلاص ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هو دين الملة المستقيمة ، دين الإسلام ، فلماذا لايدخلون فيه ؟ .

إن الذين كفروا بالله ، فكذبوا بالقرآن ، وبنبوة محمد ﷺ ، من اليهود والنصارى ، وعبّاد الأوثان ، هؤلاء جميعهم يوم القيامة فى نار جهنم ماكثين فيها أبدا ، أولئك شر الخلق على الإطلاق ، فهم شر من السراق ، لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ ، والدعوة إلى الإيمان به ، وشر من قطاع الطرق ، لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق وكفروا بالله صراحة وضلوا ضلا لابعيدا .

وهكذا لاتشهد آيات القرآن الكريم للمسيحيين بالتوحيد ، وإنما تشهد لهم بالكفر المؤكد ، والتثليث الصريح ، وبالخلود المؤبد فى نار ﴿ **وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ .

* * *

المبحث السادس .

والقرآن لايشهد للمسيحيين أنهم غير مشركين

وقال القمص زكريا فى ص ٨ :

ثانيا : أنهم غير مشركين ــ يقصد أن القرآن يشهد للمسيحيين أنهم غير مشركين ــ ثم قال :

١ ــ سورة المائدة .

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون ﴾ اهـ .

ودحضا لهذا الافتراء أقول :

القرآن لايشهد للمسيحيين المعاصرين لنزوله ، ولم يؤمنوا به وبرسوله أنهم غير مشركين ، وإليك البيان :

١ ــ إن هذه الآية لم تتعرض لعقيدة النصارى بشرك أو توحيد ؛ لأنها ليست مسوقة لذلك ، بل مسوقة لبيان علاقة أهل الكتاب بالمسلمين ، فبعد أن تعرض القرآن الكريم فى الآيات السابقة لليهود وأعمالهم ، وللنصارى وعقائدهم ، ذكر هنا أحوالهم فى عداوتهم ومحبتهم للمؤمنين ، وتعرض للمشركين كذلك بالتبع ، وإذا كان الله لم يصف المسيحيين بالشرك فى هذه الآية ، لأنها ليست مسوقة لذلك ، فقد وصفهم بالشرك ، وبأنهم يعبدون غير الله فى آيات أخرى تقدم بعضها ، منها :

ا ــ قوله تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لاإله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾(١) .

فأخبر الله أنهم اتخذوا رجال دينهم أربابا يشرعون لهم مالم يأذن به الله ويكون كلامهم دينا ، ولو كان يخالف كلام الله وكلام رسوله ، وعبدوا المسيح بن مريم فاتخذوه ربا وإلها ، وقد أمرهم الله فى كتبه على لسان رسله ألا يعبدوا إلا إلها واحدا وهو الله الواحد الأحد ــ لأنه لايستحق العبادة فى حكم العقل والشرع إلا الإله الواحد ، فبعملهم هذا أشركوا بالله ــ تنزه الله عن الإشراك فى العبادة ، والخلق والصفات ــ وأصل دينهم لاشرك فيه ، فما بعث الله رسله إلا بالتوحيد والنهى عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون** ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾(٣) .

ب ــ وقوله تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾(٤) فقد جعل الله قول النصارى ﴿ **إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ شركا .

وادعاء النصارى وغيرهم أن لله ولدا هو ما استعظم الله افتراءه من قائليه ، وشدد عليهم النكير فيه ، فقال تعالى : ﴿ **ألا إنهم من إفكهم ليقولون . وَلَدَ اللهُ وإنهم لكاذبون** ﴾(٥) وقال : ﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾(٦) .

ج ــ وأثبت الله بالدليل القاطع أعظم وأشنع أنواع الشرك للنصارى ، وهوقولهم : إن الله ثالث ثلاثة : أب والد غير مولود ، وابن مولود غير والد ، والروح القدس الناشىء عنهما ، فقال تعالى ــ مؤكدا كلامه بالقسم ، ومتوعدا لهم بأشد أنواع العذاب وأقساه على هذا الشرك إن لم يقلعوا عنه ــ : ﴿ **لقد**

---

(١) التوبة ٣١ (٢) الأنبياء ٢٥ (٣) الزخرف ٤٥ (٤) المائدة ٧٢ (٥) الصافات ١٥١،١٥٢
(٦) الزمر ٤

كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾(١) فأى شرك وأى تشنيع ووعيد عليه أعظم وأقبح وأشد من هذا ؟ .

٢ ـــ إن الله تعالى إذا ذكر طوائف الديانات مجتمعة جعل المشركين علما على عباد الأوثان ، لأنهم لقدمهم فى وثنيتهم عريقون فى الشرك والكفر ، أصلاء فيه ، أما أهل الكتاب فالشرك والكفر قد عرض للكثير منهم عروضا ، وليس من أصل دينهم ، وذلك نحو قوله تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾(٢) .

وإذا ذكر إحدى الطوائف الدينية التى أشركت من أهل الكتاب منفردة ذكرها بوصف الشرك كما فى الآيات السابقة .

٣ ـــ إن قوله « **والنصارى أقربهم مودة للمسلمين ، فيتضح أن النصارى غير مشركين بالله** » كلام غير منطقى فلا ينتج المطلوب ؛ لأنه لا يلزم من وجود مودة بين جماعتين إحداهما موحِّدة كون الأخرى موحدة ، فقد وجدت المودة والتحالف والتعاطف بين الرسول ﷺ وأصحابه من جهة وبين قبيلة خزاعة من جهة أخرى قبل فتح مكة ، وأكثرهم مشركون ، قال تعالى : **﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾**(٣) .

٤ ـــ إن هذه الآية نزلت فى النصارى الذين أسلموا فآمنوا بمحمد وكتابه ، وعملوا بمقتضى ذلك ، ويدل على هذا الآيات التى ترك ذكرها بعد هذه الآية ، وهى قوله تعالى : **﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين .**

---

(١) المائدة ٧٣ (٢) الحج ١٧ (٣) الممتحنة ٨ ، ٩

فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهـار خالـدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾[1] .

وإليك معنى الآيات لترى أنها أنزلت فيمن أسلم من النصارى :

والمعنى : لتجدنّ ــ يامحمد ــ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، والذين أشركوا من أهل مكة وغيرهم ، لتضاعف كفرهم وجهلهم بحقيقة الأمر ، وانهماكهم فى الهوى والضلال ، وموالاة بعضهم لبعض ، وتحزبهم جميعا ضد المسلمين ، كما حصل فى غزوة الخندق وغيرها ، كما قال تعالى : **﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت**[2] **ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾**[3] .

﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ وقرب مودتهم للمؤمنين بسبب أن منهم قسيسين ، أى علماء ورهبانا ، أى عبادا ، وأنهم لايستكبرون عن اتباع الحق ، كما يستكبر اليهود والمشركون ، وأنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول محمد ﷺ من القرآن ترى أعينهم تمتلىء بالدمع حتى يفيض منها ، (**مما عرفوا من الحق**) أى من أجل معرفتهم أنه كلام الله ، وأنه حق (**يقولون ربنا آمنا**) أى يقولون ياربنا صدقنا بنبيك محمد ﷺ ، وكتابك الذى أنزلته عليه (**فاكتبنا مع الشاهدين**) أى مع المقربين من أمة محمد ﷺ الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة .

وقالوا فى جواب من عيّرهم بالإسلام من اليهود **﴿ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ﴾** أىْ وأىُّ مانع يمنعنا من أن نصدق بالله وحده وبما جاءنا من الحق وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ مع وجود المقتضى ، وقيام الدلائل على ذلك ، ونحن نرجو أن يدخلنا ربنا الجنة مع القوم الذين صلحت عقائدهم وأعمالهم .

فكتب الله لهم ثواباً لاعترافهم ، هو جنات تجرى الأنهار تحت أشجارها وقصورها وهم ماكثون فيها دائماً ، وذلك الجزاء الذى نالوه هو جزاء كل محسن

---

(١) المائدة ٨٣ : ٨٥ (٢) بالجبت والطاغوت : كل معبود أو مطاع غيره تعالى

(٣) النساء ٥١

مثلهم .

ويدل على أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من النصارى بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم الذى أنزل عليه وعملوا بمقتضى ذلك ما يأتى :

أ ـــ ما جاء فى سبب نزولها ، وهو ما أخرجه ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب وأبى بكر بن عبد الرحمن ، وعروة بن الزبير قالوا : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى وكتب معه كتابا إلى النجاشى فقدم على النجاشى ، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه وأرسل إلى الرهبان والقسيسين ثم أمر جعفر بن أبى طالب فقرأ عليهم سورة مريم ، فآمنوا بالقرآن ، وفاضت أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله فيهم ﴿**ولتجدنّ أقربهم مودة**﴾ إلى قوله : ﴿**فاكتبنا مع الشاهدين**﴾[1].

ب ـــ وقوله تعالى : ﴿ **وأنهم لايستكبرون** ﴾ أى لايستكبرون عن اتباع الحق كما استكبر غيرهم .

ج ـــ وقوله ﴿ **وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ فهم سمعوا القرآن فتأثروا به فآمنوا إيماناً عميقاً ، وقالوا : ربنا آمنا بنبيك محمد ﷺ الذى أرسلت وبكتابك الكريم الذى أنزلت فاكتبنا مع المقربين بتصديقهما .

د ـــ وأنه لما عيّرهم من عيّرهم بالإسلام أجابوه قائلين : ﴿ **ومالنا لانؤمن بالله وماجاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين** ﴾ .

هـ ـــ وأن الله سبحانه إذا أثنى على جماعة من أهل الكتاب المعاصرين لنزول القرآن إنما يثنى على من دخلوا فى الإسلام وآمنوا بالقرآن ، وبمن أنزل عليه ، كما آمنوا بسائر كتب الله ورسله السابقين ، كما سبق فى قوله تعالى : ﴿**وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب**﴾[2].

وكما فى قوله : ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**﴾[3] وقوله : ﴿**الذين آتيناهم الكتاب من**

---

(١) لباب النقول للسيوطى ١ /١١٧ (٢) آل عمران ١٩٩ (٣) البقرة ١٢١

قبله هم به يؤمنون.وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾[١]، وقوله: **﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا.ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾**[٢] إلى غير ذلك من الآيات .

أما سبب عداوة اليهود للمسلمين :

فقد ذكرها الله فى الآيات السابقة على هذه الآيات فقال تعالى : **﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون. ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه مااتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون . لتجدن ﴾**[٣] .

فقد ذكرت السبب فى شدة عداوة اليهود للمسلمين ، ومودة النصارى لهم ، حيث كان اليهود يتآمرون مع المشركين الكفار ، ويوالونهم ويتحالفون معهم ضد المسلمين ، فى حين أن دينهم متحد فى أسسه مع الدين الذى يدعو إليه النبى محمد ﷺ ، ولو كانوا مخلصين لدينهم لما اتخذوهم أولياء ، لأنهم أعداء لدينهم ، ودين النبى محمد المتحدَيْن فى الأصول .

وحيث كان يبدو من النصارى رقة قلب وإخلاص وتواضع ، وعدم عناد ، ومسارعة إلى الاعتراف بالحق ، ويتضح لهم اتساق ما نزل على النبى ﷺ مع ما عندهم ، فيدعوهم ذلك إلى الإيمان به ، ولذا كان من دخل فى الإسلام من النصارى أكثر ممن دخل فيه من اليهود .

ووصف بغض اليهود للمسلمين ودسائسهم ضدهم ، وتربصهم بهم ، وكيدهم لهم قد تكرر فى القرآن فى آيات عديدة ، جمعها وتوضيحها يحتاج إلى كتاب ليس هذا موضعه الآن .

---

(١) القصص ٥٢ ، ٥٣ (٢) الإسراء ١٠٧ : ١٠٩ (٣) المائدة ٧٨ : ٨١

والخلاصة :

أن معاداة اليهود ، والمشركين للمسلمين ترجع إلى عوامل منها السياسية والاجتماعية ، والخلقية والوراثية ، ومنها أنانية الرؤساء والزعماء ، وأحبار اليهود والربانيين ، وخوفهم على ما كانوا يتمتعون به ، من متع الحياة ونفوذها .

أما النصارى فلم يكن لهم كيان قومى ، ومصالح خطيرة فى دار الدعوة ، وفى عهديها المكى والمدنى ، فلم يقع بسبب ذلك بينهم وبين النبى ﷺ والمسلمين احتكاك واصطدام فى العقائد والسياسة ، كما كان أمر اليهود الذين كانوا يخشون على سلطانهم فى المدينة وما جاورها .

أما حين تجاور الدينان ودخل بعض النصارى فى الإسلام ، وأما حين استعمر النصارى معظم الأقطار الإسلامية ، أو التحموا معهم فى دولة واحدة ، فقد تفننوا فى اضطهاد المسلمين وتقتيلهم بالجملة ، وعاملوهم بكل قسوة ، وبأقبح معاملة ، بل أرغموهم فى كثير من المناطق على النصرانية ، ومن أبوها كان جزاؤهم الإبادة الجماعية ، وماعليك إلا أن تتصفح التاريخ ، أو تلقى نظرة على البلاد التى يحكمها مسيحيون ولو قلة ، أو تكون فيها قلة إسلامية فسترى العجب العجاب ، وستنقلب منها بقلب حزين ، وطرف كليل ، وعما قريب سيأتيك مزيد تفصيل .

* * *

المبحث السابع .

والقرآن لايشهد للمسيحيين أنهم غير كفرة

وقال القمص زكريا فى ص ٨ :

ثالثا : أنهم غير كفرة ــ يقصد أيضا أن القرآن يشهد للمسيحيين أنهم غير كفرة ــ ثم زعم أن القرآن يؤيد مدعاه فقال :

٢ ــ سورة آل عمران :

﴿ إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾[١] .

ثم قال : فمن هذا يتضح أن الذين اتبعوا المسيح (أى المسيحيين) ليسوا كفرة ، بل إن الله يميزهم عن الكفرة ويرفعهم عليهم .

ودحضا لهذا الافتراء أيضا أقول :

القرآن لايشهد للمسيحيين المعاصرين لنزوله ، ولم يؤمنوا به وبرسوله أنهم غير كفرة ، بل يشهد أنهم كفار ، ومخلدون فى النار ، وإليك البيان :

ا ــ كما أن اليهود الموجودين حين بعثة عيسى ــ عليه السلام ــ إن لم يؤمنوا به وبالإنجيل فهم كفار ، فاليهود والنصارى الموجودون بعد بعث محمد ﷺ إن لم يؤمنوا به وبالقرآن الكريم ، كما يؤمنون بسائر كتب الله ورسله ، فإنهم كفار فى نظر القرآن الكريم ، ومادمت تستدل بالقرآن على ما تريد ، فما قبل ما جاء فيه ، وما حكم به عليهم ، فقد وصفهم الله وحكم عليهم بالكفر ، ودمغهم

---

(١) آل عمران ٥٥

به فى عدة آيات منها :

١ ــ قوله تعالى : ﴿ **يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون** ﴾(١) .

٢ ــ وقوله : ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾(٢) . الخير : النعمة والفضل ، والمراد به فى الآية النبوة والوحى والقرآن العظيم .

والمعنى : لايحب الذين كفروا من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، ولا المشركين عبدة الأصنام أن ينزل الله عليكم ــ أيها المؤمنون ــ أى شىء من الخير الذى ينفعكم بسبب حسدهم وبغضهم لكم ، وجهلهم أن الله يختص برحمته من يريد دون أن يضره سخط الساخطين ، أو حسد الحاسدين ، وهو صاحب الفضل العظيم على جميع المخلوقات ، وقال ﴿**ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ ولم يقل مايود أهل الكتاب ، ليسجل عليهم كفرهم بكتبهم ؛ لأنهم لو آمنوا بها حقا لصدقوا محمداً ﷺ الذى أمرتهم كتبهم بتصديقه واتباعه .

٣ ــ وقوله : ﴿ **يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾ أى وأنتم توقنون من صميم قلوبكم أن الله حق ، وأن محمداً رسول الله صدقا .

٤ ــ وقوله : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون** ﴾(٣) .

أى قل ــ يامحمد ــ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى لم تكفرون بآيات الله التى دلتكم على صدق محمد وكتابه ، والله شهيد على أقوالكم وأعمالكم وسيجزيكم عليها .

٥ ــ وقوله : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم**

---

(١) البقرة ٤٠ ، ٤١ (٢) البقرة ١٠٥ (٣) آل عمران ٧٠ ، ٩٨

لأول الحشر ﴾ .

٦ ــ وقوله ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾(١) . فقد دمغهم الله بالكفر وهم من أهل الكتاب لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ وكتابه .

٧ ــ وقوله : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة** ﴾(٢) .

فالقرآن لم يثن ويمدح أحدا من اليهود أو النصارى بعد تبديل دينهم ونسخه بالإسلام ، وكيف يثنى عليهم أو يمدحهم ، وهو يكفرهم ويذمهم فى مواضع كثيرة منه .

ب ــ إن من يؤمن بموسى وعيسى ــ عليهما السلام ــ ويؤمن بكتابيهما لايعتد بإيمانه إلا إذا آمن بمحمد ﷺ وكتابه ؛ لأن كلا من موسى وعيسى أخبر قومه بوجوب الإيمان بمحمد ﷺ ورسالته قال تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾(٤) .

ج ــ وبناء على ذلك فقوله تعالى : ﴿ **إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ معناه وجاعل الذين اتبعوك ــ فى الدين وآمنوا بأنك عبد الله ورسوله ، وصدقوك فى قولك ﴿ **يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾(٥) . ثم آمنوا بعدك بمحمد ــ فوق الذين مكروا بك من اليهود ، ومن سار بسيرتهم ممن لم يهتد بهديك ويسير على دربك .

---

(١) الحشر ٢ ، ١١ (٢) البينة ١ : ٣
(٣) البقرة ١٤٦ (٤) الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧ (٥) الصف ٦

والمراد أنهم أعلى منهم روحا ، وأحسن خلقا ، وأكمل آدابا ، **فهذه** الفوقية فوقية دينية روحانية ، وهى فضلهم عليهم فى حسن الأخلاق ، وكمال الآداب ، واتباع الحق واجتناب الباطل .

وقال أبو السعود فى تفسيره ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك** ﴾:قال قتادة والربيع ، والشعبى ، ومقاتل ، والكلبى : هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه من أمة محمد ﷺ ، دون الذين كذبوه ، وكذبوا عليه من النصارى ﴿ **فوق الذين كفروا** ﴾ وهم الذين مكروا به عليه السلام ، ومن يسير بسيرتهم من اليهود فإن أهل الإسلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعة والحجة .

د ــ وقال الإمام ابن تيمية : إن المسيح بشر بأحمد ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد** ﴾ . فإذا لم يتبعوا أحمد كانوا مكذبين للمسيح ، وعندهم من البشارات ، عن المسيح وغيره من الأنبياء ، بأحمد ما هو مبسوط فى مواضع[1] .

وهكذا ، فكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ بعد بعثته ولم يؤمن بالقرآن ويعمل بماجاء فيه ، وكل من يقول بالثالوث ، أو أن عيسى ابن الله أو هو الله حقيقة ، فليس مؤمنا بعيسى ــ عليه السلام ــ ولا متبعا له فيما جاء به وقاله .

وهكذا ، ثبت أن كل من كان فى عصر الرسالة المحمدية ، ولم يعتنق الإسلام ، ويلتزم أحكام القرآن ، لا يشهد لهم القرآن بالإيمان ، ولا بالتوحيد ، بل يشهد لهم بالكفر والخلود فى النار ، وقد جاء ذلك فى آيات كثيرة متواترة منها قوله تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾[2] . وقوله : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا** ﴾[3] . وقوله : ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾[4] .

---

(١) الجواب الصحيح ١ /٢٨٤ (٢) آل عمران ٨٥ (٣) النساء ١٥٠ ، ١٥١ (٤) البينة ٦

وقوله ﷺ : (والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم عن أبى هريرة[1] .

* * *

---

(١) ق ٢ /١٨٦

المبحث الثامن

المسيح ـــ عليه السلام ـــ ابن مريم وليس ابن الله

وقال القمص زكريا فى ص ١٧ :

المسيح هو ابن الله المتجسد ، ثم قال : وابن الله من له طبيعة الله ، ثم قال : وابن الله : أى الله حقا .

وإبطالا لهذا الباطل أقول :

١ ـــ لا شك أنه يقصد بقوله (المسيح هو ابن الله المتجسد) البنوة الحقيقية ، بدليل قوله (وابن الله من له طبيعة الله) وقوله (وابن الله : أى الله حقا) وكما سبق بيانه فى عقيدتهم التى يرددونها فى الكنائس خلف قساوستهم :
(نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو الآب فى الجوهر ، كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان) .

وهذا ماستعظم الله افتراءه من قائليه ، وشدد عليهم النكير فيه ، وتوعدهم عليه بعظيم عقابه ، وصبّ عليهم بسببه سوط عذابه ، فقال تعالى :

١ ـــ ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا[(١)] . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيـــه يوم القيامة فردا ﴾[(٢)] .

٢ ـــ وقال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ماهم به من علم

---

(١) منكراً فظيعاً . (٢) مريم ٨٨ : ٩٥ .

ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾[1] .

٣ ـــ وقال : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له مافى السموات والأرض كل له قانتون[2] ﴾[3] .

٤ ـــ وقال : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من وَلِدٍ سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾[4] .

٥ ـــ وقال : ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له مافى السموات ومافى الأرض إن عندكم من سلطان[5] بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون . قل إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون ﴾[6] .

٦ ـــ وقال : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة[7] وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل[8] ﴾[9] .

٧ ـــ وقال ـــ جل شأنه : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وماأمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[10] .

معانى مفردات هاتين الآيتين :

عزير : هو من يسميه أهل الكتاب عِزْرا . يضاهئون : يشابهون ويحاكون . قاتلهم الله : المراد لعنهم وطردهم من رحمته . أنى يؤفكون : كيف يصرفون عن الحق إلى غيره.أحبارهم : هم علماء اليهود ، جمع حَبر بفتح الحاء وكسرها . رهبانهم : جمع راهب وهو عند النصارى المنقطع للعبادة .

---

(١) الكهف ٤ ، ٥ (٢) مطيعون خاضعون (٣) البقرة ١١٦
(٤) مريم ٣٥ (٥) حجة وبرهان (٦) يونس ٦٨ ، ٦٩ (٧) زوجة (٨) حفيظ
(٩) الأنعام ١٠١ ، ١٠٢ (١٠) التوبة ٣٠ ، ٣١

سبب النزول .

أخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى ، وأبو أنس ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ، وأنت لاتزعم أن عزير ابن الله فأنزل الله ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن** ﴾ الآية [1] .

وإسناد هذا القول إليهم جملة وإن كان قد صدر من بعضهم لأن المنكر الذى يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلهم ، كما قال تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ [2] .

والمعنى : وقالت اليهود ، أى بعضهم : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقد كان القدماء منهم يقولون به قاصدين معنى التكريم والمحبة ، فكان إطلاقاً مجازياً ، ثم سرت إليهم وثنية الأمم السابقة ، فاتفقت كلمتهم على أنه ابن الله حقيقة ، وعلى أن ابن الله بمعنى الله ، وبمعنى روح القدس ، إذ هذه الثلاثة واحد حقيقة ، وهذا تعليم الكنائس الذى قررته المجامع الرسمية بعد المسيح ، وتلاميذه بثلاثة قرون وقد خالف فى ذلك من يسمون الموحدين أو العقليين ولكن الكنائس الكاثوليكية ، والأرثوذكثية ، والبروتستنتية لا تعتد بنصرانيتهم ولا بدينهم .

﴿ **ذلك قولهم بأفواههم** ﴾ أى هذا الذى قالوه فى عزير والمسيح قول تلوكه الألسنة فى الأفواه ، لا يؤيده برهان ، ولا يتجاوز حركة اللسان ، بل البرهان دال على عكسه لاستحالة إثبات الولد لمن هو منزه عن الحاجة إلى الغير ، واتخاذ الصاحبة .

﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾ يشابهون ويحاكون به قول الذين كفروا من قبلهم ، كقدماء المصريين وبراهمة الهند والبوذيين ، ومشركى العرب الذين قالوا مثل هذا القول ، إذ قالوا : « الملائكة بنات الله » .

وقد علم من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٢ /٣٥٤ (٢) الأنفال ٢٥

والحلول والتثليث كانت موجودة عند البراهمة والبوذيين وفى الهند والصين واليابان ، وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومان كما سبق .

فبيان القرآن لهذه الحقيقة التى لم يكن أحد من العرب ولا ممن حولهم يعرفها ، بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان معجزة من معجزاته الكثيرة التى تظهر على مر الزمان ، وتصدقها المشاهدة والعيان .

﴿ **قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ أى لعنهم الله وطردهم من رحمته ، كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، ويبدلون الحقائق ، ويصرفونها عن غير وجهها الطبيعى إلى قول لا يقبله عقل ، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان من مخلوقات الله الذى خلق هذا الكون العظيم ودبر أمره ، ولا ينبغى لأحد من هذه المخلوقات أن يجعل لخالقه ومدبر شئونه ولداً من جنسه مع علمه بأنه كان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم .

ثم بين سبحانه كفرهم وشركهم فقال :

﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ أى اتخذ أهل الكتاب رؤساء أديانهم أرباباً وآلهة من دون الله حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل ، فاليهود اتخذوا أحبارهم ورهبانهم ، والنصارى اتخذوا قساوستهم ورهبانهم أرباباً غير الله .

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه ، قال : أتيت النبى ﷺ ، وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال : يا عدى ، اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعته يقرأ ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ قال : « إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » رواه الترمذى[1] .

﴿ **والمسيح بن مريم** ﴾ اتخذه النصارى رباً معبوداً بعد ما قالوا إنه ابنه واعتقدوا فيه الحلول ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ، وتأخيره فى الذكر — مع أن اتخاذهم له رباً معبوداً أقوى من مجرد الإطاعة فى أمر التحليل والتحريم كما هو المراد باتخاذهم الأحبار والرهبان — لأنه مختص بالنصارى ، ونسبته إلى أمه مع

---

(١) تيسير الوصول ١ / ١٢٦ .

دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية للإيذان بكمال انحطاط رأيهم ، والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة .

﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً** ﴾ أى اتخذ اليهود والنصارى رؤساء دينهم أرباباً من دون الله تعالى ، والربوبية تستلزم الألوهية بالذات ، إذ الرب هو الذى يجب أن يعبد وحده ، واتخذ النصارى المسيح رباً وإلهاً ، والحال أنهم ما أمروا فى التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى ، ومن اتبعهما فيما جاءا به عن الله إلا أن يعبدوا ويطيعوا فى الدين إلهاً واحداً بما شرعه لهم ، وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه .

﴿ **لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ أى لا وجود لغير الإله الواحد لا فى حكم الشرع ، ولا فى نظر العقل ، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بمحض الهوى والجهل ، تنزيهاً له عن الشرك فى الألوهية والعبادة والطاعة .

٨ — وقال تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[(١)] أى الله واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، منفرد بتصريف العالم وتدبير شئونهم ، وهو العلى الأعلى الذى لا يقصد فى قضاء الحوائج غيره ، وليس له مكافىء ومماثل ، فكيف يشبهونه بخلقه ، ويقولون ﴿ **ولد الله وإنهم لكاذبون** ﴾[(٢)] .

٩ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قال الله تعالى : « كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفئاً أحد » رواه البخارى[(٣)] .

١٠ — وما ذكره الله من قول عيسى — عليه السلام — لقومه ﴿ **إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾[(٤)] .

١١ — عيسى — عليه السلام — بشر كسائر رسلهم ، ومن طبيعتهم ،

(١) الإخلاص (٢) الصافات ١٥٢ (٣) فى ٦ / ٣١١ .
(٤) آل عمران ٥١ .

ولد كما ولدوا ، وعاش كما عاشوا ، يأكل ويشرب وينام ، ويفرح ويحزن ، مثلهم تماماً قال تعالى : ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون** ﴾[1] وفى الإنجيل « جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب . . »[2] .

فالآية الكريمة تخبرنا أن عيسى له أم من البشر ، ولا شك أن كل من له أم حدث بعد أن لم يكن ، وكل من كان كذلك كان مخلوقاً ، فكيف يكون هو الله ؟ أو ابن الله له طبيعته ؟ .

وتخبرنا كذلك أنه رسول كسائر رسل البشر ، ورسل البشر من خلق الله ، فكيف ترفعونه عنهم إلى مستوى الله ؟ فتقولون إنه الله ، أو ابن الله له حقيقة الله ؟ .

وتخبرنا أيضاً أنه وأمه كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة ، والإله الحق هو الذى يكون غنياً عن جميع الأشياء فكيف يعقل أن يكون المسيح إلهاً ؟ وتشير الآية إلى أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد ، فلو كان المسيح إلهاً لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب ، لكنه لم يقدر ، فلا يكون إلهاً ورباً للعالمين .

١٢ ــ لو كان المسيح ابن الله حقيقة لكان الله مشابهاً للحوادث ، ولو شابهها لكان حادثاً مثلها ، وذلك محال عقلاً ونقلاً كما سبق ، وكما جاء فى التوراة ، وقال موسى لفرعون : « لكى تعرف أن ليس مثل الرب إلهنا »[3] .

١٣ ــ ولماذا تقولون إن عيسى ابن الله ، أو أقنوم فى اللاهوت ، أو إله ؟ إن كان لوجوده من غير أب فآدم وجد بلا أب وأم ، فلا تماثل بينهما فى الأصل ، ولكن التماثل فى وجودهما بكلمة « كن » التى حيرت عقولكم وأطاشت صوابكم .

١٤ ــ كتب رينان عن المسيح ــ عليه السلام ــ كتاباً يثبت فيه « أن السيد المسيح لم يكن إلهاً ، ولا ابن إله ، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامى ،

(١) المائدة ٧٥ .

(٢) متى ١١ : ١٩ .   (٣) خروج ٨ (١٠) .

وبالروح الكريمة » وإذا قوضت فكرة المسيح الإله ، أو المسيح ابن الإله ، فقد انهارت المسيحية الحالية من أساسها[1] .

١٥ ــ كان المسيح ــ عليه السلام ــ حريصاً على أن يدعو نفسه ابن الإنسان ، وتكرر هذا الوصف لنفسه على لسانه فى كافة الأناجيل :

ففى متى ٨ : ٢٠ ، ١١ : ١٩ ، ٢٠ : ٢٨ ، ٢٤ : ٣٠ ، ٢٥ : ٣١ ، ٢٦ : ٢٤ .

ومرقص : ٢ : ٢٨ ، ٩ : ٩ ، ١٤ : ٤١ .

ولوقا : ٩ : ٥٦ ، ١٧ : ٢٤ ، ١٨ : ٨ .

ويوحنا : ٣ : ١٣ ، ٥ : ٢٧ ، ١٣ : ٣١ ، ٦ : ٢٧ .

وغيرُ ذلك كثير ، فكيف بعد هذا تخالفون نصوص الإنجيل وتعاليم المسيح عليه السلام ، وكتب الله المنزلة ، وبداهة العقول ، وتقولون إنه ابن الله حقاً ، وله طبيعة الله صدقاً ؟ إن هذا لهو الضلال البعيد ، والكفر الذى ليس بعده مزيد .

فخير لكم ــ ما دمتم تستشهدون بآيات القرآن المجيد ــ أن تؤمنوا بما جاء فيه ، وتستجيبوا لنداء موحيه ، حيث يقول لكم : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله** ﴾[2] .

فليس هو الله ، ولا إلهاً معه ، ولا ابنه له طبيعته .

* * *

(١) انظر أوربا فى الإسلام العدد السابع للدكتور عبد الحليم محمود ص ١٣ .
(٢) النساء ١٧١ .

المبحث التاسع

المسيح ــ عليه السلام ــ ليس هو الله

وقال فى ص ١٧ أيضاً :

المسيح هو الله المتجسد ــ ثم استشهد على ذلك فقال :

ا ــ شهادة القرآن « سورة القصص ٢٩ » كما حل فى الشجرة .

ب ــ شهادة أئمة الإسلام : أهل النصيرية والإسحاقية « الملل والأهواء والنحل جـ ٢ ص ٢٥ » .

الشيخ أبو الفضل القرشى « هامش الشيخ القرشى على البيضاوى جـ ٢ ص ١٤٢ .

ودحضاً لهذا الافتراء والاختلاق على الله والقرآن الكريم أقول :

١ ــ الآية التى استشهد بها من سورة القصص رقم ٣٠ لا ٢٩ ، وهى بعيدة عن مدعاه بعد المشرق من المغرب ، وإليك نصها مع الآية التى قبلها لارتباطها بها ، قال تعالى :

﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾ .

معانى المفردات : قضى موسى الأجل : وفّى الأجل الذى اتفق عليه مع حميّه ، بأهله : المراد بهم زوجه ومن معه من ولده ورعاة غنمه . آنس : أبصر . الطور : هو الجبل المعروف . امكثوا : انتظروا . بخبر : المراد أجد من يخبرنى عن

الطريق وكانوا قد ضلوه ، لأنهم كانوا فى ليلة مظلمةٍ ، وجوٌّ شديد البرد . جذوة : هى عود فيه نار بلا لهب . تصطلون : تستدفئون لدفع البرد . من شاطىء الوادى الأيمن : من لابتداء الغاية ، والأيمن صفة الشاطىء ، أو للوادى ، والمراد جانب الوادى الموصوف بالمقدس . الأيمن : المراد أنه كان على يمين موسى ، أو مأخوذ من اليمن وهو البركة . فى البقعة المباركة : متعلق بنودى ، أو بمحذوف على أنه حال من الشاطىء ، أى حال كون موسى موجوداً فى المكان المبارك لسماعه فيه كلام ربه ، واختياره رسولاً . من الشجرة : بدل اشتمال من الشاطىء ، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء ،كقوله تعالى : ﴿ **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم** ﴾ والمراد من قبل الشجرة .

والمعنى : فلما وفّى موسى الأجل الذى اتفق عليه مع حميه سار بأهله وغنمه التى وهبها له ، وسلك بهم الطريق إلى مصر فى ليلة ممطرة ، وظلمة باردة ، ونزل منزلاً ، فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئاً ، فعجب لذلك .

وبينما هو كذلك رأى ناراً تضىء عن بعد ، فقال لأهله : انتظروا قليلاً ، إنى أبصرت ناراً لعلى آتيكم منها بخبر عن الطريق ، وكانوا قد ضلوا عنها ، أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها نار لتستدفئوا بها من البرد ، وكان الوقت شتاء فلما جاء إلى النار التى أبصرها ناداه ربه من جانب الوادى الأيمن ، أى المبارك والذى عن يمين موسى فى البقعة المباركة من ناحية الشجرة : يا موسى إنى أنا الله ربك ورب العالمين جميعاً ، وقد خلق الله فيه علماً يقينياً بأن المتكلم هو الله تعالى ، وأن ذلك الكلام كلامه ، وقد جعلت البقعة مباركة لأن الله تعالى كلم موسى فيها ، وبعثه نبياً .

فالآية تدل على أن موسى ــ عليه السلام ــ سمع نداء الله من قبل الشجرة ، لا من الشجرة نفسها .

فكيف تقولون : إن الله حلَّ فى شجرة ؟ هذا مذهب الحلولية الذين يقولون : بأن الله حال فى مخلوقاته ، وهو مذهب باطل ، لأنه يؤدى إلى التجسيم والتشبيه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ، فالله له السمو والعلو على خلقه ، فكيف تنزلون به إلى أدنى خلقه مستوى ، وهو القائل : ﴿ **وهو القاهر فوق**

عباده وهو الحكيم الخبير ﴾[1] .

على أن موسى ــ عليه السلام ــ لو سمع كلام الله من نفس الشجرة لما دل ذلك على أن الله هو الشجرة ، ولا حال فيها ، فمن سمع كلام شخص من مذياع لا يدل ذلك على أن الشخص هو المذياع ولا حال فيه .

وما أروع ما قاله جل جلاله : **﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾**[2] أى وله الوصف البديع الذى ليس لغيره ما يدانيه ، كالإرادة الكاملة ، والقدرة الشاملة ، والحكمة التامة ، والمخالفة لجميع الحوادث .

٢ــ وأما قوله « شهادة أئمة الإسلام : أهل النصيرية ، والإسحاقية ــ الملل والأهواء والنحل جـ ٢ ص ٢٥ » وقوله « الشيخ أبو الفضل القرشى ــ هامش الشيخ القرشى على البيضاوى جـ ٢ ص ١٤٢ » فلدحض هذا الافتراء والأهواء الزائفة أقول :

ا ــ قلت فى أول هذه المباحث : إن العقائد المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله ، لا يستدل عليها إلا بقول ثابت بنص دينى متواتر ، أو برهان عقلى قاطع ، وليس لكم على ما زعمتم من دعوى الاتحاد أو الحلول شىء من ذلك ، بل ذلك مستحيل على الله سبحانه عقلاً ونقلاً فدليلكم باطل وما أدى إليه من الاتحاد أو الحلول باطل .

ب ــ أئمة الإسلام عندنا هم من يسيرون فى عقائدهم حسب الآيات القرآنية المحكمة ، والبراهين العقلية القاطعة ، وكل من حاد عن ذلك فليس من أئمة الإسلام فى شىء ، بل هو ممن قال الله فيه : **﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾**[3] .

فلا تحتج علينا ــ أيها المتأول لكلام الله على حسب هواه ــ فى أمور العقيدة بمثل هذه الأساطير والأهواء الباطلة ، بل بنص دينى متواتر ، أو برهان عقلى قاطع ، لا بأقوال النصيرية الذين يقولون بالحلول والاتحاد فى أهل البيت النبوى ، وقد كفروا بذلك .

---

(١) الأنعام ١٨ . (٢) الروم ٢٧ . (٣) الجاثية ٢٣ .

جـ ـ على أنى تتبعت أقوال من ذكرت فى مواطنها ، فلم أجد لهم نصاً يدل على ما ذكرت ولو وجد ما كان حجة ، بل يدل على انحرافهم وإلحادهم ، وقد توعد الله الملحدين فى دينه بشديد عقابه ، وعظيم عذابه ، فقال تعالى : ﴿ **إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير** ﴾[1] ومعنى يلحدون فى آياتنا : يحرفونها ، ويميلون بها عن الصراط المستقيم .

٣ ـ ألا ترى أن فى قولك « الله المتجسد » « والله شجرة أو حل فى شجرة » عدم تقدير لله ، وتجسيماً وتشبيهاً له بخلقه ، وهو منزه عن مشابهة الحوادث ، لأن من شابهها فى شيء فهو حادث مثلها ، فما شابه الشيء يعطى حكمه ؟ .

٤ ـ المسيح مولود من السيدة مريم ـ عليهما السلام ـ وذلك باعتراف الجميع ، والسيدة مريم حادثة ، فالمسيح ـ عليه السلام ـ حادث مثلها ، فكيف يكون هو الله ، تعالى الله عن مشابهته للحوادث والحلول فيها .

٥ ـ والعجب العجاب حين يأتينا بعقيدة باطلة وهى قوله « المسيح هو الله المتجسد » ويجادل عنها بالباطل ليقنعنا بها ، ويزعم أن القرآن يدل عليها ، وقد جاء القرآن بضدها ، وبتكفير من قال بها فقال تعالى مؤكداً كلامه بالقسم : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير** »[2] .

ولتوضيح عقيدة المسيحيين أقول :

المسيحيون فى هذا العصر يقولون بالتثليث كما سبق ، ويعدون الموحد غير مسيحى ، كما أن جميع فرق النصارى فى هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وإن المسيح ابن مريم هو الله .

والعمدة عندهم فى هذه العقيدة عبارة جاءت فى إنجيل يوحنا ، وهى : « فى

---

(١) فصلت ٤٠ . (٢) المائدة ١٧ .

البدء كانت الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله هو الكلمة » وقد فسروا الكلمة بالمسيح ، فيصير معنى الفقرة الثالثة « والله هو المسيح ابن مريم » وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم ، فلم يفتر عليهم فى شيء مما نسبه إليهم .

ولا شك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنى الشرق والغرب كما سبق بيانه .

ومعنى : ﴿ **قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً** ﴾ .

أى قل — أيها النبى الكريم لهؤلاء النصارى — من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه ، بل عن سائر الخلق جميعاً ، إن أراد أن يهلكهم ويبيدهم ؟ لا أحد ، لأن الله هو مالك الملك الذى يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته ، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك ، كما لا يستطيع أن يدفع عن غيره ، فكيف يكون هو الله الذى بيده ملكوت كل شيء ؟ .

ثم ذكر الله ما هو كالدليل على ذلك فقال :

﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أى فمن يملك من الله شيئا إن أراد إهلاك المسيح وأمه ، وأهل الأرض قاطبة ؟ فهو صاحب الملك المطلق والتصرف الكامل فى السموات والأرض ، وما بين العَالَمَيْن : العلوى والسفلى بالنسبة إليكم .

ثم دفع شبهة تحوك فى صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال : ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ أى إن تلك الشبهة التى عرضت لكم ، وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإله ، هو أنه خلق على غير السنة العامة ، وأنه عمل أعمالاً عجيبة لا تصدر من عامة البشر ، فالله له ملك السموات والأرض ، ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته .

فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة وأنوثة ، كأصول أنواع الحيوان ، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من ذكر فقط كحواء ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط كعيسى — عليه السلام — وقد يخلق

بعضها من ذكر وأنثى كسائر البشر .

وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها على بعض ، ولا على ألوهية لبعضها ، ولا على حلول الإله الخالق فيها ، فسنة الله فى خلق المسيح ومزاياه لا تدل على كونه إلهاً ورباً ؛ لأن هذه المزايا فى الخلق كلها بمشيئة الخالق تعالى ، ولا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقاً .

﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ وبقدرته وإرادته يخلق مايشاء كما يشاء دون أن يقف شىء أمام إرادته أو قدرته ، فهو كما يقول : ﴿ **ذو العرش المجيد * فعال لما يريد** ﴾[1] فكل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته ، وإنما يعد بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص ، لا بالنسبة إليه تعالى ، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبى يجهله غيرهم ، أوعن تأييد ربانى لا صنع لهم فيه ولا تأثير .

ولأن هذه العقيدة باطلة كل البطلان كرر الله كلامه فى القرآن بكفر من قال بها مؤكداً كلامه بالقسم أيضاً فقال تعالى فى آية أخرى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾[2] .

ومعنى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ أى أقسم الله أن هؤلاء الذين ادعوا أن الله هو المسيح ابن مريم قد كفروا وضلوا ضلالاً بعيدا ، ثم ذكر أن المسيح يكذبهم فى ذلك فقال :

﴿ **وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ أى والحال أن المسيح قال لهم ضد ما يقولون ، فقد أمرهم بعبادة الله وحده ، معترفاً بأنه ربه وربهم ، ودعا بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم إلى عبادة الله وحده ، ولا يزال هذا الأمر محفوظاً فى الأناجيل التى كتبت لبيان بعض سيرته وتاريخه .

ففى إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته »[3] .

(١) البروج ١٥ ، ١٦ . (٢) المائدة ٧٢ . (٣) يوحنا ١٧(٣) .

فدين المسيح مبنى على التوحيد المحض ، وهو دين الله الذى أرسل به جميع رسله ، وفى هذه المقالة تنبيه إلى ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى ، لأنه ــ عليه السلام ــ لم يفرق بين نفسه وغيره ، فى أن دلائل الحدوث ظاهرة على الجميع .

وبعد أن أمرهم ــ عليه السلام ــ بالتوحيد الخالص أتبعه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه فقال : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾ .

أى إن من يشرك بالله شيئاً من ملك أو بشر أو كوكب أو حجر ، أو غير ذلك ، فيجعله نداً له أو متحداً به أو يدعوه لجلب نفع أو دفع ضرر ، أو يزعم أنه يقربه إليه زلفى ، فيتخذه شفيعاً يؤثر فى إرادته تعالى وعلمه ويحمله على شيء غير ما سبق به علمه ، وخصصته إرادته فى الأزل ، من يفعل ذلك فإن الله قد حرم عليه الجنة فى سابق علمه ، وبمقتضى شرعه الذى أوحاه إلى جميع رسله ، فلا مأوى له إلا النار ، التى هى دار العذاب والذل والهوان ، وما للظالمين أنفسهم بشركهم بالله من نصير ينصرهم ولا شفيع ينقذهم مما يحل بهم ﴿ **من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾(١) .

وفى هذا إشارة إلى أن النصارى كانوا يتكلون على كثير من القديسين ، إذ كانت وثنية الشفاعة قد فشت فيهم ، وإن لم تكن من أصل دينهم وقال يوحنا : « الله لم يره أحد قط »(٢) ، وقال فى رسالته الأولى : « الله لم ينظره أحد قط »(٣) .

وقال بولص فى رسالته الأولى إلى تيموثاوس : « الذى لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه »(٤) وقد رأى الناس المسيح ، فكيف يكون هو الله ؟ والله بمقتضى هذه النصوص والأدلة العقلية القاطعة لا يرى ؟ .

وقال مرقص فى الساعة ويوم القيامة : ١٣ ــ ٣٢ « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلم يعلم بها أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن إلا الآب »

---

(١) البقرة ٢٥٥ .
(٢) يوحنا ١ / ١٨ .
(٣) الرابع ١٢ .
(٤) السادس ١٦ .

فلو كان الابن عين الآب كما يقولون لكان يعلم كل ما يعلمه الآب .

وقوله — عليه السلام — فى القيامة موافق لقول الله سبحانه فى القرآن خطاباً لخاتم رسله ﷺ : ﴿ **قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾[1] .

وهكذا : توالت الآيات ، وتضافرت البراهين النقلية والعقلية القاطعة على أن الله ليس كمثله شيء ، وعلى بطلان عقيدة « المسيح هو الله المتجسد » وعلى أن من يحاول إقناع المسلمين بها فإنما يحاول مستحيلاً فى كتب الله المنزلة ، وعلى رأسها القرآن الكريم الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ومستحيلاً لدى العقول النيرة ، والقلوب الواعية ﴿ **ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[2] .

* * *

(١) الأعراف ١٨٧ .

(٢) يوسف ٤٠ .

المبحث العاشر

الله منزه عن التجسد والحلول

وقال فى ص ١٩ : هل خلت السماء من الله عند تجسده ؟ ثم قال : كلا ، فالله روح موجود فى كل مكان ولا يحده مكان « سورة النور ٣٥ » .

ثم تساءل قائلاً : ماالداعى لتجسد الله ؟ ثم أجاب : خلاص البشرية وفداؤها بموته على الصليب « انظر بحث صلب المسيح » .

وقبل دحض هذا الافتراء أسوق عقيدة النصارى فى المسيح والصلب كما جاءت فى مؤلفاتهم وهى :

أن آدم لما عصى الله تعالى بالأكل من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها صار هو وجميع أفراد ذريته خطاة مستحقين العقاب فى الآخرة بالهلاك الأبدى ، ثم إن جميع ذريته جاءوا خطاة مذنبين ، فكانوا مستحقين للعقاب أيضاً بذنوبهم ، كما أنهم مستحقون له بذنب أبيهم الذى هو الأصل لذنوبهم .

ولما كان الله تعالى متصفاً بالعدل والرحمة جميعاً طرأ عليه ـــ سبحانه وتعالى عن ذلك ـــ مشكل منذ عصى آدم ، وهو أنه إذا عاقبه هو وذريته كان ذلك منافياً لرحمته ، فلا يكون رحيماً ! ! وإذا لم يعاقبه كان ذلك منافياً لعدله فلا يكون عادلاً ! !

فكأنه منذ عصاه آدم كان يفكر فى وسيلة يجمع بها بين العدل والرحمة ! فلم يهتد إلى ذلك إلا فى عام الحمل بعيسى وميلاده ، أى منذ ١٩٨٥ سنة م بالنسبة إلى سنتنا هذه ـــ تعالى الله عن ذلك ـــ وذلك بأن يحلّ ابنه تعالى ـــ الذى هو هو نفسه ـــ فى بطن امرأة من ذرية آدم ويتحد بجنين فى رحمها ، ويولد منها فيكون

ولدها إنساناً كاملاً من حيث هو ابنها ، وإلهاً كاملاً من حيث هو ابن الله ، وابن الله هو الله ، ويكون معصوماً من جميع معاصى بنى آدم .

ثم بعد أن يعيش زمناً معهم يأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما يشربون منه ، ويتلذذ كما يتلذذون ، ويتألم كما يتألمون ، يسخر أعداءه لقتله أفظع قتلة ، وهى قتلة الصلب التى لعن صاحبها فى الكتاب الإلهى ، فيتحمل اللعن والصلب لأجل فداء البشر وخلاصهم من خطاياهم ، كما قال يوحنا فى رسالته الأولى ٢ : ٢ « وهو كفارة لخطايانا ، ليس لخطايانا فقط ، بل لخطايا كل العالم أيضاً » ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾[1] .

ثم يفلسفون عقيدة الصلب والفداء فيقولون :

يقول القديس بولص : « لا توجد مغفرة بدون سفك دم » .

ولكن ما هو الشخص الذى يستحق أن ينوب عن آدم ، وما هى الدماء التى يكفى سفكها لتخليص آدم وزوجته من الخطيئة ؟ .

يقول الكتاب : إن خطيئة آدم لا تشترى إلا بدم ذكى نفيس ، وهذا الدم لا يكون دم إنسان من البشر ، ذلك أن البشر ملوثون ودماؤهم نجسة ، كذلك ليس دم حيوان من الحيوانات التى تعود الوثنيون واليهود ذبحها كفارة عن ذنوبهم ، ذلك أن الحيوان لم يشترك فى خطيئة آدم ، كذلك ليس دم ملاك لأن الملائكة ليس لهم دم ، وبالتالى لا يصلحون للفداء .

وإذاً فلا بد أن يكون الدم دماً إلهياً طاهراً ، ولكن فى الوقت نفسه يمثل البشرية ، فهو دم طاهر ، ولا طاهر إلا الله فيمثل الإنسان .

ولكن هل للإله دم ؟ وكيف يكون الدم إلهياً ويمثل البشرية فى نفس الوقت ؟ المشكلة تحل بنظرية التجسد ، يرسل الله ابنه الوحيد ليحل فى جسد العذراء مريم ، ويظل فى بطنها فأحشائها تسعة أشهر ، ثم يولد بالجسد إنساناً ذا لحم ودم ، ولكنه الله نفسه .

---

(١) الصافات ١٨٠ .

يقول بولص : « ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة ، مولوداً تحت الناموس ليفتدى الذين تحت الناموس لننال التبنى »[1] .

هذه النظرية يقوم عليها الدين المسيحى كله يقول القس بولص إلياس :

«إن موت المسيح وبالتالى سر الفداء يمثل نقطة الدائرة من الدين المسيحى ، لقد تم مفعول الوساطة بموت المسيح وسفك دمه الذى به كفر عن خطايانا ، وأرضى الله أباه »[2] .

دحض هذه العقيدة المفتراة :

ثم أقول : إن كل ما جاء فى هذه العقيدة لا يقره نقل ، ولا يقبله عقل ، وذلك لأمور منها :

١ ـــ أنه جاء فى القرآن الكريم أن آدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة بإغراء الشيطان لهما ، وتظاهره بنصحهما تذكرا زلتهما فندما على ما فعلا وألهمهما ربهما كلمات تضرعا بها إليه ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[3]فتاب الله عليهما ، قال تعالى : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾[4] .

٢ ـــ وكان ـــ عليه السلام ـــ ممن اصطفاهم الله على العالمين ، فقال تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾[5] .

أى اختارهم وجعلهم صفوة العالمين وخيارهم ، بجعل النبوة والرسالة فيهم ، فآدم أول البشر ارتقاء إلى هذه المرتبة ، فإنه بعد ما تنقل فى الأطوار إلى مرتبة التوبة والإنابة اصطفاه تعالى واجتباه ، كما قال تعالى : ﴿ **ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾[6] .

---

(١) غلاطية ٤ (٤) .

(٢) بولص إلياس فى « يسوع المسيح » ص ٩٤ . (٣) الأعراف ٢٣ .

(٤) البقرة ٣٧ (٥) آل عمران ٣٣ . (٦) طه ١٢٢ .

٣ ــ أن سنة الله سبحانه وقانونه فى السيئات ــ كما جاء فى كتبه من القرآن وغيره ــ ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وألا تتحمل نفس ذنب غيرها ، قال تعالى : ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[1] وقال : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى** ﴾[2] .

وفى التوراة « لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل »[3] .

ومعنى هذا أن أية نفس تكون مثقلة بالذنوب فتدعو من يحمل عنها شيئاً منها لا يحمل عنها من تدعوه للحمل ولو كان من أقربائها ، فكيف تعارضون آيات الله وقوانينه ، وتقولون بأن المسيح ضحى بنفسه ليتحمل الذنوب عن خلق الله ؟ .

٤ ــ إن أية مشكلة من مشاكل البشر الجماعية ــ مهما كانت عويصة أو معقدة ــ تعرض على أهل العلم بها لحلها ، ولا تلبث إلا زمناً يسيراً حتى تحل فكيف تجعلون الله سبحانه وتعالى ــ وهو العليم الحكيم ــ أخذ يفكر آلاف السنين لحل قضية فردية هى خطيئة آدم ؟ .

ألا تستحيون حين لا تسوون الله ــ الذى أحاط بكل شىء علماً ، ووسع كل شىء رحمة وفضلاً . وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ــ بكم أيها البشر ؟ .

٥ ــ إن الأمم الراقية تضع لنفسها دساتير تتحاكم إليها ، وتعرض شئونها عليها ، فلا تلبث أية مشكلة ــ أن تجد لها حلاً عند عرضها على دستورها ، فالله الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما يكون عندكم أقل درجة منكم ؟ ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾ .

٦ ــ نحن المسلمين نؤمن بأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يعلم ما كان وما يكون قبل حصوله ، ووضع لكل شىء جزاءه ، وصدق الله حيث يقول : ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾[4] وحيث يقول : ﴿ **وكل شىء فعلوه فى**

---

(١) النجم ٣٦ : ٣٨ . (٢) فاطر ١٨ . (٣) تثنية ٣٤ : ١٦ .
(٤) القمر ٤٩ .

الزبر[1] . وكل صغير وكبير مستطر ﴾[2] ، كما يقول تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[3] .

٧ ــ وإننا معشر المسلمين لانعتقد أن الله سبحانه وتعالى يفعل الأشياء جزافا أو ارتجالاً ، وإنما نؤمن بأن الله يعلم كل ما يحدث فى السموات والأرض قبل أن يكون ، بل ذلك مدون ومكتوب فى الكتاب العظيم الذى يحوى كل ما يحدث فى ملكوت الله ، قال تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴾[4] ، كما قال تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[5] .

فما يقوله النصارى مغايراً لهذا فهو باطل ، ومستحيل حدوثه .

٨ ــ تجسد الله مستحيل لمشابهته للحوادث ، لأن الجسم لا ينفك عن الحركة والسكون وهما محدثان ، وما لا ينفك عن المحدَث فهو محدَث ، ولأن كل جسم متناه فى المقدار ، وكل ما كان متناهياً فى المقدار فهو مُحدَث ، ولأن كل جسم مؤلف من أجزاء ، وكل ما كان كذلك افتقر إلى من يركبه ويؤلفه ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ، فكيف تنسبون إلى الله ما هو مستحيل عليه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

أما قوله : فالله روح موجود فى كل مكان ، ولا يحده مكان » سورة النور ٣٥ » فواضح التناقض ، فالله لا يحويه مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، فهو منزه عن الحدود والنهايات ، مستغن عن المكان والزمان ، لأن هذا من صفات المخلوقات .

ولذا قال الإمام الشافعى رضى الله عنه ، فى كتابه الفقه الأكبر ص ١٧ : واعلموا أن البارى لا مكان له ، والدليل عليه هو أن الله تعالى كان ولا مكان ، فخلق المكان وهو على صفته الأزلية كما كان قبل خلقه المكان ، لا يجوز عليه التغيير فى ذاته ، والتبديل فى صفاته ، ولأن ما له مكان وله تحت يكون متناهى الذات محدوداً ، والمحدود مخلوق ، تعالى الله عن ذلك . أ هـ[6] .

---

(١) الكتب السماوية (٢) القمر ٥٢ ، ٥٣ . (٣) الرعد ٨ ، ٩ .
(٤) يس ١٢ . (٥) هود ٦ - (٦) إتحاف الكائنات للشيخ محمود خطاب ٢٠ .

وسئل على بن أبى طالب رضى الله عنه : أين كان ربنا قبل أن يخلق السماء والأرض ؟ فقال : أين توجب المكان ، وكان الله عز وجل ولا مكان[1] .

وقال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ الإمام البخارى : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه[2] .

وبالجملة ـــ فجميع الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزه عن الحلول فى الأمكنة لقيام الأدلة العقلية والنقلية القاطعة بذلك .

وأما قوله تعالى فى سورة النور ٣٥ : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ فليس معناه أنه حال فيهما ، وإنما معناه أنه منورهما ، كما يقال فلان عدل ، أى عادل ، وفلان نور المجلس ، أى منوره ، فالله منور السموات والأرض بما أقام فيهما من الأدلة والبراهين الدالة على وجوده ، وعلى جلاله وكماله ، كما قال تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾[3] .

* * *

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ٧٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٠ .
(٣) آل عمران ١٩٠ .

المبحث الحادى عشر

حول عقيدة التجسد والحلول والصلب

١ ــ قال الإمام ابن القيم الجوزية[١] : ومن المعلوم أن هذه الأمة[٢] ارتكبت محظورين عظيمين ، لا يرضى بهما ذو عقل ، ولا معرفة .

أحدهما : الغلو فى المخلوق ، حتى جعلوه شريك الخالق ، وجزءاً منه وإلهاً آخر معه ، وأنفوا أن يكون عبداً له .

والثانى : تنقص الخالق وسبه ، ورميه بالعظائم ، حيث زعموا أنه ــ سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيرا ــ نزل من العرش عن كرسى عظمته ، ودخل فى فرج امرأة ، وأقام هناك تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو ، وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن ، ثم خرج من حيث دخل رضيعاً صغيراً يمص الثدى ولف فى القمط وأودع السرير يبكى ويجوع ، ويعطش ويبول ويتغوط ، ويحمل على الأيدى والعواتق ، ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه ، وربطوا يديه وبصقوا فى وجهه وصفعوا قفاه ، وصلبوه جهراً بين لصين وألبسوه إكليلاً من الشوك ، وسمروا يديه ورجليه ، وجرعوه أعظم الآلام ، هذا وهو الإله الحق ، الذى بيده أتقنت العوالم وهو المعبود المسجود له .

ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ، ماسبه بها أحد من البشر قبلهم ، ولا بعدهم كما قال تعالى فيما يحكى عنه رسوله الذى نزهه ، ونزه أخاه المسيح عن هذا الباطل الذى ﴿ **تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا** ﴾[٣] فقال : « قال الله : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم

---

(١) فى كتابه إغاثة اللهفان ٢ / ٢٨٢ : ٢٨٤ .

(٢) يقصد الأمة المسيحية .   (٣) مريم ٩٠ .

يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أوّل الخلق بأهون علىّ من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد . لم ألد ولم أولد . ولم يكن لى كفئاً أحد » رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه(١) .

وقال ابن القيم : ولعمر الله ، إن عباد الأصنام ـــ مع أنهم أعداء الله عز وجل على الحقيقة ، وأعداء رسله عليهم السلام ، وأشد الكفار كفراً ـــ يأنفون أن يصفوا آلهتهم التى يعبدونها من دون الله تعالى ـــ وهى من الحجارة والحديد والخشب ـــ بمثل ما وصفت به هذه الأمة رب العالمين ، وإله السموات والأرضين ، وكان الله تعالى فى قلوبهم أجل وأعظم من أن يصفوه بذلك ، أو بما يقاربه ، وإنما شرك القوم أنهم عبدوا من دونه آلهة مخلوقة مربوبة محدثة ، وزعموا أنها تقربهم إليه ، لم يجعلوا شيئاً من آلهتهم كفواً له ، ولا نظيراً ولا ولدا ، ولم ينالوا من الرب تعالى ما نالت منه هذه الأمة .

وقال ابن القيم : وعذرهم فى ذلك أقبح من قولهم ، فإن أصل معتقدهم أن أرواح الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ كانت فى الجحيم ، فى سجن إبليس من عهد آدم إلى زمن المسيح ، فكان إبراهيم وموسى ونوح وصالح وهود معذبين مسجونين فى النار بسبب خطيئة آدم عليه السلام وأكله من الشجرة وكان كلما مات واحد من بنى آدم أخذه إبليس وسجنه فى النار بذنب أبيه ثم إن الله سبحانه وتعالى لما أراد رحمتهم وخلاصهم من العذاب تحيل على إبليس بحيلة فنزل عن كرسى عظمته ، والتحم ببطن مريم ، حتى ولد وكبر وصار رجلاً ، فمكن أعداءه اليهود من نفسه حتى صلبوه وتوجوه بالشوك على رأسه ، فخلص أنبياءه ورسله ، وفداهم بنفسه ودمه ، فهرق دمه فى مرضاة جميع ولد آدم ، إذ كان ذنبه باقياً فى أعماق جميعهم ، فخلصهم منه بأن مكن أعداءه من صلبه وتسميره وصفعه إلا من أنكر صلبه أو شك فيه أو قال : بأن الإله يجل عن ذلك ، فهو فى سجن إبليس معذب حتى يقر بذلك ، وأن إلهه صلب وصفع وسمر .

فنسبوا الإله الحق سبحانه إلى ما يأنف أسقط الناس وأقلهم أن يفعله بمملوكه وعبده ، وإلى ما يأنف عباد الأصنام أن ينسب إليه أوثانهم ، وكذّبوا الله عز وجل فى كونه ، تاب على آدم عليه السلام ، وغفر له خطيئته ، ونسبوه إلى أقبح

(١) ف ٦ / ٣١١ .

الظلم ، حيث زعموا أنه سجن أنبياءه ورسله وأولياءه فى الجحيم ، بسبب خطيئة أبيهم ، ونسبوه إلى غاية السفه حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه ، ونسبوه إلى غاية العجز ، حيث عجّزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ، ونسبوه إلى غاية النقص ، حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ، ففعلوا به ما فعلوا .

وبالجملة ـــ فلا نعلم أمة من الأمم سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة ، كما قال عمر رضى الله عنه : « إنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر » .

وكان بعض أئمة الإسلام إذا رأى صليبياً أغمض عينيه عنه ، وقال : لا أستطيع أن أملأ عينى ممن سب إلهه ومعبوده بأقبح السب . ولهذا قال عقلاء الملوك : إن جهاد هؤلاء واجب شرعاً وعقلاً فإنهم عار على بنى آدم ، مفسدون للعقول والشرائع . أ هـ .

٢ ـــ وقال الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه إظهار الحق : نقل أنه تنصر ثلاثة أشخاص ، وعلمهم بعض القسيسين العقائد الضرورية ، سيما عقيدة التثليث ، وكانوا فى خدمته ، فجاء محب من أحباء هذا القسيس ، وسأله عمن تنصر ، فقال : ثلاثة أشخاص تنصروا ، فسأله هذا المحب : هل تعلموا شيئاً من العقائد الضرورية ؟ .

فقال : نعم . وطلب واحداً منهم ليرى محبه ، فسأله عن عقيدة التثليث ، فقال : إنك علمتنى أن الآلهة ثلاثة ، أحدهم الذى هو فى السماء والثانى الذى تولد فى بطن مريم العذراء . والثالث الذى نزل فى صورة الحمامة على الإله الثانى بعدما صار ابن ثلاثين سنة ، فغضب القسيس وطرده ، وقال : هذا جهول .

ثم طلب الآخر منهم وسأله ، فقال : إنك علمتنى أن الآلهة كانوا ثلاثة ، وصلب واحد منهم فالباقى إلهان ، فغضب عليه القسيس أيضاً وطرده .

ثم طلب الثالث ، وكان ذكياً بالنسبة إلى الأولين ، وحريصاً فى حفظ العقائد ، فسأله ، فقال : يا مولاى حفظت ما علمتنى حفظاً جيداً ، وفهمت فهماً كاملاً ، بفضل السيد المسيح : إن الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحد ، وصلب

واحد منهم ومات ، فمات الكل لأجل الاتحاد ، ولا إله الآن وإلا يلزم نفى الاتحاد[1]

٣ ـ إن حادثة صلب المسيح مكذوبة بلا نزاع لأن المسيحيين يعولون فى إثباتها على ما جاء فى أناجيلهم ، وهى متناقضة تمام التناقض فى كل جزء من أجزائها بالزيادة والنقص ، والإثبات والنفى ، والمخالفة للآداب وروح العصر .

٤ ـ وقال ابن تيمية[2] : بل جميع ما أثبتوه من التثليث والحلول والاتحاد ليس فى كتب الأنبياء التى بأيديهم ما يدل عليه ، بل فيها أقوال كثيرة صريحة بنقيض ذلك ، مع القرآن والعقل ، فهم مخالفون للعقول وكتب الله المنزلة . أ هـ .

* * *

(١) من تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ٦ / ٤٨٥ .
(٢) فى الجواب الصحيح ٢ / ٢٥٢ .

الفصل الثانى

فى الرد على ما جاء فى رسالة البابا شنودة مما يتعارض مع ما جاء به القرآن الكريم وبه اثنا عشر مبحثاً

- خلق آدم أعجب من خلق عيسى عليهما السلام .
- معجزة كل نبى من جنس مااشتهر به قومه .
- القرآن مصدق لما أنزله الله فى الكتب السابقة ولم يحرف .
- الأدلة القرآنية على وقوع التحريف فى الكتب السابقة .
- ما لا يصدقه القرآن من التوراة والإنجيل .
- عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها .
- دحض بعض أباطيل البابا شنودة .
- البراهين العقلية والعلمية على عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها .
- دحض افتراءات البابا شنودة حول إعجاز القرآن وخلوده .
- البابا شنودة يقلب الحقائق .
- البابا شنودة يحرف كلم القرآن عن مواضعه .
- البابا شنودة يؤول آيات القرآن تبعاً لهواه .

مقدمـــة

فى رسالة للبابا شنودة مطبوعة بعنوان « القرآن والمسيحية » بمطبعة المجد بمحرم بك بالإسكندرية .

جاء فيها على لسانه أمور كثيرة تتعارض مع ما جاء به القرآن الكريم ، وتعاليم الإسلام الحنيف ، فوجدت نفسى مضطراً دينياً للرد على معظم فقراتها فى المباحث التالية .

المبحث الأول

خلق آدم أعجب من خلق عيسى عليهما السلام

قال البابا شنودة فى ص ١ :

إن المسيح ولد بطريقة عجيبة لم يولد بها إنسان من قبل ، ولا من بعد ، بدون أب جسدى .

وللرد عليه أقول :

إن عيسى ــ عليه السلام ــ ولد بطريقة عجيبة حقاً ، بالنسبة لنا ، حيث ولد من أم بلا أب ولكن الطريقة التى خلق بها آدم ــ عليه السلام ــ أعجب ، حيث خلقه الله من غير أب وأم .

والعجب إنما هو بالنسبة لما اعتاده البشر ، وأما بالنسبة لله فلا عجب كما قال تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾[١] .

على أن خلق حواء أعجب من خلق المسيح ، فإنها خلقت من ضلع آدم ، كما قال تعالى : ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾[٢] .

والمسيح خلق فى بطن مريم ــ عليهما السلام ــ فإذا خلق الله آدم من تراب ، وهو مغاير لبدن الإنسان ، أفلا يقدر أن يخلق المسيح من امرأة هى من جنس بدن الإنسان ، بلا عجب من أمر الله ؟ .

* * *

---

(١) يس ٨٢ .

(٢) أول النساء .

المبحث الثانى

معجزة كل نبى من جنس ما اشتهر به قومه

وقال فى صفحة ٢ : وعاش « أى عيسى » على الأرض يهدى الناس ، ويقوم بمعجزات لم يعملها أحد مثله . . وللرد على ذلك أقول :

إنه قد جرت سنة الله تعالى أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما اشتهر به قومه فى زمنه .

فأعطى موسى ـــ عليه السلام ـــ العصا فابتلعت ما كانوا يأفكون ؛ لأن المصريين فى ذلك العصر كانوا مشهورين بالسحر ، وأعطى عيسى ـــ عليه السلام ـــ من المعجزات ما هو من جنس الطب الذى حذقه أطباء عصره .

وأعطى محمد ﷺ معجزة القرآن ؛ لأن التفاخر فى ذلك العصر كان بالفصاحة والبيان ، فمعجزة كل رسول صادرة عن الله سبحانه وتعالى ، ومناسبة لما اشتهر به قومه ، والله على كل شىء قدير .

وإنما كانت معجزة رسولنا محمد ﷺ ، هى القرآن الكريم لأن فيه آلاف المعجزات التى لا يتسع المقام لبسطها ، ولأنها خالدة خلود الأرض والسماء ، كما أن رسالته كذلك .

أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد ، قصيرة الأمد ، ذهبت بذهاب زمانهم ، وماتت بموتهم ، ومن يطلبها الآن لا يجدها إلا فى خبر كان ، ولا يسلم له شاهد بها إلا هذا القرآن ، وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل وما صح من الأديان كافة ، قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما**

بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾[١] .

ولذا قال ﷺ : «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » رواه الشيخان عن أبى هريرة[٢] .

الآيات : المعجزات الخوارق ، والمعنى أن كل نبى أعطى آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن لأجلها « وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ » أى إن معجزتى التى تحديت بها هى الوحى الذى أنزل على ، وهو القرآن لما اشتمل من الإعجاز فى الأسلوب والهداية .

وليس المراد حصر معجزاته فيه ، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتى من تقدمه ، بل المراد أنه المعجزة العظمى التى اختص بها دون غيره ، لأن كل نبى أعطى معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره تحدّى بها قومه ، وكانت معجزة كل نبى تقع مناسبة لحال قومه ، كما سبق .

على أن للنبى ﷺ معجزات أخرى كثيرة مذكورة فى صحيح السنة منها : انشقاق القمر فرقتين ، وتسليم الحجر عليه ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الماء القليل وتفجره من العيون بسبب دعائه ، وتكثير الزاد القليل حتى يطعم منه العدد الكثير ، وإبراء ذوى العاهات ، فقد رد عين قتادة بعد أن سالت على خده فصارت أحسن عينيه ، وتفل فى عين على رضى الله عنه وهى رمداء فبرئت ، وكذا استجابة دعائه ، وإخباره عن كثير من الأمور الغيبية .

ومن معجزاته المذكورة فى القرآن : الإسراء والمعراج ، وعصمته من الناس ، وقتال الملائكة معه فى أكثر من غزوة ، فمعجزاته ﷺ كثيرة جداً ، حتى إن أبا بكر بن العربى فى تفسيره « أنوار الفجر» أوصلها إلى ألف معجزة عدًّا ، وقال : لقد لخصت واختصرت وأعظمها القرآن الذى لا تنتهى عجائبه ، ولا تقف معجزاته عند حد[٣] .

---

(١) المائدة ٤٨ .   (٢) اللؤلؤ والمرجان ١ / ٣٠ .

(٣) انظر صحيح مسلم ٥ / ٣٨ ، ٤٤ ،وإحياء علوم الدين للغزالى ٢ / ٣٨٤ ، والنبوة إصلاح للأستاذ سعدى ياسين ١٣ .

المبحث الثالث

القرآن مصدق لما أنزله الله في الكتب السابقة ولم يحرف

وقال فى ص ٢ : والإنجيل له مكانة عظيمة فى القرآن الذى كان مصدقاً له ، وداعياً الناس إلى الإيمان به ، وقال فى ص ٦ : وكون القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فهذا يعنى صحة الإنجيل والتوراة وسلامتهما من التحريف وإلا فإنه يستحيل على المسلم أن يؤمن بأن القرآن نزل مصدقاً لكتاب محرف .
وللرد على ذلك أقول :

الإنجيل وكل الكتب المنزلة من عند الله ولم يحصل فيها تغيير ، لها مكانة عظيمة فى القرآن لأنها من عند الله ، ولكن أين هى الآن الكتب التى أنزلها الله وبقيت محفوظة كما أنزلها الله تعالى ؟ .

والقرآن مصدق للكتب التى أنزلها الله تعالى قبله ، ولم يحرف ما فيها ، أو يبدل أو ينسى ، أو ينسخ تبعاً للأهواء ، وأين هى ؟ .

فهو مصدق للتوراة التى أنزلها الله على موسى عليه السلام ، وكتبها بنفسه ، ولكن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام ، وأخذ العهد والميثاق على بنى إسرائيل بحفظها « كما نص على ذلك فى الفصل الحادى والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع » قد فقدت باتفاق مؤرخى اليهود والنصارى عند سبى البابليين لليهود ، ولم يكن عندهم إلا هذه النسخة ، ولم يكونوا يستظهرونها ، كما كان المسلمون يستظهرون القرآن الكريم فى عهده ﷺ ، زيادة على كتابته وقت نزوله واستمر حالهم على ذلك للآن .

وقد حقق كثير من مؤرخي الفرنجة أن هذه التوراة التي بين أيديهم كتبت بعد موسى ـــ عليه السلام ـــ ببضعة قرون . كتبها عزرا الكاهن بعد أن أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى بلادهم .

ولذاقال الله تعالى فى عيسى عليه السلام : ﴿ **ويعلمه التوراة والإنجيل** ﴾ فهو لم يأخذ التوراة من أيدى اليهود الذين زعموا أن عزرا كتبها بعد الرجوع من سبى بابل ، وإن كان يحتج عليهم بما كانوا يخالفونه مما حفظوه منها ، وقد اختلفوا فى كتبهم وفى شرعهم إلى مذاهب ، قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب** ﴾[1] .

ومصدق للإنجيل الوحيد ، وهو الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام ، وبشر به ، وليس مصدقاً لهذه الأناجيل العديدة التى كثيراً ما يناقض بعضها بعضاً ، وكثيراً ما يكون التناقض فى الإنجيل الواحد منها ، والتى حصل فيها تحريف وتبديل ونسيان لحظ عظيم منها ، كما حصل فيها نسخ تبعاً لأهوائهم[2] .

إنهم يعترفون بأن الإنجيل الذى بأيديهم لم يكتبه المسيح ، ولا أملاه على من كتبه ، وإنما أملاه بعد رفع المسيح متى ويوحنا ، وكانا قد صحبا المسيح ، ومرقص ولوقا ، وهما لم يريا المسيح عليه السلام .

وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح ، وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا أقواله وأفعاله ، ونقل اثنين أو ثلاثة يجوز عليه الخطأ ، لا سيما وقد غلطوا فى المسيح حيث اشتبه عليهم بالمصلوب .

فالقرآن مصدق للإنجيل الصحيح الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام ، ولم يحرف ، لا الإنجيل الموجود الآن عند المسيحيين ، وفيه التثليث والصلب ، فإنه مخالف للقرآن الذى يصف الله تعالى بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، والحى الذى لا يموت .

والله قد نجّى الأنبياء أولى العزم من أعدائهم ، وعصمهم من كيد الكافرين

---

(١) هود ١١٠ .

(٢) انظر « المسيح فى القرآن » للأستاذ عبد الكريم الخطيب ٧٨ : ٨٣ .

بهم : فنجى نوحاً من الغرق ، ونجى إبراهيم من النار ، وموسى من فرعون ، ومحمداً من كيد المشركين ومكرهم ، فكيف لا ينجى عيسى من قتل اليهود وصلبهم له؟ كما يقول المسيحيون ؟ .

لقد جرت سنة الله فى عيسى على نسق سنته فى إخوانه من أولى العزم من الرسل ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ فنجاه الله من قتل اليهود وصلبهم له ، وسجل الله ذلك فى كتابه ، فقال تعالى : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾[1] .

على أن نظرية الصلب التى فى الإنجيل الموجود عند المسيحيين اليوم نظرية بطلانها معها ، فهى لا يقبلها عقل ، ولا تقرها شريعة سماوية ، فكيف يكون القرآن الذى ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ مصدقاً لمثل هذا الإنجيل ؟ وإليك الأدلة القاطعة بتحريف التوراة والإنجيل من القرآن ومن التوراة والإنجيل نفسيهما ، وبعض ما لا يصدقه القرآن منهما فى المبحثين التاليين :

* * *

(١) النساء ١٥٧ .

المبحث الرابع

الأدلة القرآنية على تحريف الكتب السابقة

القرآن الكريم نزله الله هدى للعالمين إلى يوم الدين ، لذلك تعهد بحفظه من التحريف والتغيير فقال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[1] فبقى محفوظاً بحفظ الله له من التحريف والتغيير ، وينقل من جيل لآخر بالتواتر سماعاً وكتابة لم يتغير فيه حرف واحد حتى يكون حجة قائمة لله على عباده ، ولما كانت الكتب السابقة قد نزلت لأقوام مخصوصين ولأمد محدود تنتهى بانتهائه فقد ترك الله حفظها لأصحابها فقال تعالى : ﴿ **بما استحفظوا من كتاب الله** ﴾[2] أى بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ، فوقع التحريف والتغيير .

هذا ، وقد شهد القرآن الكريم — وشهادته مقطوع بها لتواتره سماعاً وكتابة — أن أهل الكتاب كانوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، أى من بعد وضعه فى مواضعه ، وتحريفهم إما لفظياً بإبدال كلمة بكلمة ، أو بإخفائه وكتمانه ، أو بالزيادة فيه ، أو بالنقص منه ، وإما معنوياً بحمل اللفظ على غير ما وضع له ، وإليك ما جاء فى ذلك من القرآن الكريم :

١ — قال تعالى : مخاطباً بنى إسرائيل : ﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾[3] .

والمعنى : ولا تخلطوا الحق الموجود فى التوراة بالباطل الذى تخترعونه ، ولا تكتموا وصف النبى وبشارته التى هى حق وأنتم تعلمون أنه حق وصدق

---

(١) الحجر ٩ . (٢) المائدة ٤٤ . (٣) البقرة ٤٢ .

وليس جزاء العالم يوم القيامة كالجاهل .

٢ ــ وقال تعالى : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون * وإذا لقوا الذين امنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون * أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون * ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون * فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾[1] .

والمعنى : أنسيتم أفعالهم وأعمالهم فتطمعوا أن يؤمن ــ لأجل دعوتكم ــ ويستجيب لكم هؤلاء اليهود ، وقد كان منهم جماعة ــ وهم الأحبار ــ يسمعون كلام الله فى التوراة ويفهمونه حق الفهم ، ثم يغيرونه ويبدلونه حسب أهوائهم وميولهم ، وهم يعلمون أن هذا العمل يتنافى مع الحقيقة ، وأن كتب الله المنزلة لا يجوز تغييرها .

ونقيصة أخرى من نقائصهم ، وهى أن منافقيهم كانوا إذا تقابلوا مع المؤمنين قالوا نحن مؤمنون بالله وبرسوله محمد ؛ إذ هو المبشر به عندنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض عاتبهم الفريق الآخر على ما قالوا ، وقالوا لهم : كيف تحدثون أتباع محمد بما أنزله الله عليكم فى التوراة ، وهم يأخذون كلامكم حجة عليكم ، فيخاصمونكم به عند ربكم يوم القيامة ؟ .

أتحدثونهم بذلك فلا تعقلون أنه حجة عليكم ، حيث تعترفون بمحمد ثم لا تتابعونه ، وينكر الله عليهم حالهم هذه فيقول ﴿ **أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان وسيجزيهم عليه .

هذا شأن من عرف الكتاب منهم ــ وهم علماؤهم وأحبارهم ــ أما الأميون منهم فإنهم لا يعرفون عن دينهم إلا أكاذيب سمعوها ولم يعقلوها ، وهى أنهم شعب الله المختار ، وأن أنبياءهم سيشفعون لهم ، وأن النار لا تمسهم

---

(١) البقرة ٧٥ : ٧٩ .

إلا أياماً قليلة ، وما هم فى ذلك إلا واهمون ، فلا تطمع — يا محمد — فى إيمانهم ، ولا تأس على أمثالهم ، فالعذاب الشديد لهؤلاء الذين ينسخون التوراة بأيديهم فيغيرون فيها ما شاءوا تبعاً لأهوائهم ، ومعنى ﴿ **يكتبون الكتاب بأيديهم** ﴾ أنهم يكتبون شيئاً لم يأتهم من رسلهم ، بل يضعونه ويبتكرونه ، كما دل عليه قوله ﴿ **ثم يقولون هذا من عند الله** ﴾ المشعر بأن ذلك قولهم بأفواههم ليس مطابقاً لما فى نفس الأمر .

قال أبو السعود[1] : روى أن أحبار اليهود خافوا ذهاب ملكهم وزوال رياستهم حين قدم النبى ﷺ المدينة فاحتالوا فى تعويق أسافل اليهود عن الإيمان فعمدوا إلى صفة النبى ﷺ فى التوراة وكانت هى فيها : حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ربعة فغيروها وكتبوا مكانها : طوال أزرق ، سبط الشعر ، فإذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لصفته عليه السلام فيكذبونه — وثم للتراخى الرتبى ، فإن نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحاً أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل . أ هـ

ومع هذا تبلغ الجرأة بهم أن ينسبوا ما افتروه إلى الله سبحانه ليأخذوا بهذا الكذب الشائن ثمناً دنيوياً لا قيمة له ، سواء كان مالاً أو رياسة أو جاهاً ، فالدنيا كلها لا تساوى شيئاً فى جانب الآخرة ﴿ **فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾ وقد جنى اليهود الكاتبون ثلاث جنايات : تغيير صفة النبى ﷺ ، والافتراء على الله ، وأخذ الرشوة ، فهددوا على كل جناية بالويل والثبور .

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه[2] أنه قال : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه لم يُشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله ، وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ، ولا والله مارأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

---

(١) فى تفسيره ١ / ٩٤ .

(٢) فى ٤ / ١٥ .

٣ ـ وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم** ﴾[١] قال ابن كثير[٢] قال أبو العالية : نزلت فى أهل الكتاب كتموا صفة محمد ﷺ .

والمعنى : أن الذين يخفون ما أنزله الله بكتمه عن الناس مع حاجتهم إليه ، أو يضعون شيئاً مكذوباً من عندهم مكانه ، فجزاؤهم الطرد من رحمة الله ، وغضبه ، وغضب ملائكته والناس أجمعين عليهم ، إلا من تاب منهم ، ورجع عن كتمان كلام الله ، وأصلح ما أفسده ، بأن أزال ما وضعه من عنده ، وكتب الأصل ، وبلغ ما أنزله الله من غير تحريف ولا تبديل فأولئك يتوب الله عليهم ويغفر لهم ذنوبهم ، لأنه هو التواب الرحيم .

٤ ـ وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار * ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد** ﴾[٣] .

سبب النزول:قال الفخر الرازى[٤] : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى رؤساء اليهود : كعب بن الأشرف ، وكعب بن أسد ، ومالك بن الصيف ، وحيى بن أخطب وأبى ياسر بن أخطب كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا ، فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع تلك المنافع ، فكتموا أمر محمد عليه السلام وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية .

والمعنى : أن الذين يكتمون من أهل الكتاب ما أنزل الله من الكتاب المنزل عليهم من صفة النبى ﷺ وبيان زمانه ومكانه ، وغير ذلك مما يشهد بصدق نبوته ، وكمال رسالته حرصاً على رياسة كاذبة ، وعرض زائل ، قد باعوا الخير والهدى بثمن بخس قليل لا ينفع ، أولئك البعيدون فى الضلال لا يأكلون فى

---

(١) البقرة ١٥٩ ، ١٦٠ . (٢) فى تفسيره ١ / ٢١١ .
(٣) البقرة ١٧٤ : ١٧٦ . (٤) فى تفسيره ٢ / ٨٩ .

بطونهم إلا ما هو موجب لدخول النار ، ومن شدة غضب الله عليهم أنه لا يكلمهم يوم القيامة كلام رضا كما يكلم المؤمنين ، بل يكلمهم كلام غضب ، كقوله : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾(1) ولا يثنى عليهم بالخير ، ولا يطهرهم من دنس الذنوب ، كما يفعل مع أهل الجنة ، ولهم عذاب شديد فى الدنيا والآخرة .

أولئك الذين اعتاضوا عن الهدى ـ وهو تصديق الرسول ﷺ ، ونشر ما فى كتبهم من صفاته ، وذكر مبعثه والبشارة به واتباعه ـ بالضلالة ـ وهى تكذيبه والكفر به ، وكتمان صفاته فى كتبهم ـ واعتاضوا عن المغفرة بالعذاب ، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة .

وقوله ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ أى ما أشد صبرهم على نار جهنم ؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصى ، وإذا كانت حالتهم فى الآخرة لا تطاق فلماذا لا يرتدعون عما يؤدى بهم إلى ذلك ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ أى إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ ، وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل ، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه ، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهم يكذبونه ، ويجحدونه ويكتمون صفته فى كتبهم ، فاستهزءوا بآيات الله المنزلة على رسله فاستحقوا بذلك العذاب والنكال .

وقوله : ﴿ وإنّ الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ أى وإن الذين اختلفوا فى كتب الله ، فقالوا بعضها حق ، وبعضها باطل لفى ضلال بعيد عن الحق والصواب .

٥ ـ وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾(2) .

---

(1) المؤمنون ١٠٨ .　　(2) آل عمران ٧٠ ، ٧١ .

والمعنى : يا أهل الكتاب قد أرسلت لكم رسلاً ومعهم كتب فيها إرشاد إلى العقائد الصحيحة ، والأعمال الصالحة ، والبشارة بالنبى المبعوث من ولد إسماعيل ، وهو عربى أمى ، فلم تكفرون بآيات الله التى نزلت فى التوراة والإنجيل ، ولم تعملوا بمقتضاها ، وبالآيات التى فى القرآن فلم تؤمنوا بها ، والعجب أنكم تقرون وتشهدون بصدق رسالة محمد ﷺ ، وصدق بشارته التى فى كتبكم فيما بينكم ، ولكنكم لا تعملون بمقتضى ذلك .

يا أهل الكتاب لم تخلطون الحق الذى جاء به النبيون ، ونزلت به كتبهم من عبادة الله وحده والبشارة بنبى من بنى إسماعيل يعلم الناس الكتاب والحكمة ، بالباطل الذى لفقه أحباركم ورؤساؤكم بتأويلاتهم الفاسدة ، وتجعلون ذلك ديناً يجب اتباعه ، كما جاء فى الآية الآتية ﴿ **ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله** ﴾ .

وتكتمون شأن محمد ﷺ ونعته ، وهو مكتوب عندكم فى التوراة والإنجيل ، وأنتم تعلمون أنه حق ، ولكنكم تكتمونه عناداًوحسداً .

٦ ـــ وقال تعالى فى أهل الكتاب : ﴿ **وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾(١) .

أصل اللى فتل الحبل والميل به عن الاتجاه المستقيم، ولوى رأسه أماله ، والمراد به هنا تحريف الكتاب وتوجيهه إلى ما يريدونه ، كما فى الألفاظ التى جاءت على لسان عيسى عليه السلام من نحو ابن الله ، وتسمية الله أباً له ، وأبا للناس ، فهذا مما لا يراد به المعنى الحقيقى ، لكنهم لوّوه ونقلوه إلى المعنى الحقيقى بالنسبة إلى المسيح ، وأوهموا الناس أن الكتاب جاء بهذا .

والجمهور على أن المراد بهذا الفريق بعض علماء اليهود الذين كانوا حول المدينة ، وإن كان التشنيع عليهم يتناول من كان على شاكلتهم ، منهم ومن غيرهم .

---

(١) آل عمران ٧٨ .

والمعنى : وإن من أهل الكتاب لجماعة من أحبارهم وعلمائهم يفتلون ألسنتهم ويميلونها عن الآيات المنزلة ، بأن يزيدوا فى كلام الله ، أو ينقصوا أو يحرفوا الكلم عن مواضعه ، أو يقرءون كلامهم بنغم وترتيل يشبه نغم الكتاب وترتيله ، فيوهمون الناس بأنه من التوراة ، وأن الكتاب جاء بذلك لتحسبوه من الكتاب ، والواقع أنه ليس منه ، ويقولون على الله الكذب ويفتجرونه وهم يعلمون أنه ليس من عند الله ، ولكنه من عند الشيطان والهوى ، فهم لا يعرِّضون ولكن يصرحون بذلك لقسوة قلوبهم وفجورهم .

٧ ــ وقال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون** ﴾[١] .

الميثاق : العهد المؤكد الذى أخذ على أهل الكتاب بواسطة الأنبياء . لتبيننه : لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار حتى يعرفه الناس على وجهه الصحيح . فنبذوه وراء ظهورهم : طرحوا تعاليمه وأهملوها .

سبب نزول هذه الآية : قال ابن عباس رضى الله عنه : هى لليهود : أخذ عليهم العهد فى أمر محمد ﷺ ، فكتموه ، وهى عامة فى كل من علمه الله علماً[٢] .

والمعنى : قال ابن كثير[٣] : هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس فيكونوا على بينة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك ، وتعوّضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوى السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم ، وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم . .

٨ ــ وقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا ، من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا**

(١) آل عمران ١٨٧ . (٢) التسهيل لابن جزى ١ ١٢٦ . (٣) فى تفسيره ١ ٤٣٦ .

وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاًبألسنتهم وطعناً فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾[1] .

والمعنى : أنه تعالى يخبر عن فريق من أهل الكتاب أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين فى صفة محمد ﷺ ، ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا ، ويودون لو تكفرون بما أنزل عليكم ، أيها المؤمنون ، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع ، والله أعلم بهم ويحذركم منهم ، وكفى به ولياً لمن لجأ إليه ، ونصيراً لمن استنصره،ثم أخبرنا الله تعالى أن من الذين هادوا **قوماً ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾** أى يميلونه عنها ، ويزيلونه ، لأنهم إذا بدّلوه ووضعوا مكانه كلما غيره فقد أمالوه عن مواضعه فى التوراة التى وضعه الله تعالى فيها وأزالوه عن مكانه ، وذلك نحو تحريفهم أبيض ربعة عن موضعه فى التوراة بوضعهم آدم طوال مكانه .

وقد ذكر هنا **﴿ عن مواضعه ﴾** وفى المائدة: **﴿ من بعد مواضعه ﴾** فمعنى **﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾** يزيلونه عن مواضعه التى أوجبت حكمة الله وضعه فيها ومعنى **﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾** يزيلونه ويميلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها ، والمعنيان متقاربان ، والمراد تحريف أحكام الله وتغييرها بأحكام أخرى **﴿ ويقولون سمعنا وعصينا ﴾** أى سمعنا ما قلته يا محمد ، ولا نطيعك فيه ، وهذا منتهى الوقاحة فى كفرهم وعنادهم ، حيث يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم فى ذلك من الإثم والعقوبة .

وقولهم **﴿ واسمع غيرمسمع ﴾** أى اسمع ما نقول لا سمعت ، وهذا استهزاء منهم واستهتار ، ويحتمل واسمع غير سامع مكروهاً ، كما يقال واسمع لاسمعت مكروهاً ، كانوا يخاطبون به النبي ﷺ استهزاء ، مظهرين إرادة المعنى الأخير وهم مضمرون فى أنفسهم المعنى الأول .

---

(١) النساء ٤٤ : ٤٦ .

وكانوا يقولون « وراعنا » وهو كلام أيضاً كالذى قبله ، يحتمل انظرنا وتمهل علينا ، ويحتمل أنه من الرعونة والحمق ، وراعنا : كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها ، فكانوا سخرية بالدين وهزؤاً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل الإهانة والتكريم ، ينوون به الشتيمة والإهانة ، ويظهرون به التوقير والإكرام .

فهذه جرائم ثلاث كانوا يقولونها للنبى ﷺ تارة فى مجلسه ، وتارة بعيداً عنه ، يفعلون هذا ﴿ ليّاً بألسنتهم ﴾ وفتلاً بها وتحريفا ، وصرفاً للكلام عن إرادة الخير إلى إرادة الشر والسب ﴿ وطعناً فى الدين ﴾ وقدحاً فيه بالاستهزاء والسخرية ، وهذا منتهى الجراءة فى الباطل والعدوان على الحق .

﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا ﴾ عندما سمعوا أمراً أو نهياً ،ولم يقولوا سمعنا وعصينا ، وقالوا ﴿ واسمع وانظرنا ﴾ عند خطاب النبى ﷺ ، بدل ﴿ واسمع غير مسمع وراعنا لكان خيراً لهم ﴾ عند الله « وأقوم » أى أعدل وأسد .

ولكنهم لم يقولوا ذلك فخذلهم الله ولعنهم وطردهم من رحمته بسبب اختيارهم الكفر ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ منهم قد آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه ، أو إلا إيماناً قليلاً ضعيفاً لا يعبأ به .

٩ ــ وقال تعالى : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواءالسبيل * فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾[1] .

معانى المفردات : نقيب القوم : كبيرهم الذى يعنى بهم وبمصالحهم ، ويعرف دخائلهم ، وهو الضامن لهم . والتعزير : النصرة مع التعظيم . القرض الحسن : ما كان عن طيب نفس . سواء السبيل : وسط الطريق .

(١) المائدة ١٢ ، ١٣ .

والمعنى : وبالله لقد أخذ الله العهد المؤكد على بنى إسرائيل بالسمع والطاعة ، والعمل بما فى التوراة ، وأقام عليهم اثنى عشر رئيساً منهم بتنفيذ العهد ، ووعدهم وعداً مؤكداً أن يكون معهم بالعون والنصر إن أدوا الصلاة على وجهها ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم ، وصدقوا برسله جميعاً ،ونصروهم ، وأنفقوا فى سبيل الخير ، وإذا مافعلوا ذلك تجاوز الله عن ذنوبهم ، وأدخلهم جناته التى تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر ونقض العهد منهم بعد ذلك فقد حاد عن الطريق المستقيم ، واستحق العذاب الأليم .

﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية** ﴾ أى فبسبب نقض اليهود ميثاقهم الذى أخذه الله عليهم ، ومن ذلك الإيمان بمن يرسل إليهم من الرسل ، ونصرهم وتعظيمهم استحقوا غضب الله ومقته ، والبعد عن لطفه ورحمته ، فإن نقض الميثاق أفسد فطرتهم ، ودنّس نفوسهم ،وقسَّى قلوبهم حتى قتلوا الأنبياء بغير حق ، وقالوا على مريم بهتاناً عظيما ، وأهانوا المسيح عليه السلام ، الذى أرسل إليهم لإصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم ، وحاولوا قتله مفتخرين بذلك ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، فبكل هذا بعدوا عن رحمة الله ، إذ جرت سننه أن الأعمال السيئة تؤثر فى النفوس آثاراً سيئة ، فتجعل القلوب قاسية ، لا تخضع لحجة ، ولا تؤثر فيها موعظة ، فتستحق غضب الله ومقته ، والبعد عن فضله ورحمته .

وما مثل هذا إلا مثل من يهمل العناية بنفسه ، ولا يراعى القوانين الصحية ، فهو ولا شك سيصاب بالأمراض والأسقام ، ولا يلومن حينئذ إلا نفسه ، لأنه هو السبب فى ذلك بإهماله .

﴿ **يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾ وذلك إما بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والتغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان والإخفاء والكتمان ، وإما بتحريف المعانى بحمل الألفاظ على غير ماوضعت له ، وكل منهما قد وقع فى التوراة وغيرها من كتبهم كما تقدم ، لأن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام وأخذ العهد والميثاق على بنى إسرائيل بحفظها ، كما نص على ذلك فى الفصل الحادى والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع قد فقدت باتفاق مؤرخى اليهود والنصارى عند سبى البابليين لليهود ، ولم يكن عندهم إلا هذه النسخة ، ولم يكونوا يستظهرونها كما يستظهر المسلمون قرآنهم من بدء نزوله للآن .

وهناك أسفار خمسة ينسبونها إلى موسى ، فيها خبر كتابته التوراة وأخذه للعهد عليهم بحفظها ، ولا شك أن هذا ليس منها قطعاً ، وفيها خبر موته وأنه لم يقم بعده أحد مثله إلى ذلك الوقت ، أى الوقت الذى كتب فيه سفر تثنية الاشتراع وفى هذا أكبر دليل على أن الكاتب كان بعد موسى ــ عليه السلام ــ بوقت طويل من الزمن ، كما أن فيها كثيراً من الكلمات البابلية الدالة على أنها كتبت بعد السبى،لكل هذا حقق كثير من مؤرخى الفرنجة أن هذه التوراة التى بين أيديهم كتبت بعد موسى ببضعة قرون ، كتبها عزرا الكاهن بعد أن أذن لبنى إسرائيل بالعودة إلى بلادهم .

﴿ **ونسوا حظاً مما ذكروا به** ﴾ أى ونسوا نصيباً جزيلاً ، وقسطاً وافراً مما ذكروا به من التوراة ، لأنهم أضاعوها عندما أحرق البابليون هيكلهم وخرّبوا عاصمتهم ، وسبوا من بقى منهم حياً ، فلما عادت إليهم الحرية جمعوا ما كانوا قد حفظوه من التوراة ووعوه بالعمل به ، فالتنكير فى قوله تعالى ﴿ **ونسوا حظاً** ﴾ للتكثير ، لأن الحظ هو النصيب الكبير الذى يعد محظوظاً من يظفر به .

وهذا يدل على أن الجزء الذى نسيه أولئك اليهود هو جوهر الكتاب ولبه ، لأن القارىء للتوراة المتداولة لا يجد فيها ذكراً لليوم الآخر ، وما يجرى فيه من حساب يترتب عليه الثواب والعقاب ، وهذا دليل قاطع على أن القرآن معجزة محمد ﷺ أثبته التاريخ بعد بعثة النبى بعدة قرون من موت موسى عليه السلام .

﴿ **ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم** ﴾ الخائنة بمعنى الخيانة ، كالقائلة بمعنى القيلولة ، والخاطئة بمعنى الخطيئة . أى إنك أيها النبى لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود على خيانة بعد خيانة ، فلا تظن أنك أمنت كيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم ، فهم قوم لا وفاء لهم ولا أمانة ، فمن نقض عهد الله وميثاقه كيف يرجى منه وفاء ، وكيف يطمع منه فى أمانة ؟ .

إلا قليلاً منهم ، وهم من أسلم منهم وصدق الله ورسوله كعبد الله بن سلام وإخوانه ، فلا تظن بهؤلاء سوءا ، ولا تخف منهم خيانة ولا خداعاً ﴿ **فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين** ﴾ أى فاعف عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن

يبسطوا أيديهم إليك ، وإلى أصحابك بالقتل ، واصفح عمن أساء إليك منهم ، فإنى أحب من أحسن بالعفو والصفح إلى من أساء إليه ، إيثاراً للإحسان والفضل على ما يقتضيه العدل .

ومحل العفو والصفح ما لم يؤثر موقفهم على كيان الأمة الإسلامية ، والدعوة المحمدية ، فإذا ما نقضوا عهودهم ، وخانوا الله ورسوله والمؤمنين ، وأصبح العفو عنهم مضراً بالمسلمين ، وجبت معاملتهم بما يقى المسلمين شرورهم ، لأن العفو عنهم فى هذه الحالة يلقى بالمسلمين إلى التهلكة .

وعن أبى مسلم أن ضمير عنهم عائد على القليل المستثنى ، أى فاعف عما فرط من هؤلاء القليل واصفح عمن أساء منهم ، وعاملهم بالإحسان الذى يحبه الله تعالى ، فأنت أحق الناس باتباع ما يحبه الله ويرضاه .

١٠ ــ وقال تعالى : ﴿ **ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** ﴾[1] .

والمعنى : ومن الذين ادعوا أنهم نصارى ، وسموا أنفسهم بذلك أخذنا عليهم الميثاق بالإيمان بالله وتوحيده ، والتصديق برسله خصوصاً خاتمهم محمد ﷺ ، والعمل بما أنزلناه عليهم فى الإنجيل ، فتركوا نصيباً وافراً مما أمروا به فيه ، وسلكوا فى ميثاقنا طريق اليهود ، فبدّلوا دينهم ونقضوا الميثاق الذى أخذناه عليهم بالوفاء بعهدنا ، فعاقبناهم على ذلك بإثارة العداوة والخصومة الشديدة بينهم ، فصاروا فرقاً متعادية إلى يوم القيامة ، لأن نسيانهم حظاً عظيماً من كتابهم كان سبباً فى تفرقهم فى الدين واتباع أهوائهم ، وتبع هذا أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء . بمقتضى سنته تعالى فى هذه الحياة .

وسيخبرهم الله تعالى عند الحساب فى الآخرة ــ تبكيتاً وتوبيخاً ــ بما كانوا يصنعون فى الدنيا ، من الشرك ، ونقض الميثاق ، وتبديل الكتاب ، وتحريف الأوامر والنواهى ويجازيهم على ذلك بما يستحقون ليوقنوا أن حكم الله عدل لايحابى أحدا .

---

(١) المائدة ١٤ .

١١ ــ وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[١] .

سبب النزول : عن عكرمة فى قوله **﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم ﴾** إلى قوله **﴿ صراط مستقيم ﴾** قال : إن نبى الله أتاه اليهود يسألونه عن الرجم ، واجتمعوا فى بيت . قال : أيكم أعلم ؟ فأشاروا إلى ابن صوريا ، فقال : أنت أعلمهم ؟ قال : سل عما شئت ، قال : أنت أعلمهم ؟ قال : إنهم ليزعمون ذلك . قال فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى ، والذى رفع الطور ، وناشده بالمواثيق التى أخذت عليهم ، حتى أخذه أفكل[٢] ، فقال : إن نساءنا نساء حسان فكثر فينا القتل فاختصرنا أخصورة[٣] ، فجلدنا مائة وحلقنا الرءوس ، وخالفنا بين الرءوس إلى الدواب ــ أحسبه قال الإبل ــ قال فحُكم عليهم بالرجم ، فأنزل الله فيهم **﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم . . . ﴾** الآية وكذا أخفوا صفات النبى ﷺ ، والبشارات به ، وحرفوا بالحمل على معان أخرى اليهود والنصارى فى هذا سواء[٤] .

والمعنى : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ خاتم النبيين ، داعياً إلى الحق ، يظهر لكم كثيراً من الأحكام التى كنتم تخفونها ، وقد أنزلها الله عليكم ، كحكم رجم الزانى ، وهو مما حفظتموه من أحكام التوراة ، كما هو ثابت فى سفر التثنية ٢٢ / ٢٠ ــ ٢٤ ، لكنكم لم تلتزموا العمل به ، وأنكره عالمكم ابن صوريا أمام النبى ﷺ ، فأقسم عليه وناشده الله فاعترف به .

وكذلك أخفى اليهود والنصارى صفات النبى ﷺ ، والبشارات به ، وحرفوها بالحمل على معان أخرى ، إلى ما أضاعوه من كتبهم ، ونسوه ، كنسيان اليهود ما جاء فى التوراة من أخبار الحساب والجزاء فى الآخرة ، وأظهره الرسول لهم ، وكانت الحجة عليهم فيه أقوى ، إذ هم يعلمون أنه نبى أمى لم يطلع على

---

(١) المائدة ١٥ ، ١٦ .
(٢) بوزن أرنب : الرعدة .
(٣) كالأقصوصة : الشيء المختصر .
(٤) من تفسير ابن جرير ٦ / ١٦١ .

شيء من كتبهم .

ومن ثم آمن به من آمن من علمائهم المنصفين ، واعترفوا بعد إيمانهم بما بقي عندهم من البشارات ، وصفات النبي ﷺ ، وكان هذا البيان من دلائل نبوته ﷺ ومعجزات القرآن التي لا يشك فيها .

ومع هذا فقد يعفو عن كثير مما تخفونه ، ولا تدعو الحاجة إلى إظهاره ، والفائدة في ذكر بعضه إعلامهم بأن الرسول ﷺ عالم بكل ما يخفونه ، فيكون ذلك داعياً لترك الإخفاء ، حتى لا يفتضحوا ، ومن شأن علماء السوء في كل أمة أن يكتموا من العلم ما يكون حجة عليهم ، وكاشفاً سوء حالهم ، أو يحرفوه بحمله على غير ظاهر معناه .

﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾ النور هو النبي محمد ﷺ ، وسمي بذلك لأنه للبصيرة كالنور للبصر ، فكما أنه لولا النور ما أدرك البصر شيئاً من المبصرات ، كذلك لولا ما جاء به النبي ﷺ من القرآن والإسلام لما أدرك ذو البصيرة من أهل الكتاب ولا من غيرهم حقيقة الدين الحق ، ولا ما طرأ على التوراة والإنجيل من ضياع بعضهما أو نسيانه ، وعبث الرؤساء بالبعض الآخر ، بإخفاء شيء منه أو تحريفه ، ولظلوا في ظلمات الجهل والكفر لا يبصرون . والكتاب المبين : هو القرآن الكريم ، وهو بيّن في نفسه ، مبين لما يحتاج الناس إليه في هدايتهم .

﴿ **يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ أي يهدي الله بهذا الكتاب إلى سبيل النجاة منّ اتجه إلى مرضاته ويخرجهم من ظلمات الشرك والكفر إلى نور الإيمان وهدى القرآن بتوفيقه ، ويرشدهم إلى طريق الحق والسعادة في الدنيا والآخرة .

١٢ ـــ وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم**

بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾[1] .

معانى المفردات : لا يحزنك : لا يؤلمك . يسارعون فى الكفر : يقعون فيه بسرعة ورغبة ، والمراد أنهم ينتقلون مسرعين من بعض فنون الكفر إلى بعض آخر . فتنته : اختباره حتى يظهر ما تنطوى عليه نفسه . السحت : الخبيث من المكاسب ، وهو فى اللغة الهلاك والشدة ، وسمى المال الحرام سحتاً لأنه يسحت الطاعات والبركات ، أى يذهبها .

مما جاء فى سبب نزول هذه الآيات :

١ ـــ ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه : « أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا : صدق ، يا محمد ، فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، قال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة »[2] يجنأ على المرأة : ينحنى عليها .

٢ ـــ وما رواه مسلم فى صحيحه عن البراء بن عازب[3] قال : « مُرّ على النبى ﷺ بيهودى مُحمماً مجلوداً ، فدعاهم ﷺ فقال : هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم . فدعا رجلاً من علمائهم ، فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، قلنا تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذْ أماتوه ، فأمر به فرجم ، فأنزل

---

(١) المائدة ٤١ : ٤٣ .   (٢) اللؤلؤ ٢ / ١٨٨ .   (٣) فى ١١ / ٢٠٩ .

الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إن أوتيتم هذا فخذوه** ﴾ .

يقول : ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ فى الكفار كلها » .

معنى الآيات :

﴿ **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر** ﴾ .

خاطب الله محمداً ﷺ بقوله « يا أيها النبى » فى مواضع كثيرة ، وما خاطبه بيا أيها الرسول إلا فى هذا الموضع ، وموضع آخر بعده ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ وهذا الخطاب للتشريف والتعظيم ، وتأديب المؤمنين وتعليمهم أن يخاطبوه بوصفه كما كان يفعل بعض أصحابه بقولهم « يا رسول الله » وجهل هذا بعض الأعراب لخشونتهم ، وسذاجة فطرتهم ، فكانوا ينادونه « يا محمد » حتى أنزل الله ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا** ﴾ فكفوا عن ندائه باسمه .

والنهى عن الحزن — وهو أمر طبيعى لا اختيار للإنسان فيه — مراد به النهى عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم وقعها ، وبذلك يتجدد الألم وتعز السلوى .

والمعنى : لا تهتم أيها الرسول بهؤلاء المنافقين الذين يقعون فى الكفر بسرعة ورغبة ، ويبادرون إلى إظهاره متى ظهرت لهم أية فرصة ، فإنى ناصرك عليهم ، وكافيك شرهم .

﴿ **من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا** ﴾ أى لا يحزنك ويؤلمك — أيها الرسول — شأن الذين يسارعون فى الكفر ، ويتنقلون فيه من نوع إلى آخر ، ومن أدناه إلى أعلاه من المنافقين الذين ادعوا الإيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خالية منه ، ومن اليهود ، فإن الله ناصرك عليهم وكافيك

شرهم ، فالمسارعون فى الكفر طائفتان : طائفة من المنافقين ، وطائفة من اليهود .

﴿ **سماعون للكذب** ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره هم سماعون للكذب ، والظاهر أن الضمير المقدر عائد على الفريقين : المنافقين واليهود ، بقرينة الحديث عن الفريقين ، أى هم كثير وسماع الكذب ـــ سماع قبول ـــ وهم يعرفونه كذباً ، والمراد بالكذب كذب أحبارهم الزاعمين أن حكم الزنى فى التوراة التحميم ، وأن نعوت النبى ﷺ غير موجودة فى كتابهم ، وقد قال بعض المفسرين : إن المراد بالمنافقين هنا منافقو اليهود ، فيكون الكلام هنا فى أولئك اليهود عامة ـــ الذين أظهروا الإسلام نفاقاً والذين ظلوا على دينهم ـــ ويدخل فى عموم الأول المنافقون من غير اليهود ، على قاعدة العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، أى ومن المنافقين .

ومن اليهود قوم كثيرو سماع الكذب ـــ سماع قبول ـــ من أحبارهم الذين يلقون إليهم الأخبار الكاذبة فى حق النبى ﷺ ، وفى أحكام دينهم التى يتلاعبون فيها بأهوائهم ، وكثيرو الاستماع لكلام الرسول ﷺ ، وإخبار أحبارهم به لأجل الكذب عليه بالتحريف ، واختلاق الشبهات فى تعاليم الإسلام .

﴿ **سماعون لقوم آخرين لم يأتوك** ﴾ وهم أيضاً مبالغون فى قبول كلام قوم آخرين لم يحضروا مجلسك تكبراً وإفراطاً فى العداوة والبغضاء ، وجهوهم عيوناً وجواسيس لهم لأجل أن يبلغوهم ما سمعوا من رسول الله ﷺ .

فهم منعوتون بصفتين : سماع الكذب من أحبارهم ونقله إلى عوامهم ، وسماع الحق من النبى ﷺ ونقله إلى أحبارهم ليحرفوه تبعاً لأهوائهم ، فهم جواسيس بين المسلمين لأعدائهم .

وجملة ﴿ **سماعون لقوم آخرين لم يأتوك** ﴾ خبر ثان عن المبتدأ المحذوف ، وآخرين صفة أولى لقوم ، و (لم يأتوك) صفة ثانية .

والمعنى : أنهم يقبلون ما يأمرهم به قوم آخرون من كتم غرضهم عن النبى ﷺ حتى إن حكم بما يهوون اتبعوه ، وإن حكم بما يخالف هواهم عصوه ، أى هم أتباع لقوم مستترين ، هم الآخرون ، وهم أهل خيبر ، وأهل فدك ، الذين بعثوا بالمسألة ولم يأت أحد منهم النبى ﷺ ، واللام فى « لقوم » للتقوية لضعف

اسم الفاعل عن العمل فى المفعول ﴿ **يحرفون الكلم من بعد مواضعه** ﴾ صفة ثالثة لقوم ، أو حال ، أى يحرف هؤلاء اليهود الذين لم يأتوك كلم التوراة من بعد وضعه فى مواضعه التى وضعه الله تعالى فيها ، إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة بكلمة ، أو بإخفائه وكتمانه ، أو بالزيادة فيه أو بالنقص منه ، وإما تحريفاً معنوياً بحمل اللفظ على غير ما وضع له .

وقد قال تعالى هنا ﴿ **من بعد مواضعه** ﴾ وفى سورة النساء ﴿ **عن مواضعه** ﴾ لأن آية سورة النساء فى وصف اليهود كلهم وتحريفهم فى التوراة ، فهو تغيير كلام التوراة بكلام آخر عن جهل أو قصد ، أو خطأ فى تأويل معانى التوراة ، أو فى ألفاظها ، فكان إبعاداً للكلام عن مواضعه ، أى إزالة للكلام الأصلى ، سواء عوض بغيره أم لم يعوض .

وأما هاته الآية ففى ذكر طائفة معينة أبطلوا العمل بكلام ثابت فى التوراة ، إذ ألغوا حكم الرجم الثابت فيها دون تعويضه بغيره من الكلام ، فهذا أشد جراءة من التحريف الآخر ، فكان قوله ﴿ **من بعد مواضعه** ﴾ أبلغ فى تحريف الكلام ، لأن لفظ بعد يقتضى أن مواضع الكلم مستقرة ، وأنه أبطل العمل بها مع بقائها قائمة فى كتاب التوراة .

﴿ **يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا** ﴾ أى يقولون لمن أرسلوهم إلى الرسول ﷺ ، ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم — وأرادوا أن يحابوهما بعدم رجمهما — إن أعطاكم محمد رخصة بالجلد عوضاً عن الرجم فخذوها وارضوا بها وإن حكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك ولا ترضوا به .

﴿ **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا** ﴾ أى ومالك تحزن عليهم ؟ والحال أنه من يرد الله أن يختبره فى دينه ، ويظهر أمره فلن تملك له من الله شيئاً يمنع ذلك ، وهؤلاء المنافقون واليهود قد أظهرت فتنة الله لهم مقدار فسادهم ، فهم الذين وضعوا أنفسهم للكذب ونقله ، وتحريف الكلم وكتمانه اتباعاً لأهوائهم ، ومرضاة لرؤسائهم ، وذوى الجاه فيهم فلا تحزن عليهم ، ولا تطمع فى جذبهم إلى الإيمان فإنك لا تملك لأحد نفعاً وإنما عليك البلاغ والبيان .

﴿ **أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة**

عذاب عظيم ﴾ أى أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الكفر والنفاق ويزكى نفوسهم من الرجس والإثم وسيء الأخلاق ، لأن سنة الله فى خلقه ﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ أن النفس إذا مرنت على السوء والشر لم يعدلها طريق للخير ، ولا سبيل للنور ، لهم فى الدنيا ذل بفضيحتهم ، وهتك سترهم ، وظهور الإسلام والقضاء عليهم ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد عظيم هوله ، شديد وقعه .

﴿ **سماعون للكذب أكالون للسحت** ﴾ أعاد الله وصفهم بكثرة السماع للكذب للتأكيد وتقرير المعنى ، وإفادة اهتمام المتكلم به ، وبيان أن أمرهم كله مبنى على الكذب الذى هو شر الرذائل ، وأضر المفاسد ، وليرتب عليه قوله ﴿ **أكالون للسحت** ﴾ ومعنى ﴿ **أكالون للسحت** ﴾ أخّاذون له ، لأن الأكل استعارة لإتمام الانتفاع ، والسحت : الشيء المسحوت ، أى المستأصل ، يقال : سحته إذا استأصله ، وأتلفه سمى به الحرام لأنه لا يبارك فيه لصاحبه ، فهو مسحوت وممحوق ، أى مقدر له ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ **يمحق الله الربا** ﴾ .

والسحت يشمل جميع المال الحرام ، كالربا والرشا وأكل مال اليتيم والمغصوب ، فهؤلاء القوم فوق كونهم سماعون للكذب الذى هو رأس كل رذيلة ، فإنهم كذلك أكالون للمال الحرام بجميع صوره وألوانه ، فترتب على ذلك فساد أمورهم الدينية والدنيوية .

﴿ **فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا** ﴾ أى فإن جاءوك متحاكمين إليك فأنت مخير بين الحكم بينهم والإعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم ، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة ، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم فى بلادهم ، وإن تحاكموا إليهم ، بل هم مخيرون يرجحون فى كل حال ما يرونه من المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا ، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام فى البيوع والمواريث وسائر العقود إلا فى بيع الخمر والخنزير ، فإنهم يقرون عليه ، ويمنعون من الزنا كالمسلمين ، فإنهم نهوا عنه ، ولا يرجمون لأن من شروط الرجم الإسلام .

... وإن اخترت الإعراض عنهم ولم تحكم بينهم فلن يضروك شيئاً من الضرر ، فإن الله حافظك من كيدهم .

﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾ أى وإن اخترت أن تحكم بينهم فاحكم بينهم بالعدل الذى أمرت به ، وهو ما تضمنه القرآن ، وجاءت به شريعة الإسلام ، ولا تستمع لرغبتهم وأهوائهم ، إن الله يحب العادلين فى الناس ، القاضين بينهم بما شرع الله ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ـــ عز وجل ـــ وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا » رواه مسلم[1] .

﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ أى وكيف يطلبون حكمك فى قضية مع أن حكم الله فيها منصوص عليه عندهم فى التوراة ، والعجب من أمرهم أنهم يعرضون عن حكمك إذا لم يوافق هواهم ، مع أنه الموافق لما فى كتابهم ، فما هم بمؤمنين بالتوراة ولا بالقرآن ، ولا بمن أنزلهما ، فمن أيقن أذعن ، ومن أذعن عمل ، لأن الإيمان الإذعانى هو صاحب السلطان الأعلى على الإرادة ، والإرادة هى المصرفة للجوارح فى الأعمال .

١٣ ـــ وقال تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾[2] .

ما ورد فى سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : « قالت اليهود : يا محمد أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم ، قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً قال : فأنزل الله « قل ـــ يا محمد ـــ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » إلى قوله : « ولا آباؤكم » قال : الله أنزله » وعن السدى قال : قال فنحاص اليهودى : ما أنزل الله على محمد من شىء »[3] .

(١) ق ١٢ / ٢١١ (٢) الأنعام ٩١ .

(٣) أخرجهما ابن جرير فى تفسيره ٧ / ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

والمعنى : وما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته فى اللطف بعباده والعناية بهم إذ أنكروا بعثة الرسل وإنزال الكتب بغيا ومكابرة ، فقالوا : ما أنزل الله على بشر شيئاً من الأشياء ، قاصدين بذلك الطعن فى نبوة محمد ﷺ ، وكتابه الكريم .

وقد أمر الله رسوله أن يلزمهم الحجة ، وأن يرد على نفيهم العام بقضية بديهية التسليم ، فقال : ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا** ﴾ القراطيس : جمع قرطاس ، وهو ما يكتب فيه من ورق ونحوه ، أى قل ــ يا محمد ــ لهؤلاء الزاعمين بأن الله ما أنزل على بشر شيئاً من الأشياء : من الذى أنزل التوراة وهى الكتاب الذى جاء به موسى نوراً يضىء من ظلمات الجهالة ، وهدى يرشد ويعصم من الضلالة .

إنكم أيها اليهود تجعلون هذا الكتاب أوراقاً مكتوبة مفرقة ، تظهرون منها ما يتفق وأهواءكم ، وتخفون كثيراً مما يلجئكم إلى الإيمان ، والتصديق بالقرآن ، أو يكون حجة عليكم لمحمد ﷺ . والغرض من هذه الجملة ذم المحرفين لكتاب الله ، وتوبيخهم على هذا الفعل الشنيع الذى يريدون منه الطعن فى نبوة محمد ﷺ وكتابه .

﴿ **وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾ أى والحال أنكم علمتم بواسطة التوراة ما كنتم تجهلونه من أمور الدين وقوانين الأخلاق والتعامل ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم ، وتولّ أنت أيها النبىّ الجواب ، وقل لهم : الله هو الذى أنزل التوراة ، ثم اتركهم يمضون فى الضلال عابثين كالصبيان .

وهكذا ثبت ثبوتاً قطعياً من هذه الآيات الكثيرة التى تقدمت تحريف التوراة والإنجيل لفظياً ومعنوياً .

فهل تريدون من القرآن ــ الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ــ أن يصدق هذا المحرف ، أو يكذب بعضه بعضاً ؟ .

على أن القرآن لم يناقش قضية التحريف ، مناقشة تفصيلية تستوعب كل ما جاء فيها ، وإلا لطال الأمر ، وخرج عن مهمته من الهداية إلى معركة مع

الخصم ، من الجدال والنقد يطول أمدها ، وتخرج به عن القصد ، ولذا اكتفى ببيان أمهات المسائل ، وقواعد الدين الكلية التى يفهم فى ضوئها ما يتعارض مع عقائده ومسلماته .

* * *

المبحث الخامس

ما لا يصدقه القرآن من التوراة والإنجيل

وإليكم بعض الأمثلة لما لا يصدقه القرآن من التوراة والإنجيل :

١ ــ القرآن لا يصدق ما جاء فى التوراة من قول موسى ــ عليه السلام ــ لربه : « ارجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك ، فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه »[١].

٢ ــ ولا يصدق ما تقوله عن إيليا « إلياس » : وصرخ إلى الرب وقال : أيها الرب إلهى أأيضاً إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها ؟[٢] .

٣ ــ والقرآن لا يصدق ، بل يكذب وينكر أشد الإنكار ، ما تقوله التوراة عن هارون : « أنه صنع لبنى إسرائيل عجلاً جسداً من ذهب على أنه الإله المعبود »[٣] .

٤ ــ وما تقوله : مِن أن ابنتى لوط سقتا أباهما خمراً حتى غاب ، واضطجعت كل منهما معه فى ليلة لتحمل منه ، فحملت كل منهما من أبيها ، وهو لا يعلم باضطجاعها ولا بقيامها[٤] .

٥ ــ وما تقوله على لسان موسى ــ عليه السلام ــ : « من مثلك بين الآلهة يارب »[٥] .

٦ ــ وما تقوله على لسانه أيضاً : « الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآله »[٦] فهذا قول بتعدد الآلهة وما أنزل القرآن ، ولا الكتب السماوية جميعها ،

(١) خروج ٣٢ « ١٢ ــ ١٤ » .
(٢) الملوك الأوّل ١٧ : ٢٠ .
(٣) خروج ٣٢ « ١ ــ ٦ » .
(٤) اقرأ تكوين ١٩ « ٣٠ : ٣٦ » .
(٥) خروج « ١٥ : ١١ » .
(٦) خروج ١٨ : ١١ .

ولا أرسلت الرسل كلها إلا لتدعو العالم كله إلى التوحيد الخالص ، وعبادة إله واحد لا شريك له .

٧ ــ والقرآن لا يصدق ما جاء فى إنجيل يوحنا :

« لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك ، كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية »[١] .

٨ ــ ولا ما جاء فيه « أنا والآب واحد »[٢] .

٩ ــ ولا يصدق ما جاء فى إنجيل مرقص : « ثم إن الرب بعدما كلمهم ارتفع إلى السماء ، وجلس عن يمين الله »[٣] .

١٠ ــ والقرآن لا يصدق العقائد والشرائع التى ابتدعها المسيحيون بغير إذن من الله : مثل القول بالتثليث والأقانيم ، والقول بالتجسد والحلول ، والاتحاد بين الناسوت واللاهوت ، وقولهم إن المسيح هو الله ، أو ابن الله ، أو إله حق من إله حق .

١١ ــ والقرآن ينكر ما هم عليه من عقيدة الصلب والفداء ، وعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر على الوجه الصحيح ، وتحليل ما حرمه الله ورسله ، كالخنازير .

١٢ ــ والقرآن لا يقر التناقض الذى جاء فى إنجيل متى ــ وهو عمدة الأناجيل الأربعة ــ حيث يقول السيد المسيح لبطرس أحد الحواريين الإثنى عشر :

« وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات »[٤] .

ثم يقول فى نفس الإصحاح آية ٢٣ لبطرس : « اذهب عنى يا شيطان أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بالله ، لكن بما للناس » فكيف يرفع السيد المسيح حواريه بطرس إلى أعلى عليين ، ثم يلقى به إلى منازل الشياطين فى أسفل سافلين ؟ .

---

(١) يوحنا ٣ : ١٦ .

(٢) يوحنا ١٠ : ٣٠ .

(٣) مرقص ١٦ : ١٩ .

(٤) متى ١٦ « ١٩ ــ ٢٠ » .

ويقول متى أيضاً فى الإصحاح ١٩ من إنجيله آية ٢٨ : يقول السيد المسيح للحواريين الإثنى عشر الذين معه : « متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثنى عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الإثنى عشر » .

والمعروف أن يهوذا الإسخريوطى هو الذى أسلم المسيح لليهود ودلهم عليه ، ليقدموه للمحاكمة ، ثم الصلب ، نظير دراهم معدودة ، هو واحد من الإثنى عشر حوارياً ، فكيف تكون له تلك المنزلة الرفيعة ، وهو الذى فعل بالمسيح — عليه السلام — هذه الفعلة الشنعاء ؟ ويقول فيه المسيح — عليه السلام — : « ولكن ويل لذلك الرجل الذى به يُسَلَّم ابن الإنسان ، كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد »[1] .

وفى الإصحاح العاشر من مرقص ٢٩ ، ٣٠ يقول السيد المسيح لتلاميذه وحوارييه : « الحق أقول لكم : ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات ، أو أبا أو أماً ، أو امرأة ، أو أولاداً ، أو حقولاً لأجلى ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ مائة ضعف الآن فى هذا الزمان ، بيوتاً وإخوة وأخوات ، وأمهات ، وأولاداً ، وحقولاً مع اضطهادات ، وفى الدهر الآتى الحياة الأبدية » .

وقد ورد هذا الخبر فى لوقا ١٨ « ٢٩ — ٣٠ » وفى متى ١٩ « ٢٩ — ٣٠ » .

ويقول الشيخ أبو بكر عمر التيمى[2] تعليقاً على هذا الخبر الذى أجمعت عليه الأناجيل الثلاثة : وهو — أى الخبر — غلط يقيناً ؛ لأن الإنسان إذا ترك امرأة لأجل الإنجيل أو المسيح ، لا يحصل على مائة امرأة فى هذه الدنيا يقيناً ؛ لأن المسيحيين لا يجوزون التزوج بأكثر من امرأة واحدة ، وإذا كان المراد بهن فى هذا القول المؤمنات بالمسيح — عليه السلام — بدون عقد نكاح يكون الأمر أفحش وأفسد ، والعياذ بالله تعالى . وقوله « حقولاً مع اضطهادات » لا معنى له ، فإن الكلام هنا فى حسن المكافأة والمجازاة فما دخل الشدائد والاضطهادات هنا ؟ .

ويقول لوقا فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيله آية ٢٦ على لسان المسيح

---

(١) متى ٢٦ : ٢٤ .

(٢) فى كتابه السيف الصقيل ١٩٨ .

ـــ عليه السلام ـــ « إن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده ، وإخوته ، وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً » .

وكيف يكون هذا كلام السيد المسيح ، ومن مقاصد الديانات السماوية جميعها البر بالوالدين والأقارب والإنسانية كلها ، والسيد المسيح ـــ عليه السلام ـــ يقول فى وصاياه فى إنجيل متى ١٩ : ١٩ : « أكرم أباك وأمك ، وأحب قريبك كنفسك » .

هذا والتحريف والتناقض فى الأناجيل كثير لا يتسع المقام لذكره ، وصدق الله حيث يقول فى القرآن الكريم : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا** ﴾[١] .

ولهذا التناقض الواضح والخلاف البعيد بين الأناجيل ، تعرضت لنقد مرير من علماء المسيحية أنفسهم ، فضلاً عن غيرهم ، فيقول وُل ديوارنت فى تعليق عام على الأناجيل الأربعة : « وملاك القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين الأناجيل ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً فى صحتها وكثيراًمن القصص الباعثة على الريبة والشبهة مما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيراً من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات كثير من التنبؤات الواردة فى العهد القديم[٢] .

فهل بعد هذا ـــ وغيره كثير ـــ تريدون من القرآن أن يصدق ما جاء فى هذه الأناجيل العديدة ، من عقائد باطلة ، وشرائع مبتدعة ، وآراء متضاربة ؟ إن القرآن لا يصدق إلا ما جاء فى الإنجيل الواحد الذى أنزله الله على عيسى-عليه السلام ـــ ولم يحرف ، أو يبدل ، أو ينسى فائتوا به إن كنتم مستطيعين ، لنعرضه على القرآن الكريم ﴿ **فإن لم تفعلوا ـــ ولن تفعلوا ـــ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾[٣] .

إنكار أهل الكتاب نسخ شريعة القرآن لشريعتهم

هذا ، وقد تصدى أهل الكتاب لشريعة القرآن فأنكروا نسخها لشريعتهم ،

(١) النساء ٨٢ .(٢) قصة الحضارة .
(٣) البقرة ٢٤ .

وتنادوا وتناصروا على ذلك .

فالبابا شنودة يقول فى رسالته « القرآن والمسيحية » ص ٢ : ولم يذكر فى القرآن إطلاقاً أنه نسخ التوراة أو الإنجيل ، بل على العكس ذكر أن المؤمنين ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل . وقال فى ص ٨ : إن كل ما سبق ينفى بأسلوب قاطع الفكرة الخاطئة التى ظنها البعض ، وهى أن القرآن نسخ التوراة والإنجيل . من المحال أن يكون ناسخاً لهما وفى نفس الوقت يدعو إلى الإيمان بهما ، ويحذر من إهمال ذلك . والبابا شنودة ليس وحيداً فى ذلك ، فقد أنكر اليهود والنصارى قديماً وحديثاً ذلك توسلاً للقوم بنفى نبوة محمد ﷺ وشريعته لهم .

فالشمعونية من اليهود يقولون : بامتناع النسخ عقلاً وسمعاً ، والعنانية منهم يقولون بجوازه عقلاً وامتناعه سمعاً ، والفرقة الثالثة منهم وهم العيسوية ينكرون نسخ الشريعة المحمدية لليهودية ، فهم يعترفون برسالة محمد ﷺ ولكنهم يقولون إنها خاصة بالعرب[١].

وجميع نصارى هذا العصر ينكرون النسخ ، ويقولون بامتناعه عقلاً وسمعاً ، وتشيعوا له تشيعاً ظهر فى حملاتهم المتكررة ضد الإسلام[٢] ، وقد عبر عن ذلك كثير منهم :

فالقسيس الدكتور فندر فى كتابه « ميزان الحق » يدعى أن الكتاب المقدس « التوراة والإنجيل » لم ينسخ ، ولا يمكن أن ينسخ لا فى حقائقه ولا فى عقائده ، ولا فى مبادئه الأدبية ، كما ادعى أن التوراة غير منسوخة بالإنجيل ، وأن الإثنين غير منسوخين بالقرآن[٣] .

والأستاذ جـ . ك فى رسالته « وإلهنا وإلهكم واحد »[٤] ص ٢٥ : ٢٧ ينحو هذا النحو .

---

(١) انظر الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى ٢ / ٦٦ ، وتفسير الفخر الرازى ١ / ٤٣٣ .

(٢) انظر مناهل العرفان للأستاذ الزرقانى ٢ / ٨٢ .

(٣) راجع كتاب « ميزان الحق » له ٦١ : ٩٤ ، وكتاب أدلة اليقين فى الرد على كتاب ميزان الحق وغيره للأستاذ الجزيرى ١١٨ .

(٤) مطبعة أفرام . درعون . حريصاً بلبنان .

وقال الدكتور أحمد الحوفى[1] : والمسيحيون يقرون بنبوة موسى وبالتوراة ، لكنهم ينقمون على اليهود أنهم يجرحون نسب عيسى ، ويجحدون رسالته . والإسلام فى زعمهم دين افتراه عربى ادعى النبوة ، وادعى أن دينه ينسخ ما قبله ، وفى زعمهم أن الدين الناسخ لما قبله إنما هو المسيحية ، فيجب أن تنفرد بالبقاء والسيادة .

ودحضاً لهذا الافتراء والادعاء الكاذب أسوق البراهين الساطعة والأدلة القاطعة والمتواترة من النقل والعقل والعلم بكثرة كاثرة على عالمية الرسالة المحمدية ، وشمولها لجميع الثقلين : الجن والإنس من أهل الكتاب وغيرهم ، وعلى نسخها لجميع الشرائع السماوية السابقة فى المباحث الثلاثة التالية وبالله التوفيق .

* * *

(١) فى كتابه سماحة الإسلام ١٦٨ .

المبحث السادس

عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها

نبينا محمد ﷺ ، رسول الله إلى جميع العالمين ، جناً وإنساً ، عرباً وعجماً ، أهل كتاب أولاً فى كل زمان ومكان من يوم بعثته حتى تقوم الساعة .

والقرآن الكريم الذى أنزله الله عليه فى شهر رمضان المبارك هو كتاب الله الخالد لجميع الجن والإنس وإن اختلفوا زماناً ومكاناً حتى يرث الله الأرض ومن عليها[١] ، وذلك معلوم من دين الإسلام بالضرورة ، والأدلة الصريحة على ذلك من القرآن والسنة الصحيحة كثيرة جداً ، يطول ذكرها كلها فنكتفى ببعضها :

فمن القرآن :

١ ــ قوله تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾[٢] .

الفرقان : القرآن لأنه يفرق بين الحق والباطل . والعالمون : ما سوى الله تعالى من العقلاء ، إنساً أو جناً .

٢ ــ وقوله : ﴿ **إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[٣] .

أى إن فى هذا القرآن لكفاية لدخول الجنة لقوم عاملين به ، وما أرسلناك

(١) رسالته ﷺ إلى جميع المكلفين من الثقلين : الإنس والجن رسالة تكليف اتفاقاً . وما كلف به الإنس تفصيلاً وإجمالاً فقد كلف به الجن كذلك .

(٢) أول الفرقان .

(٣) الأنبياء ١٠٦ ، ١٠٧..

يا محمد إلا لرحمة الإنس والجن بك .

٣ ــ وقوله : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين** ﴾(١) أى قل ــ أيها النبى ــ لقومك : لا أطلب منكم على تبليغ كلام الله أجراً . ما هذا القرآن إلا تذكير للعالمين : الإنس والجن .

٤ ــ وقوله : ﴿ **وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾(٢) .

٥ ــ وقوله : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين. ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾(٣) أى وما القرآن إلا عظة للإنس والجن ، ووالله لتعلمن خبر صدقه يوم القيامة .

٦ ــ وقوله : ﴿ **وما هو إلا ذكر للعالمين** ﴾(٤) .

٧ ــ وقوله : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾(٥) .

٨ ــ وقوله : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين** ﴾(٦) أى لينذر من كان حياً من الإنس والجن من يوم البعثة المحمدية حتى تقوم الساعة .

٩ ــ وقوله : ﴿ **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾(٧) فمن اسم موصول لجميع العقلاء من الجن والإنس أهل كتاب أولاً ، أى فذكر بالقرآن جميع العقلاء من الثقلين الذين يخافون عقاب الله ويرجون ثوابه .

١٠ ــ وقوله تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾(٨) فحيث كان التحدى بالقرآن الكريم تحدياً للإنس والجن على امتداد الزمان والمكان . فإن معنى هذا التحدى أن يكون الإنس والجن مدعوين جميعاً إلى ما يدعو إليه الرسول الذى

---

(١) الأنعام ٩٠ .
(٢) يوسف ١٠٤ .
(٣) آخر ص .
(٤) آخر القلم .
(٥) التكوير ٢٧ ، ٢٨ .
(٦) يس ٦٩ ، ٧٠ .
(٧) آخر ق .
(٨) الإسراء ٨٨ .

جاء بتلك المعجزة ، وهو الإيمان به ، وبكتابه ، فمن استجاب لذلك كان مؤمناً ، ومن أبى كان كافراً ، إنساً أو جناً ، أهل كتاب أولاً .

ولذلك قال ابن تيمية رحمه الله : ومما يجب أن يعلم هو أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى جميع الإنس والجن ، فلم يبق إنس ولا جن إلا وجب عليه الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه ، فعليه أن يصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ومن قامت عليه الحجة برسالته ثم لم يؤمن به فهو كافر ، إنسياً كان أو جنياً(١) .

هذا ، وكل الآيات السابقة سورها مكية ، وهى تدل على عالمية الرسالة المحمدية من أيامها الأولى ، لا كما يدعى بعض المؤرخين غير المسلمين أن الدعوة الإسلامية نشأت محلية ، ثم طمحت بعد اتساع رقعة الفتوح أن تكون عالمية ، فهى منذ نشأتها رسالة للعالمين ، طبيعتها طبيعة عالمية شاملة ، ووسائلها إنسانية كاملة ، وغايتها نقل البشرية كلها من عهد خاص إلى عهد عام ، ومن نهج قومى إلى نهج عالمى .

ومع أن البشر داخلون فى العالمين دخولاً أولياً ، ولكن الله نص عليهم بالذات تأكيداً لعموم رسالته ﷺ وكتابه لجميع الناس ، وذلك فى نصوص عديدة منها :

١ ــ قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليماً حكيما** ﴾(٢) فلفظ الناس يشمل العرب والعجم وأهل الكتاب وغيرهم .

٢ ــ وقوله : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا** ﴾(٣) فالبرهان الرسول ﷺ ، لأن أخلاقه وصفاته الكريمة دليل على صدق رسالته والنور القرآن ، لأنه يهدى الناس إلى الخير .

٣ ــ وقوله : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون** ﴾(٤) المراد بأم القرى أهمها وهى مكة ، لأنها قبلة المسلمين وفيهاأول

---

(١) من الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص ٨٠ .
(٢) النساء ١٧٠. (٣) النساء ١٧٤ . (٤) الأنعام ٩٢ .

بيت وضع للناس ، ومن حولها : المحيطون بها من سائر جهاتها حتى نهاية المعمور من الأرض ، أى ولتنذر أهل مكة وسائر الناس ، ومن يؤمن بالآخرة يؤمن بالقرآن ويحافظ على الصلاة عمود الدين .

٤ ــ وقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾(١)

٥ ــ وقوله : ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾(٢) .

٦ ــ وقوله : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾(٣) والمعنى : ما كان للناس أن يعجبوا وينكروا وحينا إلى رجل منهم ، هو محمد ليحذر الناس من عذاب الله ، ويبشر الذين آمنوا منهم بأن لهم منزلة عالية عند ربهم ، لا يتخلف وعد الله بها .

٧ ــ وقوله : ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾(٤) .

٨ ــ وقوله : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾(٥) الذكر : القرآن .

٩ ــ وقوله : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾(٦) .

والمعنى : هو الله الذى أرسل رسوله محمداً ﷺ ، بالقرآن الذى يهدى الناس إلى الخير ، وبالدين الحق وهو الإسلام ، ليعليه على باقى الأديان بالحجة والبرهان ، وكفى بالله شهيدا على أنك مرسل بما ذكر ، وأن ما أراد الله كائن لا محالة .

١٠ ــ وقوله : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ وكلماته : قرآنه

(١) الشورى ٧ . (٢) الزمر ٤١ . (٣) يونس ٢ . (٤) آخر يونس . (٥) النحل ٤٤ (٦) الفتح ٢٨

أى قل لجميع البشر من عرب وعجم ، أهل كتاب أولاً : إنى رسول الله إليكم كافة ، لا إلى قومى خاصة .

١١ ــ وقوله : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾(١) .

١٢ ــ وقوله : ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾(٢) أى وقد نزلنا هذا القرآن مفرقاً فى مدة ثلاث وعشرين سنة لتقرأه على الناس على مهل وتؤدة ليفهموه ، ونزلناه شيئاً فشيئاً على حسب الوقائع والمصالح ومقتضى الحكمة .

١٣ ــ وقوله : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾(٣) أى وكفى بالله شهيداً على أنك مرسل إلى جميع الناس .

١٤ ــ وقوله : ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾(٤) .

١٥ ــ وقوله : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٥) أى وما أرسلناك إلا إرسالة عامة لجميع الناس ، فإنها إذا عمتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم ، والمراد رسالة عامة للناس جميعاً .

١٦ ــ وقوله : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾(٦) .

١٧ ــ وقوله : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾(٧) أى هذا القرآن أنزل لتبليغ الناس ما به من أحكام وتشريعات .

ومع أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يشملهم لفظ العالمين ، ولفظ الناس شمولاً لا شك فيه ، فقد نص الله عليهم بالذات ، وذكرهم صراحة فى كثير من الآيات زيادة فى البيان ، وتأكيداً لما سبق ، حتى لا يتخيل متخيل ، أو يتأول متأول ، أو يكابر مكابر فى أن الرسالة المحمدية وكتابها لا يشملانهم ، بل هما خاصان بغير أهل الكتاب ، وأنها غير ناسخة لشرائعهم ، كما يحاول ذلك كثير منهم

---

(١) أول إبراهيم . (٢) الإسراء ١٠٦ . (٣) النساء ٧٩ . (٤) الحج ٤٩ .
(٥) سبأ ٢٨ . (٦) البقرة ١٨٥ (٧) آخر إبراهيم .

قديماً وحديثاً والآيات فى ذلك كثيرة منها :

١ ـــ قوله تعالى : ﴿ **يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾(١) أى وآمنوا بما أنزلت على محمد وهو القرآن حال كونه مصدقاً لما معكم فى التوحيد والنبوة ومكارم الأخلاق وصالح الأعمال ، ولا تكونوا أول كافر من أهل الكتاب بالقرآن ، ولا تستبدلوا بسبب تحريف آيات التوراة والإنجيل الدالة على صدق رسولنا محمد ثمناً قليلا هو حب الرياسة وزخرف الدنيا ، وإياى فخافون فى ذلك دون غيرى ولا تخلطوا الحق الذى أنزلت عليكم بالباطل الذى تفترونه ، ولا تكتموا النعت الحق لمحمد وأنتم تعلمون أنه حق .

وهذه الآيات من أقوى الأدلة على نسخ الشريعة المحمدية لليهودية والمسيحية ، وجميع الشرائع السماوية السابقة ، حيث أمرهم بالإيمان بمحمد وكتابه والتزام أحكامه ، والخضوع لشريعته واستقبال قبلته والصلاة مع المصلين فى مساجد المسلمين .

٢ ـــ وقوله : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم** ﴾(٢) الأسباط : أولاد يعقوب عليه السلام ـــ اثنا عشر رجلاً ، ولد كل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط ـــ وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى بنى إسماعيل .

والمعنى : أن المؤمنين من هذه الأمة يصدقون بجميع ما أنزله الله وبكل نبى بعثه الله ولا يكفرون بأحد من ذلك ، فإن آمن الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به ـــ أيها المؤمنون ـــ من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ، وإن تولوا عن الحق إلى الباطل بعد

---

(١) البقرة ٤٠ : ٤٣ .   (٢) البقرة ١٣٦ ، ١٣٧ .

قيام الحجة عليهم فإنما هم فى خلاف معكم فسينصركم الله عليهم ويظفركم بهم ، وهو السميع لأقوالهم العليم بأحوالهم .

٣ — وقوله : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾[١] .

والمعنى : وقل — يا محمد — لليهود والنصارى ومشركى العرب أسلموا وخص هؤلاء بالذكر مع أن البعثة عامة لأنهم هم الذين خوطبوا أولاً بالدعوة فإن أسلموا فقد اهتدوا من الضلال ، وإن تولوا عن الإسلام فإنما عليك تبليغ الرسالة ، والله خبير بعباده فيجازيهم بأعمالهم .

قال ابن كثير[٢] : وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث .

٤ — وقوله : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[٣] .

والمعنى : قل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى تعالوا إلىالكلمة السواء ، وهي العدل والنصف والأمر الوسط ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ، ولا أى شيء آخر ، ولا يعظم بعضنا بعضاً بما يعظم به الله أو يطيعه فى معصية ، فإن تولى اليهود أو النصارى عن ذلك فقولوا لهم اشهدوا بأنا مسلمون حقاً ، ومنقادون صدقاً لله وحده مخلصين له الدين ، وأما أنتم فلا وهذه الآية الكريمة هى التى كان يكتبها رسول الله فى رسائله إلى رؤساء المسيحية وأقوامهم داعياً لهم إلى الإسلام ، ونص كتابه إلى قيصر ملك الروم . كما فى الصحيحين وهو :[٤]

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ،

---

(١) آل عمران ٢٠ .

(٢) فى تفسيره ١ / ٣٥٤ .

(٣) آل عمران ٦٤ .

(٤) اللؤلؤ ٢ / ٢٢١ .

وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين [١]. و ﴿**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ .

٥ ـــ وقوله : ﴿**يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون**﴾ [٢]..

٦ ـــ وقوله : ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ [٣] إصرى : عهد المؤكد .

وهكذا بين الله أنه أخذ الميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه إذا أدركوه وأكد ذلك غاية التأكيد اعتناء به وأشاد بشرفه وفضله ، فمن أعرض عن الإيمان بالنبى بعد هذا الميثاق المؤكد فهو الفاسق الخارج عن شرع الله الكافر بالأنبياء أولهما وآخرهما .

قال ابن كثير فى تفسيره ١ / ٣٧٨ : قال على بن أبى طالب وابن عمه ابن عباس رضى الله عنهما : مابعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه .

٧ ـــ وقوله تعالى : ﴿**قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسمعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين**﴾ [٤] أى فمن يطلب بعد مبعث محمد ﷺ ديناً وشريعة غير دين الإسلام ، والشريعة المحمدية فلن يرضى الله منه ذلك لنسخها لغيرها ، وهو فى الآخرة من الذين خسروا أنفسهم فاستوجبوا العذاب الأليم .

٨ ـــ وقوله : ﴿**قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على**

---

(١) الفلاحين . (٢) آل عمران ٧٠ .
(٣) آل عمران ٨١ ، ٨٢ . (٤) آل عمران ٨٤ ، ٨٥ .

ما تعملون ﴾(1) .

والمعنى : أن الله سبحانه أمر رسوله بتوبيخ أهل الكتاب من اليهود والنصارى على استمرارهم على الكفر والضلال والتضليل فقال : قل يا محمد لأهل الكتاب يا أهل الكتاب لا وجه لكفركم ، فلأى سبب تكفرون بدلائل الله الدالة على نبوة محمد ﷺ ، وصدقه ، والله مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها .

٩ ــ وقوله : **﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾**(2) .

والمعنى : ولو آمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما أنزل على محمد لكان إيمانهم خيراً لهم لنجاتهم به من عذاب الله ودخولهم جناته ، لكنهم يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعضها ، ويؤمنون ببعض الرسل كموسى وعيسى ، ويكفرون بمحمد ، على أنهم كيف يدعون الإيمان وفى كتبهم البشارة بمحمد وصفاته وهم ينكرونها حتى لا يلزمهم الإيمان به .

ولكن من أهل الكتاب قوم مؤمنون حقاً ، كعبد الله بن سلام وأضرابه من اليهود ، وكبعض نصارى الحبشة والشام ، وكثير منهم خارجون عن حدود دينهم ، وواقعون فى الكفر والعصيان لربهم .

١٠ ــ وقوله : **﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ﴾**(3) .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود منهم عبد الله بن صوريا وكعب بن أسيد ، فقال لهم يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به الحق ، فقالوا : ما نعرف ذلك يا محمد ، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر ، فأنزل الله فيهم **﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان**

---

(1) آل عمران ٩٨   (2) آل عمران ١١٠ .   (3) النساء ٤٧ .

أمر الله مفعولا ﴾[1] .

وهذه الآية كانت سبباً فى ترك كعب الأحبار اليهودية واعتناقه الإسلام ، ذلك أنه خرج من اليمن يريد بيت المقدس ماراً بالمدينة زمان عمر ، فعرض عليه الإسلام فامتنع ، قال ابن كثير فى تفسيره ١ / ٥٠٨ : ثم خرج حتى انتهى إلى حمص ، فسمع رجلاً من أهلها حزيناً وهو يقول : ﴿ **يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها** ﴾ الآية قال كعب : يا رب أسلمت ، مخافة أن تصيبه هذه الآية ، ثم رجع فأتى أهله فى اليمن ، ثم جاء بهم مسلمين .

١١ ــ وقوله تعالى ــ عن أهل الكتاب ــ : ﴿ **لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما** ﴾[2] .

فقد أخبر الله فى هذه الآية بأن المؤمنين من أهل الكتاب فى عهد الرسالة المحمدية هم الذين يؤمنون به ﷺ وبما أنزل عليه وعلى من قبله من الرسل إلخ ، وبذلك ثبتت رسالته ﷺ لأهل الكتاب .

قال ابن عباس : أنزلت فى عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسد بن سعية ، وأسد بن عبيد الذين دخلوا فى الإسلام ، وصدقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ[3] .

ويقطع بأن هذه الآية نزلت فى القلة المستقيمة من أهل الكتاب أن الآيات التسع السابقة كانت تتحدث عن جرائم الكثرة من أهل الكتاب بدأت بقوله تعالى : ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة** . . ﴾ ثم استثنى الله منهم القلة المستقيمة بهذه الآية .

---

(١) تفسير ابن جرير ٥/١٢٤ ، ولباب النقول ١ / ٨٠ .

(٢) النساء ١٦٢ .　　(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٥٨٤ .

١٢ ـــ وقوله تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله . . .** ﴾[1] الآية فقد أمر الله أهل الكتاب بالإيمان بالله ورسله ومنهم محمد ﷺ .

١٣ ـــ وقوله : ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[2] .

فقد أخبر الله فى هاتين الآيتين أن محمداً ﷺ مرسل إلى أهل الكتاب ـــ كما هو مرسل لغيرهم ـــ وأن كتابه أنزل لهدايتهم كما أنزل لهداية غيرهم .

١٤ ـــ وقوله : ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير** ﴾[3] .

فالمراد بالرسول فى هذه الآية هو محمد ﷺ ، لأنه هو الذى جاء على فترة من الرسل .

١٥ ـــ وقوله تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل** ﴾[4] فهذا أمر من الله له ﷺ ليبلغه أهل الكتاب ، وهو دليل قاطع على رسالته لهم .

١٦ ـــ وقوله : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[5] .

---

(١) النساء ١٧١ .
(٢) المائدة ١٥ ، ١٦ .
(٣) المائدة ١٩ .
(٤) المائدة ٧٧ .
(٥) الصف ٦ ، ٧ .

والمعنى : واذكر حين قال عيسى بن مريم : يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما تقدمنى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى إليكم وإلى جميع البشر اسمه أحمد ، فلما جاءهم الرسول المبشر به وهو محمد ﷺ بالآيات الواضحات والبراهين المعجزات قالوا : هذا الذى جئتنا به سحر بين ، ومن أشد ظلماً ممن اختلق على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام دين الحق والخير والله لا يهدى القوم المصرين على الظلم

١٧ ــ وقوله : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ [١] .

ومن السنة :

١ ــ مارواه الشيخان عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم وكان النبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة » [٢] .

٢ ــ وما رواه مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون » [٣] الرعب : الخوف يقذفه الله فى قلوب أعدائه ﷺ ، فيكون من ذلك نصره وهزيمتهم .

٣ ــ وعن أنس بن مالك أن ضمام بن ثعلبة قال للنبى ﷺ : « أسألك بربك ورب من قبلك الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : اللهم نعم .. » الحديث رواه البخارى [٤] .

٤ ــ وما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى [٥] قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ... » [٦] الحديث .

---

(١) الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٢) اللؤلؤ والمرجان ١ / ١٠٤ .
(٣) ق ٥ / ٥ .
(٤) ق ١ / ٤٢ .
(٥) ق ٥ / ٣ .
(٦) المراد جميع الناس .

٥ ــ وقوله ﷺ : « أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة . . » الحديث رواه أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده[١] .

٦ ــ وقوله ﷺ :«من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تخفروا الله فى ذمته » رواه البخارى عن أنس بن مالك[٢] ــ ذمة الله : أمانته وعهده . فلا تخفروا الله : فلا تنقضوا عهده وتغدروا .والحديث يدعو الناس جميعاً عربهم وعجمهم من أهل الكتاب وغيرهم إلى الدخول فى الإسلام ، ويبين أنه لا ينجو من عذاب الله ويحفظ حرمته إلا من شهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وصلى صلاة المسلمين ، واستقبل قبلتهم ، وأكل ذبيحتهم ، وانقاد لشريعتهم .

٧ ــ وقوله ﷺ : « والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » رواه مسلم عن أبى هريرة[٣] .

ومعنى قوله « لا يسمع بى أحد من هذه الأمة » أى ممن هو موجود فى زمنى وبعدى إلى يوم القيامة ، فكلهم يجب عليهم الدخول فى طاعته ، وإنما ذكر اليهودى والنصرانى تنبيهاً على من سواهم ، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب ، فإذا كان هذا شأنهم مع أنهم لهم كتاب فغيرهم ممن لا كتاب لهم أولى .

٨ ــ وما رواه ابن عباس أن معاذاً قال : « بعثنى رسول الله ﷺ قال : « إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » رواه الشيخان[٤] .

٩ ــ ومارواه أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « يا معشر اليهود ،

---

(١) المسند جـ ١٢ حديث ٧٠٦٨ .   (٣) فى ٢ / ١٨٦ .
(٢) فى ١ / ١٧٤ .   (٤) واللفظ لمسلم فى ١ / ١٩٦ ، والبخارى فى ٢ / ٢٣٩ .

ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً وإنى جئتكم بحق فأسلموا » قالوا : ما نعلمه ، قالوا للنبى ﷺ . قالها ثلاث مرات . . » الحديث رواه البخارى(١) .

١٠ ــ وما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ قال : بينما نحن فى المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « انطلقوا إلى يهود » فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس فقام النبى ﷺ فناداهم « يا معشر يهود ، أسلموا تسلموا » فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ، فقال : « ذلك أريد » ، ثم قالها الثانية ، فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ، ثم قال الثالثة ..» الحديث رواه الشيخان(٢) بيت المدراس : موضع قراءتهم التوراة .

١١ ــ وما رواه أنس أن نبى الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر ، وإلى النجاشى ، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى ، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه النبى ﷺ رواه مسلم(٣) .

١٢ ــ وقوله ﷺ لعلى ــ حين أرسله لقتال أهل خيبر من اليهود ــ : « على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم ، فوالله لأن يُهْدَى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم » رواه الشيخان(٤) .

١٣ ــ وقوله ﷺ فى كتابه إلى هرقل : « أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك اسم الأريسيين(٥) » الحديث رواه الشيخان عن ابن عباس عن أبى سفيان(٦) .

١٤ ــ وما رواه أنس رضى الله عنه قال : كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ فمرض فأتاه النبى ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له : « أسلم فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له : أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم . فخرج النبى ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذى أنقذه من النار » رواه البخارى(٧) .

---

(١) ف ٥ / ١٦٢ .
(٢) اللؤلؤ والمرجان ٢ / ٢١٤ .
(٣) ف ١٢ / ١١٢ .
(٤) اللؤلؤ ٣ / ١٣٢ ، وحمر النعم : أحسنها .
(٥) الفلاحين .
(٦) اللؤلؤ والمرجان ٢ / ٢٢١ .
(٧) ف ٢ / ١٩٨ .

١٥ ـــ وما قاله ابن هشام(١) : « فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه ، وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام :

فبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ملك الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية ، وبعث عمرو بن العاص السهمى إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى الأزديين ملكى عمان ، وبعث سليط بن عمرو أحد بنى عامر بن لؤى إلى ثمامة بن أثال ، وهوذة بن على الحنفيين ملكى اليمامة ، وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العَبْدى ملك البحرين ، وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك تخوم الشام ، وبعث شجاع بن وهب إلى جبلة بن الأيهم الغسانى ، وبعث المهاجر بن أبى أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن » .

١٦ ـــ وما جاء فى ابن هشام أيضاً أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقال لهم : « إن الله بعثنى رحمة وكافة ، فأدوا عنى يرحمكم الله ، ولا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم »(٢) .

ولهذا قال ابن كثير(٣) : « وفى الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ ، بعث كتباً يدعو إلى الله ملوك الآفاق ، وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم ، كتابيّهم وأميهم امتثالاً لأمر الله له بذلك . . » .

وهكذا : تتابعت الآيات وتوالت البينات على أن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ ، وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ورحمة للعالمين : جناً أو إنساً ، عرباً أو عجماً ، أهل كتاب أولاً ، الموجودين منهم حين البعثة ، ومن سيوجد إلى يوم الدين وعلى أن الشريعة المحمدية ناسخة لجميع ما تقدمها من الشرائع السماوية ، إذ لا معنى لعموم بعثته ﷺ ، وتنزيل القرآن الكريم هدى للعالمين إلى يوم الدين

---

(١) فى سيرته ٤ / ١٨٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) فى تفسيره ١ / ٣٥٤ .

إلا نسخ الشريعة المحمدية لجميع الشرائع السابقة وقد صار ذلك معلوماً من دين الإسلام بالضرورة ، فمنكره كافر ومخلد فى النار ، وبئس القرار .

وقد مر بك ستون نصاً قطعى الثبوت والدلالة على شمول الرسالة المحمدية لأهل الكتاب ، منها سبعة وعشرون نصاً على شمولها للعالمين ولجميع البشر ، وهم منهم ، وثلاثة وثلاثون نصاً موجهاً لأهل الكتاب رأساً على أنى تركت نصوصاً أكثر من التى ذكرتها خشية الإطالة ، فمن لم يقتنع بما ذكرت فهو مكابر فى الحق مجادل بالباطل .

فدعوى اليهود والنصارى عدم نسخ شريعة القرآن لشريعتهم أمام هذه النصوص القاطعة والمتواترة دعوى باطلة ، وصدق الله : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾[1] .

وما دفع أهل الكتاب إلى ذلك إلا حقدهم وحسدهم للنبى ﷺ ليصلوا بذلك إلى نفى نبوته وإنكار رسالته كما سبق ، وحرصاً على جاههم وحظوظهم فى هذه الحياة ، وقد حكى الله ذلك عنهم فى آيات كثيرة سبق بعضها ويأتى الكثير منها ، وما يؤكد ذلك من السنة المحمدية والسيرة النبوية .

على أن وقائع التاريخ فى ماضيه وحاضره ناطقة بذلك . والمعركة بين الإسلام وأهل الكتاب وأشياعهم تدور رحاها فى هذا الوادى ، وادى الحقد والحسد منذ البعثة المحمدية حتى الآن ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[2] .

أفلا يرعوى هؤلاء القوم بعد تلك البراهين الساطعة والأدلة القاطعة المتواترة بعموم الرسالة المحمدية ونسخها لجميع الشرائع السماوية ويقلعوا عن غيهم وعنادهم ، وعن حقدهم وحسدهم ، وحرصهم على مظاهر الحياة ، ويخشوا أن ينفذ الله فيهم تهديده ، وينزل بهم وعيده ، كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا** ﴾[3] .

---

(١) آل عمران ٨٥ .
(٢) التوبة ٣٢ .
(٣) النساء ٤٧ .

المبحث السابع

دحض بعض أباطيل البابا شنودة

أما قول البابا شنودة : « من المحال أن يكون ناسخاً لهما ـــ أى للتوراة والإنجيل ـــ وفى نفس الوقت يدعو إلى الإيمان بهما ، ويحذر من إهمال ذلك » .

فجوابه أننا نؤمن بأن شريعة القرآن قد نسخت شريعة التوراة والإنجيل ، وكل الشرائع السابقة كما سبق فى النصوص الكثيرة المتواترة القطعية الدلالة والثبوت التى تقدمت ، ومع ذلك نؤمن إيماناً جازماً بأنها نزلت من عند الله على رسله ، ثم نسخت أحكامها ، فالإيمان بنسخ شريعة لا يتعارض مع الإيمان بنزولها من عند الله ، ثم بنسخها بعد استنفاد أغراضها .

والقرآن مصدق لما جاء من عند الله من الكتب السابقة ، ولكنه غير مصدق لما حرف منها أو بدل ، فمن المستحيل أن يكون القرآن مصدقاً لما يدعيه النصارى من أن عيسى عليه السلام هو الله ، وهو القائل : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾[1] ومن المستحيل أن يكون مصدقاً لتركيب الإله من ثلاثة أقانيم ، وهو القائل : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد** ﴾[2] .

ومن المستحيل أن يكون مصدقاً بأن عيسى عليه السلام ابن الله على الحقيقة كما يدعى النصارى ، وهو القائل ـــ موبخاً لليهود والنصارى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون[3] قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾[4] .

---

(١) المائدة ٧٢ .

(٢) المائدة ٧٣ .

(٣) يشابهون .

(٤) التوبة ٣٠ .

وأما زعم المسيحيين «أن الدين الناسخ لما قبله إنما هو المسيحية ، فيجب أن تنفرد بالبقاء والسيادة » فهذا زعم واضح البطلان . ومكابرة فى الحق داحضة بما تقدم من الآيات والأحاديث النبوية المتواترة ، ولأن خصوص رسالة عيسى ـــ عليه السلام ـــ وعدم عالميتها منصوص عليه فى القرآن والإنجيل ـــ إن كانوا يؤمنون بما فيهما ـــ فى آيات كثيرة منها :

١ ـــ قوله تعالى ـــ عن عيسى عليه السلام ـــ : ﴿ **ورسولاً إلى بنى إسرائيل** ﴾[1] .

٢ ـــ وقوله تعالى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إلى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾[2] .

٣ ـــ وقول المسيح ـــ عليه السلام ـــ فى إنجيل متى ١٥ « ٢٤ » : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » .

٤ ـــ وقوله لتلاميذه فى نفس هذا الإنجيل ١٠ « ٥ ، ٦ » : « إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرىّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » .

---

(١) آل عمران ٤٩ .

(٢) الصف ٦ .

المبحث الثامن

البراهين العقلية والعلمية
على عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها

تقوم البراهين العقلية الساطعة ، والأدلة العلمية القاطعة التى لا تحصى ولا تعد على أن الإسلام هو الدين العالمىّ الخالد ، والناسخ لغيره من الشرائع ، فمن ذلك :

١ ـــ أنه من المقطوع به أن القرآن معجز فى مبناه ومعناه ، فى أسلوبه وهداه لجميع الثقلين على امتداد الزمان والمكان . وذلك برهان عالميته وخلوده ونسخه لغيره ، وإلا فلا معنى لتحديه للإنس والجن على امتداد الزمان ، واختلاف المكان .

أما أنه معجز فى مبناه فيكفى للتدليل على ذلك أنه أعجز العرب ، فلم يتصدوا لمعارضته مع كثرتهم وشدة عنادهم له ، ووصولهم إلى القمة فى الفصاحة والبلاغة والأدب ، واشتهارهم بذلك . وتكاتفهم ضده ، وحرصهم على معارضته .

وأنه أعجز بالعرب غير العرب فى ذلك ، وبقى فى فم الدنيا وعلى مسرح الحياة ينادى العالم كله إنسه وجنه أن يأتوا ولو بسورة من مثله ، فلم يفعلوا ولن يفعلوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

ولنستمع إليه ، وهو يتحدى معارضيه ، فى قوة واستفزاز ، وتحريض على بذل نهاية الجهد ، والطاقة فى معارضته وتحديه ـــ فيقول : ﴿ **وإن كنتم فى ريب**

مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم[1] من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[2] .

ومن الإعجاز فى الآية الإخبار عن الغيب ــ وهو عجزهم وعدم قدرتهم على المعارضة ــ إخبار المتمكن مما يقول ويتحدى بقوله ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾ فإنهم لم يفعلوا ولو فعلوا لظهر واشتهر ؛ لأن الطاعنين فى القرآن كانوا ــ ولا يزالون ــ أكثر من المدافعين عنه ، ولو كان هناك أدنى شك فى عدم نجاح التحدى ما دعاهم إلى المعارضة مخافة أن يظهر معارض يبطل تحدى القرآن .

وحيث كان التحدى بالقرآن تحدياً للإنس والجن وعلى امتداد الزمان والمكان فإن لازم هذا التحدى أن يكون الإنس والجن مطالبين جميعاً بما يدعو إليه الرسول محمد ﷺ الذى بيده معجزة القرآن ، فمن استجاب لدعوته فهو من المؤمنين ، ومن أبى فهو من الكافرين .

بذلك وبآلاف الأدلة وراء ذلك ثبت أن معجزة القرآن حق ، وأنها عالمية وخالدة كما قال تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾[3] لأن التحدى صدر للعالم كله إنسه وجنه على مدى الدهور والعصور ، بخلاف معجزات الرسل السابقين ، فقد كانت خاصة بأقوامهم ، وانتهت بانتهائهم ، ولم يعد لها أثر بعدهم وتحقق أن هذا القرآن مصون عن الشك ، فلا ريب فيه ، ولا يأتيه الباطل من أية ناحية من نواحيه ، كما قال تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه** ﴾[4] .

وثبت أن الإسلام ناسخ لغيره كما جاء فى القرآن المتحدى به ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾[5] .

وثبت أن محمداً حق ، وأنه جاء بالحق ، ودعا إلى الحق ، وثبت على الحق حتى آتاه اليقين ، وما أروع قول رب العالمين ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل**

---

(1) نصراءكم .
(2) البقرة ٢٣ ، ٢٤ .
(3) أول الفرقان .
(4) البقـرة ٢ .
(5) آل عمران ٨٥ .

وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا ﴾[1] .

- **وأما أنه** معجز فى معناه وهداه فإن عقائده مؤيدة بالبرهان ، ويتقبلها الجنان ، ويطمئن لها الوجدان ، وتقضى على عبادة الإنسان للإنسان . فضلاً عن عبادة الشيطان والأوثان . وعباداته تزكى النفوس ، وتصفى القلوب ، وتطهر من الآثام ، وتنشر المودة والمحبة بين المسلمين ، وتجعل المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، فلا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله .

وآدابه تغرس فى النفوس ملكات الفضائل ، وتطبع فيها كريم الأخلاق . ومحاسن الصفات ، وتتوثق بها عرى المجتمع ، وتفرض المساواة بين جميع الناس فى الحق ، لا فرق بين حر وعبد ، وغنى وفقير ، وأمير ومأمور ، وتمنع الإكراه فى الدين ، والتعالى على المؤمنين .

ومبادئه الأساسية تدعو إلى العلم واحترام العقل ، وحرية الإرادة والفهم ، والعمل للدنيا والآخرة ، وتصون الدين والأنفس والأعراض والأموال .

وتشريعه السياسى والقضائى يجمع بين العدل والرحمة وإخضاع العباد لتشريع الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجعل التقنين فى السياسة لأولى الأمر من الأمة ، فى ضوء الكتاب والسنة ، وما وضعه من القواعد العامة ، والنظم الشاملة ، والأسس الكاملة . وأن تاريخ البشرية لم يعرف كتاباً ألف بين أمة مشتتة شيعاً وأحزاباً ، ومذاهب وأدياناً ، وقبائل وعشائر ، تعيش على السلب والنهب ، ومحاربة القوى للضعيف ، ولا تخضع لسلطان أحد مهما كان ، فألف بينها ، وجمع شتاتها على أسباب القوة ومعانى الخير والعزة ، وجعلها خير أمة أخرجت للناس فى أسرع وقت عرف فى تاريخ أمة كما فعل القرآن الكريم فى الأمة العربية .

لقد نقلها من الضلالة إلى الهدى ، ومن البداوة إلى الحضارة ، ومن الجهالة إلى العلم ، ومن الانطلاق مع الهوى إلى الخضوع لتعاليم الله وحكمه ، ومن التفرق والمحاربة والشقاق إلى التآلف والاتحاد والوفاق ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الذل إلى العزة ، ومن التخاذل إلى التناصر ، ومن الحرب فى سبيل الشيطان إلى الجهاد فى سبيل الرحمن ، وما أصدق قوله تعالى : ﴿ **هو الذى بعث فى**

---

(١) الإسراء ١٠٥ .

الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم[1] ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[2] .

ومن إعجاز معناه الإعجاز العلمى ، ويكفى للتدليل عليه أن العقل الإنسانى مهما بلغ من الرقى والتقدم ، ومهما حصّل من العلوم والحقائق السماوية والأرضية لم يستطع ولن يستطيع أن ينقض من حقائقه شيئاً مهما صغر ، أو يتعارض ما وصل إليه مع ما جاء به ، لأن الذى أنزله هو واضع نواميس هذا الكون وسننه ، ويعلم كل الأسرار والحكم ، كما قال تعالى : ﴿ **قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما** ﴾[3] .

فمن المحال أن يتعارض قوله سبحانه مع علمه أو يتناقض كلامه مع تكوينه وصنعه ، ولأن التحدى بالقرآن أسلوباً وهداية وعلماً قائم ولا يزال قائماً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وصدق الله : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[4] .

ومأأصدق ما قاله فضيلة الأستاذ نديم الجسر مفتى لبنان الشمالى[5] : إن إعجاز القرآن لا يقوم على بلاغته فحسب كما يظن البعض ، ولكن يقوم أيضاً على ما فيه من آيات معجزات تحمل لعلماء الطبيعة أسراراً من حقائق الطبيعة ، ولعلماء الاجتماع أسراراً من نواميس المجتمع ، وللفلاسفة أسراراً من حقائق الوجود ، ولعلماء التاريخ أسراراً من حقائق التاريخ . وللحكماء أسراراً من جواهر الحكمة ، ولعلماء الأخلاق أسراراً من دقائق الأخلاق ، ولعلماء النفس أسراراً من قواعد علم النفس ، ولعلماء التربية أسراراً من أساليب التربية .

وسر الإعجاز فى تلك الآيات أنها نزلت على رسول الله محمد النبى الأمى ، وليد البيئة الأمية قبل قرون طويلة من انكشاف أسرار العلم التى وصلنا إليها اليوم ١٠ هـ .

---

(١) يطهرهم من أدناس الجاهلية .

(٢) الجمعة ٢ .

(٣) الفرقان ٦ .

(٤) فصلت ٤٢ .

(٥) فى بحثه « القرآن فى التربية الإسلامية » ، المقدم للمؤتمر الثالث ص ٣٣ .

فكتاب عالمي المعجزات خالدها يقطع البرهان بعالميته ونسخه لغيره ، وبقائه بقاء الأرض والسموات . وإلا فلا معنى لخلود معجزاته وحياتها ، وموت معجزات غيره واختفائها .

٢ ــ تحقق بالبراهين العقلية ، والأدلة العلمية اليقينية إعجاز القرآن الكريم لجميع العالمين ، وما تحقق بالبرهان العقلي واليقين العلمي فهو الثابت ثبات الحق والخالد خلود الدهر ، وهو كتاب العالمين والناسخ لغيره من كتب السابقين .

٣ ــ ثبت بالأدلة العقلية القاطعة ، والبراهين العلمية الساطعة إعجاز القرآن الكريم وأنه كلام رب العالمين ، فوجب قبول كل ما جاء فيه ، ومما جاء فيه أن الله نزله للعالمين ونسخ به ملل السابقين .

٤ ــ من المعلوم بالضرورة فى سائر الشرائع والقوانين السماوية والأرضية أن المتأخر هو الذى يكون عاماً وشاملاً وناسخاً للمتقدم ، وليس العكس ، فالكتاب العالمى الخالد الناسخ لغيره هو القرآن الكريم وليس التوراة أو الإنجيل .

٥ ــ إن الكتاب العالمى الخالد الناسخ لغيره لا بد أن تكون معجزته معه لا تفارقه ، وأن تكون عالمية وخالدة مثله حتى يستطيع كل إنسان فى أى مكان وزمان أن يجدها إذا طلبها وأن ينظر فيها بنفسه ، ويرجع فى أمرها إلى عقله ، فيجد فيها البرهان القائم على صدق الرسول ، وصدق ما يدعو إليه ، وتلزمه وتلزم الناس جميعاً فى أى مكان وزمان الإيمان بهذا الكتاب .

ولم يتحقق ذلك إلا للقرآن الكريم . فهو الكتاب الوحيد الذى معه برهان إعجازه وعالميته وخلوده ، ونسخه لغيره .

٦ ــ إن الرسالات السماوية السابقة على رسالة الإسلام جاءت فى تقدير الله لأمد محدود بدليل تتابع الرسل وتواليهم حتى ختموا برسالة محمد ﷺ ، فلم تشتمل على كل مطالب الحياة المتجددة أبداً ، أما رسالة محمد ﷺ ، فهى الصورة الأخيرة الشاملة والكاملة والصالحة حتى نهاية الزمان .

فأى الرسالات أحق بالعالمية والخلود ؟ وأى كتاب أحق بنسخه لغيره ؟ الكتاب الذى لم يأت كتاب سابق بمثله فى بيان أصول العقائد وقواعد الدين ، وقوانين الشرائع وسياسة الشعوب والقبائل ، وسنن الاجتماع ونواميس العمران ، وطبائع

الشعوب والأقوام على مدى القرون والأزمان ، مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال ، أم الكتاب الذى اقتصر على منهج واحد لقوم بأعيانهم ولفترة معينة ؟ .

٧ ـــ بينما كان المسيح ـــ عليه السلام ـــ أثناء رسالته فرداً من أفراد المجتمع الإسرائيلى الخاضع للدولة الرومانية مجرداً من أية صفة وسلطة فعالة فى النظام السياسى القائم ، وكان دينه دعوة للأمور الروحية والأخلاقية ، وللسلوك الفردى كان رسولنا محمد ﷺ إماماً دينياً ، وقائداً عسكرياً ، ومهيمناً على كل شئون أمته السياسية والاجتماعية والمالية ، وكان دينه كاملاً ، وكتابه دستوراً شاملاً لكل ما تحتاج إليه الأمة من مبادىء وتشريعات ، ومسايراً للحياة فى شتى عصورها ومواطنها المختلفة .

وشريعته تحيط تفصيلاً بكل شأن من شئون الأمة ، وبكل منهج من مناهجها ولا يحتاج كتابه على مر العصور وكر الدهور إلى بيان من غيره كالكتب السابقة ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾[١] .

وقوله : ﴿ **إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾[٢] .

٨ ـــ إن من أهم أركان الإيمان فى الإسلام الإيمان بجميع كتب الله ورسله بلا تفرقة بين أحد منهم ، قال تعالى خطاباً لأمة محمد ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾[٣] وقال : ﴿ **وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾[٤] وقال : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا** ﴾[٥] .

واليهود لا يؤمنون بعيسى ومحمد وكتابه ، ويجرحون عيسى وأمه ـــ عليهما السلام ـــ ويقولون عليهما بهتاناً عظيما ، والنصارى ينكرون نبوة محمد ﷺ وكتابه ، ويقولون إن دينه مفترى[٦] كما سبق بيانه .

(١) النحل ٨٩ .
(٢) النمل ٧٦ ، ٧٧ .
(٣) آل عمران ١١٩ .
(٤) العنكبوت ٤٦ .
(٥) البقرة ٢٨٥ .
(٦) ينظر تفسير ابن كثير ١ / ٥٧٢ .

فأى دين أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيره ؟ دين من يؤمنون بجميع كتب الله ورسله بلا تفرقة بين الجميع ؟ أم دين من يؤمنون ببعض كتب الله ورسله ، ويكفرون بالبعض الآخر ؟ .

• إن هؤلاء لا دين لهم حتى يقارن بغيره ، بل هم الكافرون حقاً كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا** ﴾[1] .

قال ابن كثير[2] : أى كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره وبمن أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه أو نظروا حقّ النظر فى نبوته .

٩ ــ أى الكتب أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيرها ؟ القرآن الكريم الذى يمجد جميع رسل الله ويرفعهم إلى القمة فى الفضل والكمال الإنسانى والقدوة الحسنة ، ويأمرنا بالاقتداء بهم ، فيقول تعالى ــ بعد ذكر أسمائهم وما حباهم الله به من فضل ــ : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾[3] ؟ .

أم التوراة التى تحكى أن ابنتى لوط سقتا أباهما خمراً حتى غاب ، واضطجعت كل منهما معه فى ليلة لتحمل منه ، فحملت كل منهما من أبيها ، وهو لا يعلم باضطجاعها ولا بقيامها[4] ؟ .

١٠ ــ أى الكتب أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيرها ؟ القرآن الكريم الذى يدعو إلى التوحيد الخالص ، ويذكر عن كتب الله السابقة ورسله أنهم ما أرسلوا إلا ليدعوا أقوامهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؟ أم التوراة التى تحكى عن هارون ــ عليه السلام ــ أنه صنع لبنى إسرائيل عجلاً جسداً من ذهب على أنه الإله المعبود[5] ؟ .

١١ ــ أى الكتب أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيرها ؟ القرآن الكريم

---

(١) النساء ١٥٠ ، ١٥١ .
(٢) فى تفسيره ١ / ٥٧٢ .
(٣) الأنعام ٩٠ .
(٤) تكوين ١٩ « ٣٠ / ٣٦ » .
(٥) خروج ٣٢ « ١ : ٦ » .

الذى يقول عن الله : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾[1] ويقول : ﴿ **ليس كمثله شىء** ﴾[2] أم إنجيل يوحنا الذى جاء فيه « أنا والآب واحد »[3] .

١٢ ــ أى الأديان أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيرها : الدين الإسلامى الذى جاء فى كتابه : ﴿ **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[4] ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾[5] أم الدين المسيحى الذى من أركان الإيمان فيه ما يردده المسيحيون داخل الكنائس خلف القسس « نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور . إله حق . من إله حق . مولود غير مخلوق . مساو الآب فى الجوهر . كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان ﴾[6] .

١٣ ــ أى الكتب أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيرها : القرآن الكريم الذى لا اختلاف فيه ولا تناقض فى معانيه ، بل يصدق بعضه بعضاً كما قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا** ﴾[7] أم الإنجيل الملىء بالاختلاف والتناقض ، ففى إنجيل متى ــ وهو عمدة الأناجيل الأربعة ١٦ « ١٩ : ٢٠ » يقول السيد المسيح لبطرس أحد الحواريين الإثنى عشر : « وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات » ثم يقول فى نفس الإصحاح ٢٣ لبطرس : « اذهب عنى يا شيطان أنت معثرة لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » فكيف يرفع السيد المسيح حواريه بطرس إلى أعلى عليين ، ثم يلقى به فى منازل الشياطين فى أسفل سافلين ؟ .

١٤ ــ إن تشريع القرآن تشريع محفوظ كما أن صاحبه ﷺ معصوم فيما يبلغه عن الله ، وكما كانت أمته فيما اجتمعت عليه معصومة ، ولا يستطيع أن ينكر ذلك أحد عنده ذرة من عقل .

وحيث كان الأمر كذلك كان تشريع القرآن هو العالمى الخالد والناسخ لغيره

---

(١) الأنعام ١٨ .
(٢) الشورى ١١ .
(٣) « ١٠ / ٣٠ » .
(٤) الإخلاص .
(٥) الأعراف ٥٤ .
(٦) الله واحد أم ثالوث للأستاذ محمد مجدى مرجان ٢٥ .
(٧) النساء ٨٢ .

من الشرائع بخلاف غيره من الكتب والتشريعات التى حرف بعضها ، ونسى معظمها ، وطمست معالمها .

١٥ ــ إن القرآن الكريم يعلل أحكامه وتشريعاته بمصالح العباد ، ويسير مع منافعهم حيثما سارت وأنى وجدت ، فلا ضرر فى تشريعاته ولا ضرار ، ولا عسر ولا حرج ولذا سمى المسلمون التشريع الإسلامى ــ منذ فجر حياتهم ــ بالسياسة الشرعية ، ومفهوم السياسة هو المرونة والسير مع المصالح المرسلة ومراعاة العرف والمكان والزمان كما يأتى تفصيله .

وما كان كذلك كان متمشياً مع فطر الناس ومناسباً للتطور ، وصالحاً لجميع الأقوام فى جميع الأزمان والأمصار ، وكان هو العالمى الخالد والناسخ لغيره من الشرائع الجامدة على شيء معين ، والواقفة عند أمر لا تتعداه .

١٦ ــ ثبت بالأحاديث الصحيحة المسندة التى تقدمت فى هذا الفصل أن الرسول محمداً ﷺ دعا جميع الملوك والحكام إلى الإسلام ، وقال لأصحابه : إن الله بعثنى رحمة وكافة فأدوا عنى يرحمكم الله . ولم يثبت أن عيسى ــ عليه السلام ــ دعا إلى دينه غير الإسرائيليين . فأى الدينين أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيره ، الإسلام أم المسيحية ؟ .

١٧ ــ إن تشريع القرآن يسير مع العقل ، فلا يحكم إلا بما يقره ، ولا يدعو إلا لما يوافقه ولا يأمر إلا بما يستحسنه ، ولا ينهى إلا عما يستقبحه ولا يحل إلا ما يقبله ولا يحرم إلا ما يستخبثه ولا يكلف إلا ما يجوزه ، وما سار مع العقل فهو الثابت ثبات الحق والخالد خلود الدهر ، فيقول تعالى ــ متحاكماً إلى العقل ــ : **﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾**(١) **﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾**(٢) .

ويقول ــ محتجاً على بطلان عبادة غير الله بالأدلة العقلية التى تقبلها الفطر السليمة والعقول القويمة : **﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون * أأتخذ**

---

(١) الرحمن ٦٠ .   (٢) ص ٢٨ .

من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إنى إذاً لفى ضلال مبين ﴾[1] .

ويقول تعالى ـــ ضارباً لهم مثلاً من عقولهم يدل على قبح عبادتهم لغير الله ، ومبيناً أن ذلك مستقر قبحه وفساده فى كل عقل : **﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾**[2] وهل فى العقل أقبح وأنكر من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلقوا ذباباً وهو أضعف المخلوقات شأناً .

ويقول تعالى : **﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم**[3] **والأغلال**[4] **التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه**[5] **ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾**[6] .

فقد ذكر الله فى هذه الآية أن النبى الأمى يأمر أتباعه بالشيء المعروف حسنه لكونه معروفاً خيره وفضله عند العقل ، وينهاهم عن الشيء المنكر لكونه منكراً فعله وأثره لدى العقل ، ويحل لهم الطيبات لأن العقول تقبلها ، والنفوس تستسيغها ، ويحرم عليهم الخبائث لأن العقول لا تقبلها والنفوس تعافها ، ويضع عنهم ما يشق عليهم القيام به .

وهكذا ما أمر الله فى هذه الآية إلا بما هو معروف حسنه فى نفسه بالخير فكساه الأمر الإلهى خيرا على خير ، وما نهى الله عن المنكر إلا لكونه مستقبحاً فى نفسه وزاده النهى قبحاً على قبح ، وما أحل إلا ما هو طيب فى نفسه فكساه الإحلال طيباً على طيبه فصار طيباً من وجهين : الذاتيةوالإحلالية ، وما حرم إلا ما هو خبيث فصار خبيثاً من وجهين كذلك ، الذاتية والتحريمة . وقال تعالى : **﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير**

---

(1) يس ٢٢ : ٢٤ .
(2) الحج ٧٣ ، ٧٤ .
(3) عهدهم بالقيام بأعمال ثقال .
(4) التكاليف الشاقة فى التوراة .
(5) وقروه وعظموه .
(6) الأعراف ١٥٧ .

الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾[1] فهذه الأمور التى حرمها الله فواحش فى نفسها لا تستحسنها العقول فتعلق التحريم بها لفحشها ، فإن تعلق الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة المقتضية له ، وهذا دليل قائم فى جميع الآيات المذكورة ، فدل على أن الله حرم الفواحش لأنها فواحش ، وحرم الخبيث لكونه خبيثاً وأمر بالمعروف لكونه معروفاً ، ونهى عن المنكر لكونه منكراً ، ولم يفعل شيئاً من ذلك عبثاً ، لا لحكمة .

وتحريم الإثم والبغى دليل على أن هذا الوصف ثابت له قبل التحريم ، وتحريم الشرك بلا حجة دليل على بطلانه ، وتحريم القول على الله بلا علم دليل على نهاية قبحه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا** ﴾[2] .

فنهى الله عن نكاح زوجة الأب معللاً بأنه شديد القبح ، ومبغوض مستحقر جداً وسىء السبيل ، وقوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾[3] .

فأى الكتب أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيره ؟ القرآن الكريم الذى نزّله الله على خاتم رسله بعد أن بلغ عقل الإنسانية فى التطور والتكامل الحد الذى تعتمد عليه فى معرفة الحق والخير . ومكارم الأخلاق . والذى جعل الله تشريعه يسير مع العقل الذى منحه السلطان الأعلى فى فهم النصوص واستنباط الأحكام فى كل قضية من قضايا الدين من أدناها إلى أعلاها وجعل حكمه مقدماً على ظاهر النص عند التعارض أم غيره من الكتب التى تجعل النص مقدماً على مقتضيات العقل وحاكماً عليه ؟ .

وهكذا قامت البراهين العقلية الساطعة والأدلة العلمية القاطعة على عالمية الرسالة المحمدية ، ونسخها لغيرها من الشرائع السماوية ، وفى ذلك إقناع لمقتنع . وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) الأعراف ٣٣ . (٢) النساء ٢٢ . (٣) الإسراء ٣٢ .

المبحث التاسع

دحض افتراءات البابا شنودة حول إعجاز القرآن وخلوده

يدعى النصارى أن القرآن الكريم قد وضعهم فى مركز الإفتاء للرسول ﷺ فى الدين الإسلامى .

ففى الرسالة المطبوعة بعنوان « بين القرآن والمسيحية » قال البابا شنودة فى ص ٤ منها :

ولم يقتصر القرآن على الأمر بحسن مجادلة أهل الكتاب ، بل أكثر من هذا : وضع القرآن النصارى فى مركز الإفتاء فى الدين؛ فقال :

﴿ **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك** ﴾ سورة يونس ٩٤ .

وقال أيضاً : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ سورة الأنبياء ٧ .

وللرد على ذلك أقول :

لقد جوز البابا شنودة على الرسول ﷺ الشك فى دينه ، وجعل الذى يزيل شكه ويشفيه منه هم جماعة النصارى ، كما جوّز أن يكون القرآن غير واف بشئون المسلمين وإن البابا شنودة بهذا قد جاء بكبرى الكبائر ، وجريمة الجرائم ، حيث ادعى أن نبينا محمداً ﷺ كان يتلقى دينه عن الله ، وعن جماعة أهل الكتاب ، وأن أهل الكتاب كانوا له بمثابة دار الإفتاء ومجلس التشريع الذى يسانده

ويفتيه فيما يحتاج إليه من أمور الدين ومعضلاته وعويص مسائله ومشكلاته وشئون المسلمين وأحوالهم ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾[١] .

ثم تأمل قوله تجده يتعصب للنصارى والآية لم تذكرهم ، وإنما ذكرت الذين يقرءون الكتاب ، أليس فى ذلك دليل على التعصب والانزلاق فى هاوية الضلال ؟ .

الحقائق الدامغة لما يدعيه

قبل التعرض للآيتين اللتين جاء بهما ظاناً أن فيهما دليلاً على مدعاه أسوق الحقائق الدامغة لما يدعيه والقاطعة بأن الرسول ﷺ لم يستفت أحداً من أهل الكتاب فى أمر من دينه ، فقد كان على بينة من ربه ، ويقين من أمره فأقول :

١ ــ إن الله لا يختار رسله ارتجالاً ، وإنما يختارهم على علم بأهليتهم للرسالة والقيام بأعبائها ، كما قال تعالى : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾[٢] فهم فى الذروة علماً بشئون الرسالة ، وديناً وخلقاً ، وكمالاً فى جميع نواحيهم .

٢ ــ رسل الله ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ معصومون من التلبس بأى أمر يتنافى مع قداسة الرسالة ، لأنهم القدوة الحسنة والمثل العليا لأممهم .

٣ ــ رسل الله يتلقون أمور دينهم ، وما يبلغونه لأممهم عن الله وحده ، ولا يتلقون شيئاً من ذلك عن أحد من البشر .

٤ ــ من المقطوع به أن ما يوحيه الله إليهم يعلمون علماً ضرورياً أنه صادر عن الله سبحانه ولا يتطرق إليهم أى ريب فى ذلك ويبلغونه لأممهم كما أوحاه الله إليهم .

٥ ــ ومن المقطوع به كذلك أن الرسول ﷺ لم يستفت أحداً من أهل الكتاب فى شئون دينه وإنما كان يتلقى تعليماته عن الله وحده كما قال تعالى : ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى** ﴾[٣] وهذا شأنه وشأن غيره من الرسل جميعاً قال تعالى : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده** ﴾[٤] .

---

(١) النور ١٦ .   (٢) الأنعام ١٢٤ .   (٣) النجم ٣ : ٥ .   (٤) النساء ١٦٣ .

ومن يكابر فى هذا فليأتنا بدليل من كتب السيرة النبوية أو السنة المحمدية ، يثبت أن الرسول ﷺ استفتى أهل الكتاب فى أمر من أمور دينه كان يجهله أو يشك فيه حتى استقاه من أهل الكتاب .

ومن الأولى بإفتاء الرسول ﷺ فى شئون دينه ، جبريل الأمين ـــ عليه السلام ـــ عن رب العالمين أم أهل الكتاب عن كتبهم التى نسوا كثيراً منها ، وحرفوا وبدلوا وغيروا فيما بقى والذين كان بعضهم يكتم الحق بغياً وحسداً ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾[(١)] .

٦ ـــ إن الرسول ﷺ لو كان شاكاً فى نبوة نفسه ، أو فيما أنزل إليه من ربه لكان شك غيره فى ذلك أولى ، وهذا يوجب سقوط رسالته بالكلية .

٧ ـــ إن الله تعالى تعهد لرسوله بجمع القرآن فى قلبه وبيانه ، وألا يحتاج إلى أحد فى تشريعه وتبيانه فقال تعالى : ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه** ﴾[(٢)] فكيف يقال بعد هذا إنه كان يرجع إلى أهل الكتاب فى شىء مما جاء فيه ، من تبيان أحكامه أو معانيه ؟ .

٨ ـــ إن القرآن تشريع شامل ، وكتاب كامل من جميع نواحيه ، فلا خلل فى مبانيه ولا معانيه كما قال تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾[(٣)] أى لا ريب فى كونه من عند الله ولا فى إعجازه وبلاغته ، ولا فى علمه وحكمته ، ولا فى شمول تشريعه ودقته ، ولا فى عدالة أحكامه وكمال هدايته ، كما سبق وكما قال تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾[(٤)] .

فكيف يتطرق الشك إلى الرسول ﷺ فى شىء مما جاء فيه ، أو يستفتى فيه غير موحيه ، أو يقال إن أهل الكتاب كانوا مرجعاً له فى شىء من مبانيه أو معانيه ، أو مسهمين فى شىء مما جاء فيه ؟ .

٩ ـــ القرآن الكريم ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم**

(١) البقرة ١٤٦ .
(٢) القيامة ١٦ : ١٩ .
(٣) البقرة ٢ .
(٤) النحل ٨٩ .

خبير ﴾[1] وهو معجز فى جملته وتفصيله ، وهو معجزة الرسول الخالدة التى تحدى بها الإنس والجن ، ولا يزال يتلى فى فم الدنيا معلناً أنه فوق مستوى العالمين : إنسهم وجنهم ، مبنى ومعنى ، وحكمة وعلماً ، وتشريعاً وتقنيناً **﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾**[2]. فهل بعد هذا التحدى يقال : إن القرآن وضع النصارى أو غيرهم فى مركز الإفتاء فى الدين الإسلامى ليأتوا بما لم يأت به ؟ .

١٠ ــ أخبرنا الله تعالى أنه أكمل للمسلمين دينهم ، وأتم عليهم نعمته ، وختم بمحمد ﷺ رسالته ، فقال تعالى : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾**[3] فكيف يقال بعد هذا إن النصارى أسهموا فى تكميل هذا الدين ، وشاركوا فى تشريع رب العالمين ؟ ما هذا التطاول على تشريع من أحاط بكل شيء علما ، وشمل كل شيء حكمة وفضلا ؟ .

١١ ــ وأخبرنا تعالى أن القرآن مهيمن وحاكم وشاهد وأمين على غيره من الكتب السماوية وأنه مرجع لما جاء فيها ، فقال تعالى : **﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾**[4] .

فهل تريدون قلب الحقائق وطمس المعالم ، فتجعلوا أهل الكتاب مرجعاً فى الدين لأمور المسلمين ؟ إن هذا لهو الضلال المبين .

١٢ ــ أخبرنا الله سبحانه أنه نزل القرآن وتعهد بحفظه لنا حتى يكون حجة على العالمين إلى يوم الدين فقال تعالى : **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾**[5] وقال : **﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾**[6] فحفظ القرآن لنا تواتراً ، سماعاً وكتابة ، وكلما تقادم العهد ومرت العصور ازداد حفظاً على حفظ ، فأصبح مسجلاً بالأصوات ، بعد الكتابة والحفظ ويذاع على الدنيا من إذاعات القرآن الكريم فى جميع أنحاء العالم .

---

(١) أول هود .
(٢) الإسراء ٨٨ .
(٣) المائدة ٣ .
(٤) المائدة ٤٨ .
(٥) الحجر ٩ .
(٦) فصلت ٤٢ .

وأخبرنا أنه وكل إليكم حفظ كتابكم فقال : ﴿ **بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء** ﴾(١) فنسيتم الكثير ، وحرفتم فى الباقى ، وغيرتم وبدلتم ، فأيهما أولى بالانقياد له والتحاكم إليه واستفتائه فى أمور الدين ؟ .

١٣ ـــ أخبرنا الله سبحانه أن الرسول ﷺ كان فى أمور دينه وشئون رسالته على بينة من ربه فقال تعالى : ﴿ **قل إنى على بينة من ربى** ﴾(٢) ومن كان كذلك لا يحتاج إلى استفتاء أحد فى شىء من هذا ، فكيف تجوزون عليه الشك والاستفتاء ؟ .

١٤ ـــ أخبرنا الله أن أهل الكتاب الذين لم يسلموا يحبون لنا الشر ويكرهون لنا الخير فقال تعالى : ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾(٣) فكيف نستفتيهم فى أمور ديننا ، وهم لا يفتوننا إلا بما هو شر لنا .

١٥ ـــ كيف تريدون أن نستفتيهم فى شئون ديننا وقد ثبت أنهم يعملون على تكفيرنا بغياً علينا وحسداً لنا ؟ قال تعالى : ﴿ **ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق** ﴾(٤) .

وقال : ﴿ **ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾(٥) .

وقال : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾(٦) أى آمنوا بالقرآن الذى أنزل على محمد واتبعه فيه المؤمنون أول النهار وصلوا معهم واكفروا فى آخره لعلكم تستطيعون بهذا فتنتهم ببث الريب والشك فيهم ، فيرجعوا عن دينهم .

وقال وليم جيفورد بالكراف : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها

---

(١) المائدة ٤٤ .
(٢) الأنعام ٥٧ .
(٣) البقرة ١٠٥ .
(٤) البقرة ١٠٩.
(٥) آل عمران ٦٩ .
(٦) آل عمران ٧٢ .

إلا محمد وكتابه[1] . فقوم يعملون على تشكيكنا فى ديننا وتركنا له أنستفتيهم فى إزالته ؟ .

١٦ ــ كيف تريدون أن نستفتيهم فى أمور ديننا وهم يدعون أن الجنة لهم دون غيرهم ويدعون أن لا دين إلا دينهم ، ولا شرع إلا شرعهم ؟ ، قال تعالى : ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾[2] وقال : ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾[3] .

١٧ ــ كيف يستفتيهم ﷺ فى شئون دينه ، وهم لا يرضون عنه إلا إذا اتبع ملتهم وانقاد لشريعتهم ؟ وقد حذره الله من ذلك فقال : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير** ﴾[4] وقال تعالى حاكياً قولهم : ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله** ﴾[5] أى لا تصدقوا أحداً فى أمور الدين إلا إذا كان منكم ، قل لهم يا محمد : إن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه . فهل يأمره الله بعد ذلك أن يستفتيهم فى أمور دينه بعد أن حذره من اتباعهم ؟ .

١٨ ــ وكيف نستفتيهم فى أمور ديننا وهم الذين يعرفون حقيقة ديننا ورسالة نبينا . ويجحدون ذلك حسداً لنا ، ولا ينقادون لأية آية من كتابنا وقد حذر الله نبينا من اتباع أهوائهم فى أى شىء أشد تحذير ، فقال تعالى : ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون * ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين** ﴾[6] .

ويؤيد ذلك ما قالته أم المؤمنين صفية بنت حيى بن أخطب رضى الله عنها : سمعت

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ٣٧ .
(٢) البقرة ١١١ .
(٣) البقرة ١٣٥ .
(٤) البقرة ١٢٠ .
(٥) آل عمران ٧٣ .
(٦) البقرة ١٤٤ ، ١٤٥ .

عمى أبا ياسر يقول لأبى ــ بعد أن اجتمعا برسول الله ﷺ يوماً كاملاً بقباء فى أول هجرته إلى المدينة ــ أهو هو ؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه بنعته وصفته ؟ قال : نعم والله . قال فماذا فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت .[١] .

١٩ ــ أثبت القرآن أن أهل الكتاب قد ضلوا طريق الحق ، ويريدون إضلالنا لنكون مثلهم فقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا** ﴾[٢] فكيف بعد هذا تدعون أن الله يأمرنا باستفتاء أهل الكتاب ؟ .

٢٠ ــ أخبرنا الله سبحانه ، أن أهل الكتاب اختلفوا فى كتابهم اختلافاً بينا تبعا لأهوائهم ، وأنهم فى شك شديد منه فقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب** ﴾[٣] .

والمعنى : وبالله لقد أعطينا موسى التوراة فاختلف قومه من بعده فى تفسيرها ومعناها اختلافاً بيناً تبعاً لأهوائهم وشهواتهم ، كل يريد إخضاعها لشهواته ، فاختلفوا شيعاً وابتعد الكثير منهم عن الحق الذى جاءتهم به ، ولولا وعد من الله سابق بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لحل بهم فى دنياهم قضاء الله وحكمه ، بإهلاك المبطلين ونجاة المحقين ، كما حل بغيرهم من الأمم ، وإن هؤلاء الذين ورثوا التوراة لفى شك شديد من أمر كتابهم موقع فى الريب والاضطراب ، وقال تعالى فى شأن المسيحيين : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم** ﴾[٤] .

والمعنى : فاختلف الأحزاب والجماعات من بعد موت عيسى وانقضاء أجله فى الدنيا اختلافاً بيناً تبعاً لأهوائهم فقال البعض : إنه إله ، وقال آخرون : إنه ابن الله ، وقال غيرهم : إنه ثالث ثلاثة ، فهلاك شديد للذين كفروا من مشهد يوم

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ١١٩ .
(٢) النساء ٤٤ ، ٤٥ .
(٣) هود ١١٠ .
(٤) مريم ٣٧ .

عظيم . فهل يصح بعد هذا الاختلاف البين والشك المريب فى كتابهم أن يأمرنا الله باستفتائهم ؟ إن فاقد الشيء لا يعطيه .

٢١ ـــ ثبت أن رؤساء اليهود أفتوا مشركى قريش بغير ما يعتقدون صحته ، جرياً وراء مصالح دنيوية ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** ﴾(١) .

فقد أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : « كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، حيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق وأبو رافع والربيع بن أبى الحقيق ، وأبو عمارة وهوذة بن قيس ، وكان سائرهم من بنى النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار اليهود ، وأهل العلم بالكتب الأولى ، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا:دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه . فأنزل الله ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ملكاً عظيما** ﴾(٢) .

معنى المفردات : الجبت : كل ما خضع له الناس من دون الله من شيطان أو ساحر ، أو كاهن . والطاغوت كل ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للطغيان والخروج عن الحق ، من مخلوق يعبد ، أو رئيس يقلد ، أو هوى يتبع ، وروى عن عمر ومجاهد أنه الشيطان .

فهل يعقل أن يأمرنا الله باستفتائهم ، وهذا ضلالهم وإضلالهم لغيرهم ؟ .

٢٢ ـــ ثبت أن أهل الكتاب كذبوا على رسول الله ﷺ ، وكذبوا أمامه ، فقد روى البخارى عن أنس بن مالك قال : « فلما جاء نبى الله ﷺجاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىّ ما ليس فىّ ،

---

(١) النساء ٥١ .

(٢) لباب النقول للسيوطى جـ ١ ص ٨٢ .

فأرسل نبى الله ﷺ ، فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق فأسلموا . قالوا : ما نعلمه ، قالوا للنبى ﷺ ، قالها ثلاث مرار . قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشى لله ما كان ليسلم ، قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشى لله ما كان ليسلم . قال أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا حاشى لله ما كان ليسلم . قال يا ابن سلام ، اخرج عليهم ، فخرج فقال أيا معشر اليهود اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق ، فقالوا له : كذبت . فأخرجهم رسول الله ﷺ[1] .

فهل يأمر الله باستفتائهم وهذا كذبهم وافتراؤهم على رسول الله ﷺ وعلى حبرهم ، وسيدهم وابن سيدهم ؟ ثم أليس من شروط المفتى العدالة ؟ والعدل هو المسلم المكلف الذكر الحر الخالى من ارتكاب كبيرة ، أو الإصرار على صغيرة ، أو فعل ما يخل بالمروءة — وبناء على ذلك علماء أهل الكتاب ليسوا أهلاً للإفتاء ، فكيف يدعون لأنفسهم هذا ؟ .

٢٣ — كيف يأمرنا القرآن باستفتاء أهل الكتاب وهم الذين جعلوه أجزاء ، فآمنوا بما يتوهمونه موافقاً لأهوائهم ، وكفروا بما سواه ، فعن ابن عباس رضى الله عنه ﴿ **الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ قال هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه[2] .

٢٤ — كيف يأمرنا القرآن باستفتاء أهل الكتاب والرسول ﷺ يأمرنا بألا نصدقهم ففى البخارى[3] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » الآية .

٢٥ — لقد نهانا رسول الله ﷺ عن سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور

---

(١) رواه البخارى فى ٥ / ١٦٢ فى إسلام عبد الله بن سلام .
(٢) رواه البخارى فى ٦ / ١٥٣ .   (٣) ٦ / ٤٨ .

ديننا فقال ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل » والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي »[1] فكيف بعد هذا تدعون أن الله أمرنا أن نستفتيكم فى شئون ديننا ؟ .

٢٦ ـــ بين الله لنا أن فى القرآن ما يغنينا عن غيره من الكتب فعن ابن جرير وابن أبى حاتم والدارمى فى مسنده من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال النبى ﷺ : « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم ، فنزلت ﴿ **أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم** ﴾[2] .

٢٧ ـــ وأيضاً أصحاب النبى ﷺ ينهون عن سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور ديننا ، فعن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ قال يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ؟ وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله[3] تقرءونه لم يشب[4] ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله ، وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم من مساءلتهم ؟ ولا والله مارأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم » رواه البخارى[5] .

وأخيراً كيف يستفتيهم نبينا ﷺ فى شيء وقد جعله الله مصدراً من مصادر التشريع والإفتاء فقال تعالى : ﴿ **فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾[6] .

---

(١) رواه أحمد والبزار واللفظ له عن جابر المنار ١٠ / ٤٠٣ .

(٢) لباب النقول للسيوطى جـ ٢ ص ٦٠ ، وفى البخارى جـ ٩ ص ١٩٨ عن حميد بن عبد الرحمن « سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب » .

(٣) أقرب نزولاً لأنه أنزل بعد التوراة والإنجيل .

(٤) لم يخلط بغيره .

(٥) فى ٤ ص ١٥ ،وفى ٩ ص ١٩٩ .

(٦) النساء ٥٩ .

تتميـــم :

١ ـــ ربما يقول قائل إن الرسول ﷺ سأل أهل الكتاب عن شيء فى الدين ، فكيف يقال إن ذلك مستحيل ؟ .

والجواب أن الذى نعارض فيه ، ونقول باستحالته هو استفتاء الرسول ﷺ لأهل الكتاب فى شيء من شئون دينه وأمور رسالته كان يشك فيه أو يجهله ، أما سؤاله لأهل الكتاب عن شيء يتعلق بشريعتهم وتطبيقها فهذا لا ننكره فقد وقع منه ﷺ لبيان منكراتهم وأنهم يكتمون الحقائق ، فقد سأل ﷺ اليهود عن حكم الزانى والزانية عندهم اختباراً لهم ، وبياناً لموقفهم من شريعتهم ، وأنهم لم يطبقوا تعاليم دينهم ، فالسؤال لأجلهم عن شيء يتعلق بدينهم ، لا عن شيء يتعلق بدينه يجهله أو يشك فيه كما هو الموضوع .

٢ ـــ الإسلام وإن كان لا يكره أحداً على اعتناقه فإنه لا يرضى من أحد أن يشكك فى كتابه أو يثير حوله الشبهات ، أو يتهم شريعته بالنقصان ، فيصيبه ما أصاب من قبله فى سالف الأزمان .

ففى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال : « كان رجل نصرانياً فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران ، فكان يكتب للنبى ﷺ فعاد نصرانياً فكان يقول : ما يدرى محمد إلا ما كتبت له ، فأماته الله ، فدفنوه ، فأصبح وقد لفظته الأرض ، فقالوا : هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم ، نبشوا عن صاحبنا ، فألقوه ، فحفروا له فأعمقوا ، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا : هذا فعل محمد وأصحابه . نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم . فألقوه فحفروا له وأعمقوا له فى الأرض ما استطاعوا ، فأصبح قد لفظته الأرض . فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه »[١] .

* * *

(١) اللؤلؤ ٣ / ٢٧٢ .

بيان وإيضاح لما جاء فى الآية الأولى

﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾

وبعد هذه المقدمات المسلمة من كل عالم وعاقل ، ولا ينكر شيئاً منها إلا مكابر أو جاهل ، وهذه المعالم النيرة على الطريق ، طريق الهدى ودين الحق . نعود إلى الجملة العزيزة التى اقتطعها من آية كريمة من القرآن العظيم ، محاولاً الاستدلال بها على هذه الجريمة المنكرة ، والفرية الشنعاء ، لترى أنها تحمل معها ما يقوض مدعاه ، وينسف مفتراه ، وأن كلا مما قبلها وما بعدها يدمغ هذا الادعاء والافتراء . وإليك الآية بتمامها ، وما قبلها وما بعدها ، ليتضح الحق فى ضوئها .

قال تعالى : **﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات ، فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ، إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون * فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾** .

معانى المفردات : بوأنا : أنزلنا وأسكنا . مبوأ صدق : مكاناً صالحاً ، وإنما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق ، تقول : هذا رجل صدق ، وقدم صدق ، لأن الشيء إذا كان صالحاً يصدق الظن فيه . فلا تكونن من الممترين : فلا تكونن من الشاكين والمترددين .

والمعنى : بعد أن ذكر الله فضله على بنى إسرائيل فى إنجائهم من فرعون وعذابه وإغراقه هو وجنوده فى اليم ، أى الماء الكثير ، ذكر فضله عليهم فى إسكانهم الأرض المباركة أرض فلسطين ، ورزقهم فيها رزقاً طيباً فقال **﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات ﴾** .

أى وبالله لقد أنزلنا بنى إسرائيل منزلاً مباركاً ، وأسكناهم مكاناً صالحاً ، ورزقناهم فيه من الطيبات ، وأغدقنا عليهم أنواع الخيرات ، ثم ذكر أنهم لم يقابلوا نعم الله عليهم بالشكر ، ولم يتلقوا كتابه الذى أنزله إليهم بالعلم والعمل ، والانقياد لما جاء فيه ، بل اختلفوا فى دينهم أولاً إلى أحزاب وفرق يعادى بعضها بعضاً ، واختلفوا فى شأن محمد ودينه ثانياً ، وما كان اختلافهم عن شبهة أو جهالة ، بل بعد ما جاءهم العلم بحقيقة ما اختلفوا فيه .

فقال تعالى : ﴿ **فما اختلفوا حتى جاءهم العلم** ﴾ أى فما اختلفوا فى أمر دينهم إلا من بعد ما قرءوا التوراة وعلموا أحكامها ، وما اختلفوا فى أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته ، وتظاهر معجزاته ، وذلك أنهم كانوا قبل بعثته ﷺ مقرين به مجمعين عليه وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا من العرب المجاورين لهم الذين كانوا يناصبونهم العداوة والحرب ، ولما بعث ﷺ اختلفوا فيه فآمن به قليل منهم ، وكفر باقيهم حسداً وبغياً ، وحرصاً على الرياسة ومظاهر الحياة ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم** ﴾(١)وقوله : ﴿ **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة** ﴾(٢) وقول هرقل لأبى سفيان بعد أن سمع منه نعوت النبى ﷺ : « إن يك ما تقول فيه حقاً فإنه نبى »(٣) .

﴿ **إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ أى إن ربك سيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، ويوفى كلا جزاء عمله إن خيرا فخير . وإن شرا فشر — فهل يعقل أن يأمر الله رسوله بالتحاكم فى أمور دينه إلى قوم اختلفوا فى كتابهم وشرعهم إلى مذاهب تبعا لأهوائهم وهو الذى قال له : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير** ﴾ (٤) .

ثم بين الله سبحانه استحالة استفتاء الرسول ﷺ لأهل الكتاب فى أمر من

---

(١) آل عمران ١٩ .
(٢) البينة ٤ وجاءتهم البينة : محمد « ص » بكتابه .
(٣) اللؤلؤ والمرجان جـ ٢ ص ٢٢١ .
(٤) البقرة ١٢٠ .

أمور دينه لاستحالة شكه فقال ﴿ **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك** ﴾ .

أى فإن كنت ــ أيها الرسول ــ فى شك فرضاً وتقديرا مما أنزل إليك من القصص التى من جملتها قصة فرعون وقومه وأخبار بنى إسرائيل فاسأل عن ذلك الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، فإن ذلك محقق عندهم ، وثابت فى كتبهم على نحو ماألقينا إليك .

فقد علق سؤال علماء أهل الكتاب على كينونة الشك وحصوله من الرسول ﷺ فيما أنزل إليه من ربه ، وحصول الشك منه فى ذلك محال ، فالمعلق عليه ، وهو سؤال أهل الكتاب محال .

أما استحالة شكه ﷺ فللأدلة الكثيرة التى تقدمت فى المقدمات العديدة ولأن الشك لا يخرج الرسول ﷺ من ديوان الأنبياء فقط ، بل يخرجه من ديوان المؤمنين أيضاً ، والعياذ بالله ، وأما استحالة سؤاله أهل الكتاب فلأنه معلق على حصول الشك من الرسول وهو محال ، والمعلق على المحال محال . فصور الكلام وظاهره تجويز حصول الشك والسؤال ، والمقصود منه نفيه على أبلغ الوجوه وأقواها .

ونظير ذلك فى الاستحالة قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** ﴾[1] فقد علق العبادة لولد الرحمن على كينونته ووجوده ، وذلك مستحيل ، فعبادته مستحيلة .

ويؤكد كون الشك مفروضاً فرضاً التعبير بإن ، فإنها تستعمل غالباً فيما لا تحقق له ، بل قد تستعمل فى المستحيل عقلاً ، كقوله تعالى المتقدم ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** ﴾ **وقوله تعالى خطاباً لرسوله** ﷺ : ﴿ **ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾[2] فالشرك مستحيل عليه وعلى جميع الرسل عقلاً وطبعاً وسمعاً[3] ، لأن الرسالة قدوة حسنة ودرجة سامية لا يمنحها الله إلا للكاملين من البشر فى جميع نواحيهم وصدق الله ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾[4] .

---

(١) الزخرف ٨١ .
(٢) الزمر ٦٥ .
(٣) لرعاية الله لهم وعصمتهم ، أنظر كتب التوحيد .
(٤) الأنعام ١٢٤ .

ومعنى الآية السابقة : وتالله لقد أوحى إليك بالتوحيد ، وأوحى إلى الذين من قبلك من الرسل كذلك ، لئن أشركت — يا محمد — ليحبطن عملك وليفسدن ، ولتكونن من الذين خسروا أنفسهم وأعمالهم .

وهذا كلام على سبيل الفرض والتقدير — أى لو فرض حصول إشراك منك لكان كذا وكذا — سيق لتهييج الرسل ، وتنفير المؤمنين من الشرك ، وإقناط الكفرة من ترك محمد ﷺ لرسالته ، ومن مغفرة الله لمن مات منهم على شركه ، وليعلم الكل فظاعة الشرك وقبحه ، فلقد نهى عنه من يستحيل صدوره منه ، فكيف بمن يجوز له إتيانه ؟ .

وقد تستعمل فى المستحيل سمعاً كما فى قوله تعالى لليهود : ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين** ﴾[1] فإن القرآن قد جاء بأن الدار الآخرة لكل من آمن وعمل صالحاً من جميع الملل والنحل وليست لليهود وحدهم قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً** ﴾[2] فاسم الموصول للعموم .

وفى المستحيل عادة كقوله تعالى : ﴿ **فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية** ﴾[3] .

وقد جرت عادة العرب أن يقدروا الشك فى الشيء ليبنوا عليه ما ينفى احتمال وقوعه : فيقول أحدهم لابنه : إن كنت ابنى فكن كريم الخلق ، ومن ذلك قول المسيح عليه السلام مجيباً ، عن سؤاله إياه ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟** ﴾ ﴿ **قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته** ﴾[4] فهو يعلم من نفسه أنه لم يقل ما سأله ربه عنه ، ولكنه يفرضه ليستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه ربه منه .

وعلى هذا النمط يجرى العلماء فى محاوراتهم بينهم وبين نظرائهم ، أو بينهم وبين تلامذتهم فيشككون فيما لا شك فيه عند ليبنوا على ذلك أحكاماً

---

(١) البقرة ٩٤ .
(٢) الكهف ١٠٧ .
(٣) الأنعام ٣٥ .
(٤) المائدة ١١٦ .

أخرى ، فيقولون مثلاً : إن كانت السبعة زوجاً كانت منقسمة إلى متساويين ، أى إن كون السبعة زوجاً يستلزم ذلك ، وهذا لا يدل على أن السبعة زوج .

وهكذا ما فى الآية . فهو يدل على أنه لو حصل الشك فرضاً لكان الواجب هو فعل كذا وكذا ، وليس فيها دليل على وقوعه ، ولا على جواز وقوعه ، بل الدليل قام على امتناع وقوعه ، بل على استحالة وقوعه كما تقدم فى المقدمات ولذا قال الإمام النسفى فى تفسيره للآية : ﴿ **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك** ﴾ . لما قدم ذكر بنى إسرائيل . وهم قراء الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأن أمر رسول الله ﷺ مكتوب فى التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن ، وبصحة نبوته ﷺ ، ويبالغ فى ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً ـــ وسبيل من خالجته شبهة أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى قوانين الدين ، وأدلته ، أو بمباحثة العلماء ـــ فسل علماء أهل الكتاب ، فإنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ، فضلاً عن غيرك ، فالمراد وصف الأحبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله ﷺ ، لا وصف رسول الله ﷺ بالشك[1] .

أقول : والمراد أيضاً إظهار حقية نبوته ﷺ بشهادة الأحبار حسبما هو المسطور فى كتبهم وإن لم يكن إليه حاجة أصلاً ، وإنما من باب تكثير الدلائل ، وإقامة الحجة عليهم ، وعلى من يسألهم عن محمد ﷺ وكتابه من غيرهم وزيادة لإيمان من آمن به **وهكذا** ثبت يقيناً أن حصول الشك لا يتصور منه ﷺ بحال من الأحوال حتى يسأل أهل الكتاب ؟ ليقينه بصحة ما أنزل إليه ، وانكشاف الحقيقة له ، واستحالة الشك عليه ، ولذا قال ﷺ : بعد نزولها : « لا أشك ولا أسأل ، بل أشهد أنه الحق »[2] .

فدلل بكلامه هذا أنه على قوة ويقين ، وثبات قدم فيما أنزل إليه من ربه ، وأنه لا يجد الشك إلى قلبه سبيلا . وفى البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٢٨١ : وقال الله لنبيه ﷺ : ﴿ **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون**

(١) تفسير النسفى جـ ٢ صـ ١٣٤ .

(٢) تفسير الفخر ٥ صـ ٢٨ .

الكتاب من قبلك ﴾ قالوا : لم يشك ولم يسأل .

بل إنه ﷺ لم ينف الشك عن نفسه فقط ، بل نفاه عن نفسه وعن إخوانه المرسلين بالدليل القاطع والبرهان الساطع ـ فلا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل ــ فقال ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال:﴿ **رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . . .** ﴾ متفق عليه[1] والآية ٢٦٠ من سورة البقرة فقد نقل القسطلانى عن الزركشى : أن صاحب الأمثال السائرة ذكر أن أفعل تأتى فى اللغة لنفى المعنى عن الشيئين ، نحو الشيطان خير من زيد ، أى لا خير فيهما ، وكقوله تعالى : ﴿ **أهم خير أم قوم تبع** ﴾ أى لا خير فى الفريقين ، فمعنى قوله : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » أى لا شك عندنا جميعاً . قال الزركشى : وهو أحسن ما يتخرج عليه الحديث[2] .

ثم أكد الله تعالى استحالة شكه ﷺ فيما أنزل إليه من ربه ، وسؤاله أهل الكتاب عنه فقال : ﴿ **لقد جاءك الحق من ربك** ﴾ أى والله لقد جاءك الحق الواضح ، واليقين الساطع الذى لا ريب فيه بحقية رسالتك ، وحقية ما أنزل إليك من ربك القائم بأمرك والمتولى لجميع شأنك ، فهذه الجملة المقرونة بالقسم تقطع إرادة الشك والسؤال بالفعل من أصله ، وتؤكد استحالتهما ، وأهل الكتاب يعلمون ذلك ؟ لوجود نعتك فى كتبهم قال تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾[3] .

ثم أكد الله ما يثبت استحالة شكه ﷺ ، وما يثبت كونه مفروضاً فرضاً بالنهى عنه فقال ﴿ **فلا تكونن من الممترين** ﴾ أى فلا تكونن من فريق الشاكين

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ٣ / ١١٥ .

(٢) انظر هامش اللؤلؤ ٣ / ١١٥ وقيل المعنى لو شك إبراهيم لكنا أحق بالشك منه ، لكنا لم نشك فلا يكون منه شك ــ وقوله « رب أرنى كيف تحيى الموتى » ظاهر السؤال أنه عن إحياء الموتى نفسه ، والحق أنه سؤال عن كيفية إحياء الموتى من غير شك منه فى قدرته تعالى عليه . « قال أولم تؤمن » الاستفهام للتقرير بالإيمان ، لأنه طلب الكيفية وهو مشعر بالتصديق بالإحياء .

(٣) البقرة ١٤٦ ، ١٤٧ .

الذين يحتاجون إلى السؤال ، بل دم على الجزم واليقين الذى أنت عليه من قبل ، إذن فلا شك ولا سؤال ، ولا استفتاء ولا إفتاء فى الآية ، يا من تثير الشكوك والظنون حول عصمة الرسول الأمين ، وكتابه الكريم ، وتقدم السم فى العسل ، فقد علمت أن الآية تحمل معها أدلة بطلان ما تدعيه .

وشبيه بالآية التى معنا قوله تعالى : ﴿ **والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين** ﴾[1] أى فلا تكونن من الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق ، لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك مرده إلى الحسد والجحود . وهذا النهى إنما هو أيضاً زيادة فى التوكيد وتثبيت اليقين فى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك ، وأن الحجة قائمة عليهم به فلا عذر لهم فى عدم إيمانهم بك وبكتابك المراقب والمهيمن على الكتب السابقة .

ثم زاد الله الأمر تأكيداً على تأكيد ، وتحذيراً إثر تحذير ، فدعا الرسول ﷺ إلى زيادة الثبات على الإيمان ، والعصمة من الأوزار ، فقال : ﴿ **ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين** ﴾ أى ولا تكونن أنت ولا أحد من الذين اتبعوك من الذين يكذبون بالحجج والبينات ، فتكون من الذين خسروا أنفسهم وأعمالهم . وفيه تعريض بأهل الكتاب ــ الذين جحدوا آيات الله ، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ــ بأنهم من الخاسرين ونهيه ﷺ عن الشك والتكذيب بقوله تعالى ﴿ **فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين** ﴾ من باب زيادة تهييجه ﷺ وإلهاب حمية إيمانه كقوله تعالى : ﴿ **فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك** ﴾[2] والإعلام بأن الشك والتكذيب من القبائح والمحذورية بمكان بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه ، فكيف بمن يمكن اتصافه به كما سبق ، وفيه أن الممترين الشاكين فيما أنزل إلى الرسول كالمكذبين بآيات الله جحوداً بها وعناداً ، كلاهما سواء فى الخسران المذكور لحرمان الجميع من الاهتداء بها ، وما يترتب على الاهتداء من سعادة الدنيا

---

(١) الأنعام ١١٤ .

(٢) القصص ٨٦ ، ٨٧ .

والآخرة .

وهكذا بين الله استحالة شكه ﷺ فيما أنزل إليه من ربه ، واستحالة سؤاله أهل الكتاب فى أمور دينه ، وأكد ذلك بهذه التأكيدات العديدة فى هذه الآيات الكريمة . أفبعد هذا يتجرأ أحد من أهل الكتاب كالإنبا شنودة أو غيره فيقول : إن القرآن وضع النصارى فى مركز الإفتاء فى الدين ؟ يالله من هذا الهوى الذى يلعب برءوس أصحابه ، كما يلعب الشيطان بعقول قرنائه ﴿ **وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين** ﴾[1] .

* * *

---

(١) يونس ١٠١ ، ١٠٢ .

الغرض من إنزال هذه الآية

وإذا كان الدليل قد قام على استحالة شكه ﷺ وسؤاله لأهل الكتاب عن شيء من أمور دينه ، فما الفائدة فى إنزال هذه الآية ﴿ **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك** . . . ﴾ وظاهرها غير مراد[1] .

والجواب أنها أنزلت لأمور :

١ ـــ ليؤكد الله بها صدق نبوة محمد ﷺ ، وصدق ما أنزل عليه من ربه ، حيث أفادت أن فى كتب أهل الكتاب ما يؤيد ذلك ، وبذلك تقوم الحجة على سائر البشر .

٢ ـــ وليؤكد بها أن أحبار أهل الكتاب على علم تام بأن محمداً رسول الله وأن القرآن منزل عليه بالحق من الله ، حيث إن قراءتهم لكتبهم ودراستهم لها قد أكسبتهم هذا العلم اليقينى ، ليؤمنوا بمحمد ﷺ ، وبما جاء به وإلا كانوا من المكذبين المكابرين الذين خسروا أنفسهم وأعمالهم كما قال تعالى فى الآية التالية لها : ﴿ **ولا تكونن من**

---

(١) ذكر الكلام وعدم إرادة ظاهره كثير فى كلام العرب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته** . . ﴾ الآية ١١٦ من سورة المائدة . فالمقصود من هذا الكلام ليس تبرئة عيسى عليه السلام من الشرك . فإنه برىء منه لعصمته ، والله يعلم ذلك ، ويعلم أنه أهل للرسالة من قبل أن يحملها ، وإنما المقصود من هذا الكلام هو توبيخ وتقريع من اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، وإقامة الحجة عليهم باستحقاق العذاب فحيث إنهم قد أشركوا ، وحيث أن عيسى عليه السلام لم يأمرهم بالشرك وإنما أمرهم بالتوحيد كما فى الآية التالية ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم** . . . ﴾ فقد لزمتهم الحجة بعبادة غير الله ، وقامت عليهم البينة بالشرك الأكبر فليذوقوا العذاب العظيم ، ومثل ذلك قوله تعالى فى آية ١٧ ، ١٨ من سورة الفرقان ﴿ **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا** ﴾ أى حتى نسوا القرآن وكانوا هالكين ، فالخطاب موجه من الله للمعبودين من عيسى والملائكة وغيرهم ، والله يعلم براءتهم من إضلال العابدين لهم ولكن المقصود توبيخ العابدين على شركهم وإقامة الحجة عليهم فى استحقاق العذاب .

الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾ فالآية قد أفادت أن أحبار أهل الكتاب على علم تام بصدق النبي وما أنزل عليه ، وأن عليهم أن يؤمنوا به وإلا ضلوا وأضلوا وكانوا من الخاسرين ، وهم على بينة من هذا الضلال والخسران .

٣ ـ وليزداد بها المؤمنون بمحمد ﷺ وكتابه من الأميين وأهل الكتاب . إيماناً على إيمانهم واطمئناناً على ما فى قلوبهم من اليقين بذلك ، فإن تكثير الدلائل من القرآن وكتب أهل الكتاب وبيان نعوته فى الكتابين مما يزيد فى قوة اليقين بصدق نبوته ﷺ ، وما أنزل عليه .

٤ ـ ولتكون فتنة وابتلاء للكافرين والذين فى قلوبهم مرض الشك والنفاق كما قال تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾(١) .

نحو الآية السابقة :

ونحو الآية فى المراد منها قوله تعالى : ﴿ **عليها تسعة عشر * وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر** ﴾(٢) .

معانى المفردات : عليها تسعة عشر ملكاً . أصحاب النار : المراد بهم هنا الملائكة الموكول بهم تعذيب أهل جهنم . عدتهم : عددهم . فتنة : أى إمتحانا تظهر به طبيعة الكافر . ليستيقن : ليكتسب اليقين بصدق الرسول وكتابه ،

---

(١) آل عمران ٧ .

(٢) المدثر ٣٠ ، ٣١ .

الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى لأنه موافق لما فى دينهم . ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون : أى لا يطرأ عليهم بعد اليقين وزيادة الإيمان شك فى المستقبل أبداً . جنود ربك : المخلوقات التى سخرها لما يريد ، ومنها الملائكة . وما هى : أى سقر المتقدمة فى آية ٢٦ . ذكرى : أى تذكير وتنبيه .

والمعنى : ذكر الله النار فى الآيات السابقة ، ثم ذكر فى هذه الآيات أن عليها تسعة عشر ملكاً هم خزنتها والقائمون بخدمتها ، ثم قال وما جعلنا أصحاب النار الموكل بهم تعذيب أهل جهنم إلا ملائكة ، لا بشراً ، وهذا رد على قول أبى جهل لما سمع أن عدد حراس أهل النار تسعة عشر فقال لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من هؤلاء ؟ فرد الله عليهم بقوله ﴿ **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** ﴾ فلا يطاقون كما تتوهمون ، وما جعلنا عددهم تسعة عشر إلا ابتلاء واختباراً للناس ، تظهر به طبيعة الكافرين وضلالهم ، فيقولون : لم كانوا تسعة عشر ، وليكتسب الذين أوتوا الكتاب ــ من اليهود والنصارى ــ اليقين بصدق الرسول ﷺ وكتابه لأنه موافق لما فى كتابهم ، فيدفعهم ذلك إلى الإيمان بما جاء به ﷺ . وليزداد الذين آمنوا بمحمد ﷺ من أهل الكتاب والأميين إيماناً على إيمانهم كيفية ، بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك ، وكيفية بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل الله ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون بمحمد ﷺ فى حقيقة ذلك ، وفى هذا توكيد للاستيقان وزيادة الإيمان ، إذ هما دالان على انتفاء الارتياب فى المستقبل .

وليقول الذين فى قلوبهم مرض الشك والنفاق ، والكافرون المصرون على التكذيب ــ من أهل الكتاب والأميين ــ ﴿ **ماذا أراد الله بهذا مثلا** ﴾ أى ماذا أراد الله بهذا العدد العجيب وأى معنى أراد فى أن جعل الملائكة تسعة عشر ، لا عشرين ، وغرضهم إنكاره أصلاً ، وأنه ليس من عند الله ، وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص . ﴿ **كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ أى مثل ذلك من إضلال المنافقين والكافرين حتى قالوا ما قالوا ، وهدى المؤمنين لتصديقه ورؤية الحكمة فى ذلك ، يضل الله من يشاء من عباده وهو الذى علم منه اختيار الضلال ، ويهدى من يشاء وهو الذى علم منه اختيار الاهتداء .

﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر** ﴾ أى وما يعلم جنود ربك من الملائكة فى قوتهم وأعوانهم إلا هو ، وما سقر إلا تذكرة وعظة للبشر ليرتدعوا عن غيهم وضلالهم ، أما حقيقتها فشىء لا يعلمه إلا الله وهكذا كان القرآن يفسر بعضه بعضا ، ويوضح المحكم منه فى آية ما تشابه فى أخرى .

وأما الآية الثانية : التى يدعى بها البابا شنودة أن القرآن وضع النصارى بها فى مركز الإفتاء وهى قوله تعالى : ﴿ **وماأرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[1] .

فقد نزلت رداً على شبهة أثارها المشركون مكابرة وعناداً . وهى إنكار بشرية الرسل ، وقد حكاها الله عنهم فى الآية الثالثة من هذه السورة فقال تعالى ﴿ **وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾ .

والمعنى : وتحدث الذين ظلموا ـــ وهم المشركون ـــ بصوت منخفض قائلين : مامحمد إلا بشر مثلكم لايفضلكم فى شىء وما أتى به من القرآن ماهو إلا سحر فلا تحضروا مجلسه ، وأنتم تعلمون يقيناً أنه سحر .

قالوا ذلك ، وفاتهم أن إرسال البشر إلى عامة الناس هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية ، فإن النفوس تأنس إلى أمثالها .

وقد دحض الله شبهتهم هذه بقوله : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ .

والمعنى : وما أرسلنا إلى الأمم السابقة قبل إرسالك إلى أمتك ـــ أيها النبى ـــ إلا رجالاً نوحى إليهم بما نريد تبليغه لهم ، ولم نرسل ملائكة كما يريد كفار قومك ، فاسألوا ـــ أيها الكافرون ـــ أهل الذكر ، من المسلمين ، أو أهل الكتاب ، أو علماء الأخبار ، أو كل من يذكر بعلم وتحقيق ، إن كنتم لا تعلمون ذلك ، فستعرفون أن رسل الله جميعاً ما كانوا إلا رجالاً ، لا ملائكة .

وهذه الآية الكريمة لا دليل فيها على ما يدعيه لأمور :

(١) الأنبياء ٧ .

١ ــ أن أهل الذكر يحتمل أنهم أهل القرآن لأنه سمى ذكراً فى آيات كثيرة ، ويحتمل أنهم أهل الكتب السابقة ، أو علماء الأخبار ، أو كل من يذكر بعلم وتحقيق[١] . والدليل متى تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

٢ ــ بشرية رسل الله إلى الناس معلومة بالتواتر المقطوع به حتى من مشركى قريش ، فمن ينكر منهم رسالة محمد ﷺ لأنه بشر مثلهم ، إنما ينكرها حسداً ومكابرة ، لا جهلاً ببشرية الرسل ويدل على ذلك ما يأتى :

أ ــ أنهم موقنون بأنهم من نسل نبى الله إسماعيل بن نبى الله إبراهيم ، وهما فى عرفهم من البشر ، فهم يؤمنون بأن رسل الله إلى الناس من البشر .

ب ــ أن زعماء الشرك من قريش وأشدهم عداوة للنبى ﷺ كانوا يعترفون بأن محمداً صادق فى دعواه الرسالة ، ولكن البغى والحسد والحرص على مظاهر الحياة هو الذى كان يمنعهم من الإيمان به فعن على قال : قال أبو جهل للنبى ﷺ :

إنا لا نكذبك يامحمد ، ولكن نكذب ماجئت به ، فأنزل الله : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾[٢] .

وروى أن الأخنس بن شريق قال لأبى جهل : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا ؟ فقال له : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ، فنزلت[٣] وفى الفخر الرازى ٤ / ٣٥ : أن الحارث بن عامر من قريش قال : يا محمد والله ما كذبتنا قط ، ولكنا إن اتبعناك نتخطف من أرضنا ، فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب .

وقال النضر بن الحارث لقريش : لقد كان محمد فيكم وهو شاب صادقاً أميناً ، فلما نبت الشيب فى صدغيه ، قلتم ساحر كذاب خائن ، والله

---

(١) انظر الفخر ج ٥ ص ٣١٢ وأبو السعود جـ ٣ ص ١٧٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ١٢٩ ، والآية ٣٣ من سورة الأنعام .

(٣) تفسير الكشاف ٢ / ١٥ .

ما هو بساحر ولا كذاب ولا خائن[1] .

وحيث إن سؤال أهل الذكر عن بشرية الرسل معلق على عدم العلم ببشريتهم والرسول يعلم بالضرورة أنهم بشر ، والمسلمون أيضاً يعلمون ذلك وإلا لما أسلموا ، وثبت أن المشركين يعلمون أنهم بشر ، إذن فبشريتهم معلومة للجميع فلا سؤال ، ولا استفتاء ، ولا إفتاء أيضاً فى هذه الآية .

٣ ـــ ثبت بما لا يدع مجالاً للشك كما تقدم أن أهل الكتاب كانوا يكتمون الحق وهم يعلمونه بغياً وحسداً للرسول وصحبه ، فهم إذن ليسوا أهلاً للإفتاء ، ولا للإخبار بالحق .

٤ ـــ أخبرنا القرآن أن أهل الكتاب كانوا يتعاطفون مع المشركين ، ويتعاونون معهم على الإثم والعدوان وإيقاع الشر بالمسلمين فقال تعالى : ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا** ﴾[3] وهم حتى الآن لا يزالون يتعاونون مع الوثنية المادية ضد المسلمين ، إذن فهم ليسوا أهلاً لإرشاد الكفار إلى اعتناق الإسلام .

٥ ـــ أعلن الكفار صراحة أنهم لن يصدقوا ما جاء فى القرآن ولا ما جاء فى الكتب السابقة كما قال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه** ﴾[4] وهى الكتب السابقة ، فهم إذن لا يقبلون فتواكم فى الدين الإسلامى ، ولا إرشادكم لهم بما يهديهم إليه ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين** ﴾[5] .

---

(١) هداية المرشدين ص ٣٧٦ .
(٢) البقرة ١٠٥ .
(٣) آل عمران ١٨٦ .
(٤) سبأ ٣١ .
(٥) القصص ٤٨ ، ٤٩ .

والمعنى : فلما جاء أهل مكة الحق ، وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ من عند الله قالوا تعنتا : هلّا أعطى محمد مثل ما أعطى موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ، وقد حكى الله عنهم ذلك فى سورة الفرقان فقال : ﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾[1] .

أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل من التوراة كما كفروا بهذا القرآن حيث قالوا : توراة موسى وكتاب محمد سحران مختلفان تعاونا بتصديق كل منهما الآخر وقالوا : إنا بكل واحد من الكتابين كافرون ، وذلك أنهم بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود فى عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام ، فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا : ذلك[2] .

قل لهم يا محمد فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى مما أنزل على موسى ، ومما نزّل علىّ أتبعه إن كنتم صادقين فى أنهما سحران مختلقان .

٦ ـــ إنكم لا تؤمنون بأن شريعة القرآن نسخت شريعة التوراة والإنجيل مع أن هذا النسخ مقطوع به عندنا ومعلوم من الدين بالضرورة كما سبق بيانه ، فكيف تضعون أنفسكم فى مركز الإفتاء فى ديننا وأنتم لا تؤمنون بما جاء فى كتابنا ؟ .

٧ ـــ إن كل أمور ديننا معلومة لنا بالضرورة كما سبق وجاء بها قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ فليس فيه ماينقصنا حتى نستفتيكم فيه .

٨ ـــ إن أصحاب الرسول ﷺ لم يستفتوه طيلة حياته معهم إلا فى مسألتين فقط يتعلق كلاهما بأحكام الأسرة ﴿ **ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن** ﴾[3] الآية ، ﴿ **يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة** ... ﴾[4] الآية ، ولم يستفته أحد فى شىء من أمور العقيدة لعلمهم بها بالضرورة .

٩ ـــ من المقطوع به كما تقدم فى المقدمات أنكم لستم أهلا للافتاء فى ديننا

---

(١) الفرقان ٣٢ .
(٢) تفسير أبو السعود ٤ / ١٥٦ .
(٣) النساء ١٢٧ .
(٤) النساء ١٧٦ .

فكيف تدعون أمرا لستم له أهلا ؟

١٠ ـــ ويدل على عدم الحاجة إلى سؤال أهل الذكر عن بشرية الرسل التعبير بإن ، فإنها تستعمل فيما لاتحقق له غالبا ، بل قد تستعمل فى المستحيل سمعا ، وعادة ، وعقلا كما تقدم ولذا لم يسأل أحد أهل الذكر عن حكم بشرية رسل الله للبشر .

وإذن الغرض من هذه الآية كالسابقة ، تأكيد حقية رسالة محمد ﷺ بشهادة أهل الذكر من علماء أهل الكتاب وغيرهم ، وإن لم يكن إليه حاجة أصلا كما سبق ، وإنما هو من باب تكثير الدلائل وتأكيد إقامة الحجة عليهم ، وعلى من يتنكر لرسالة محمد وكتابه من غيرهم ، ويجادل بالباطل ليدحض به الحق وزيادة إيمان من آمن به بتكاثر الأدلة .

وأخيرا : أقول لمن يحتجون بهذه الآيات أنها وضعتهم فى مركز الإفتاء : إنها تثبت بشرية الرسل وعيسى عليه السلام منهم ، وأنتم تزعمون أنكم أهل للإفتاء بذلك ، فلماذا لاتقولون بالبشرية الكاملة لعيسى عليه السلام مع أنه قالها وسجلها الله فى كتابه ﴿ **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا.وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا.والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** ﴾[١] ، بل تقولون : إنه الله ، أو ابن الله ، أو إله مع الله ؟

إذا كنتم لاتؤمنون بالآيات التى تذكرونها فلا تحتجوا بها و ﴿ **لكم دينكم ولى دين** ﴾ .

* * *

(١) مريم ٣٠ : ٣٣ .

المبحث العاشر

البابا شنودة يقلب الحقائق

فيقول فى ص ٢ : ﴿ **ولم يذكر فى القرآن إطلاقاً أنه نسخ التوراة أو الإنجيل ، بل على العكس ذكر أن المؤمنين ليسوا على شىء حتى يقيموا التوراة والإنجيل** ﴾ لا شك أنه يقصد بالمؤمنين أتباع محمد ﷺ ، والفقرة الأولى قد سقت لدحضها المبحث السادس ، والسابع ، والثامن التى تقدمت .

أما الفقرة الثانية فدحضا لافترائها أقول :

إن ما جاء فى هذه الفقرة قلب للحقائق تهرباً من شمول دعوة القرآن الكريم لأهل الكتاب ، وعكس لما جاء فى الآية الكريمة تماماً ، لأن المذكور فيها هو أن أهل الكتاب ليسوا على شىء حتى يقيموا التوراة والإنجيل والقرآن ، وإليك الآية بتمامها لتعرف مدى تحريفه لها ، وأنه فسرها بعكس المراد منها .

قال تعالى : ﴿ **قل ياأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين** ﴾(١) .

والمعنى : يا أيها الرسول قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى : إنكم لا تكونون على أى دين صحيح إلا إذا أعلنتم جميع الأحكام التى أنزلت فى التوراة والإنجيل وعملتم بها ، وآمنتم بالقرآن الموحى به من الله إلى رسوله لهداية الناس ولتتيقنن أيها الرسول أن معظم أهل الكتاب سيزدادون بالقرآن الموحى به إليك ظلماً وكفرا وعناداً لحسدهم وحقدهم عليك ، وعدم إيمانهم بك وبالقرآن الكريم

---

(١) المائدة ٦٨ .

الذى أنزل ، فلا تحزن على الذين طبعوا على الجحود فالآية خطاب لكم يا أهل الكتاب لا للمسلمين ، وتثبت أنكم أنتم الذين لستم على شيء حتى تؤمنوا بالله الواحد الأحد ، وتعملوا بالتوراة والإنجيل والقرآن ، وتؤمنوا بنبى الإسلام ، وتنقادوا لما جاء به من تشريعات وأحكام ، فهى حجة عليكم ، لا لكم ، ولكنكم تفرون من الحق إلى الباطل ، وتقلبون الحقائق فراراً من الإيمان بالشريعة المحمدية ، والعمل بتشريعاتها .

وإذا كنتم تؤمنون بالقرآن ، وتحاولون جاهدين أن تنتزعوا منه ما يؤيدكم فلماذا لا تلبون نداءه وتستجيبوا لأمره الصريح لكم بالإيمان والدخول فى الإسلام ، حيث يقول لكم : ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون** ﴾[1] ويقول : ﴿ **يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا** ﴾[2] .

* * *

(١) البقرة ٤١ .
(٢) النساء ٤٧ .

المبحث الحادى عشر

البابا شنودة يحرف كلم القرآن عن مواضعه

وذلك بحمل ألفاظ القرآن الكريم على معنى غير المعنى الذى وضعت له ، فالآيات القرآنية التى نزلت في القلة التى أسلمت من أهل الكتاب ، وآمنت بمحمد ﷺ وكتابه الكريم ، كما آمنت بسائر كتب الله ورسله ، يعمل على قلب حقائقها ، ويزعم أنها نزلت فى الكثرة من أهل الكتاب التى لم تعتنق الإسلام ، وتؤمن بمحمد ﷺ وبما جاء به ، يفعل ذلك ليدخل فى روع الدهماء من الناس وكل من يؤمن بكلامه ، أن أهـل الكتاب ناجون من عذاب الله ولو لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وبكتابه ، ولو فرقوا بين الله ورسله ، فآمنوا بالبعض وكفروا بالبعض :

فيقول فى ص ٣ تحت عنوان « نظرة القرآن إلى النصارى » :

يدعوهم القرآن « أهل الكتاب » أو « الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » أو « الذين آتيناهم الكتاب » أو « النصارى » ثم قال : ويصفهم القرآن بالإيمان وعبادة الله وعمل الخير ، ويقول في ذلك :

﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولـئك من الصالحين ﴾ سورة آل عمران ١١٣ ، ١١٤ .

ويقول أيضاً :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ سورة البقرة ١٢١ .

﴿ **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله** ﴾ سورة النساء ١٣١ .

﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون** ﴾ سورة القصص٥٢ .

هم إذن من المؤمنين يعبدون الله ويسجدون لله وهم يتلون آيات الكتاب طوال الليل يؤمنون بالله وبالكتاب وباليوم الآخر وهم من الصالحين .

ورداً على ذلك ، ودمغاً لهذا الافتراء والادعاء ، بالحجة والبرهان أقول :

١ ــ قلت سابقاً وأقول أيضاً : إن القرآن إذا أثنى على فريق من أهل الكتاب المعاصرين لنزوله فمن بعدهم ، ووصفهم بالإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات وفعل الخيرات إنما يفعل ذلك مع من آمن منهم بالله وبرسله ، وكتبه السابقة ،ثم اعتنقوا الإسلام فآمنوا بمحمد ﷺ وكتابه وعملوا بتشريعه وانقادوا لأحكامه ولم يمدح القرآن ولم يثن على أناس تكبروا عن الاستجابة لندائه ، فلم يقبلوا ما جاء به من أن محمداً رسول الله إلى الناس كافة من أهل الكتاب وغيرهم ، وأن القرآن منزل من عند الله للعالمين .

بل يعتبر القرآن الكريم كل من لم يؤمن بأن محمداً ﷺ مرسل إليه ، وأن القرآن الكريم هو هداه الذى يهتدى به كافراً ومخلداً فى النار ، سواء كان من أهل الكتاب أو من غيرهم قال تعالى : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾[1] وقد سبقت الكثرة من الآيات فى ذلك .

٢ــ إنك لو تصفحت القرآن الكريم كله آية آية لن تجده يثنى ويمدح أحداً من أهل الكتاب عاصر نزوله ولم يؤمن به وبرسوله ، ويعمل بتعاليمه .

٣ ــ آيتا آل عمران وما يتعلق بهما يراجع فيهما المبحث الخامس من الفصل الأول فقد فصل الكلام فيهما تفصيلا ، وبين أنهما نزلتا فيمن أسلم من أهل

---

(١) البينة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ .

الكتاب من اليهود ، فلا حجة فيهما على ما يدعى ، بل هما ضده وحجة عليه .

وأما الآيات الثلاث التالية فإليك كل واحدة منها كاملة ومعناها ، لتعرف أنها فى غير ما ساقه له ، وأنها حجة عليه ، لا له .

أ ـــ قال تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب[1] يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون** ﴾[2] .

سبب نزول هذه الآية ـــ كما فى الجلالين والخازن ـــ نزلت فى جماعة قدموا من الحبشة وأسلموا .

ومعناها : الذين آتيناهم الكتاب يقرءونه كما أنزل ، لا يغيرونه ولا يحرفونه ، ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ ، ويتدبرون معانيه حق التدبر ، أولئك يؤمنون به حق الإيمان ، ومن يؤمن به حقاً يؤمن بكل ما جاء فيه وما يدعو إليه ، فيؤمن بالقرآن والنبى محمد ﷺ ، ومن يكفر منهم بالكتاب المؤتى له فيحرفه ، أو يغيره ، أو لا يؤمن بما يدعو إليه من الإيمان بمحمد وكتابه فأولئك هم الخاسرون لأنفسهم ، لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم .

ب ـــ وقوله تعالى : ﴿ **ولله ما فى السموات وما فى الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميدا** ﴾[3] .

والمعنى : واعلموا أن لله ما فى السموات وما فى الأرض خلقاً وملكاً وتصريفاً ، وبالله لقد وصينا الذين أوتوا الكتاب ، كالتوراة والإنجيل والزبور من قبلكم ، وهم اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم وصيناهم فى كتبهم وعلى لسان رسلهم ، ووصيناكم أنتم ـــ ياأهل القرآن ـــ كذلك أن تتقوا الله جميعاً بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

---

(١) « الذين آتيناهم الكتاب » مبتدأ وصلة ، وجملة « يتلونه حق تلاوته » حالية ، وحق منصوب على المصدر ، وخبر المبتدأ « أولئك يؤمنون به » .

(٢) البقرة ١٢١ .

(٣) النساء ١٣١ .

وفى هذا إشارة إلى أن الأديان جميعها متفقة على توحيد الله وتقواه، ومختلفة فى الفروع تبعاً لاختلاف الزمان والمكان .

وإن تكفروا فاعلموا أن لله ما فى السموات وما فى الأرض من الخلائق قاطبة ، وأنهم مفتقرون إليه فى الوجود ، وفى سائر النعم المتفرعة عليه ، لا يستغنون عن فيضه طرفة عين ، فحقه أن يطاع ولا يعصى ، ويتقى عقابه ، ويرجى ثوابه ، وكان الله غنياً عن الخلق وعباداتهم ، محموداً فى ذاته حمدوه أو لم يحمدوه ، فلا يتضرر بكفرهم ومعاصيهم ، كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم ، وأنه وصاهم بالتقوى لرحمته ، لا لحاجته .

جـ ــ وقوله تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين** ﴾[1] .

سبب نزول هذه الآيات : أنه وفد على رسول الله ﷺ بعد خروجه من الشعب ، وفد نصارى نجران بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة ، فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها فى كتبهم ، وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك ، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم ، فقال لهم أبو جهل : ما رأينا ركبا أحمق منكم ، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم ، فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه ، فأنزل الله فى ذلك قوله فى سورة القصص : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ إلى آخر الآيات[2] .

والمعنى : أن جماعة من أهل الكتاب آمنوا بنبيهم ولم يحرفوا كلم كتبهم ، وبشارتها بالنبى العربى ، فهم قد آمنوا به أولاً بظهر الغيب ، ثم آمنوا به ثانياً إيمان مشاهدة وإقرار بما سبق ، وإذا يتلى على هؤلاء القرآن

---

(١) القصص ٥٢ : ٥٥ .

(٢) نور اليقين للخضرى ٦٢ .

قالوا : آمنا به وصدقنا من جاء على لسانه ، لأنه الحق النازل من ربنا ، ونحن أدرى به من غيرنا إنا كنا من قبل نزوله مسلمين ومنقادين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، مرة لإيمانهم بكتابهم ونبيهم ، ومرة لإيمانهم بالقرآن والنبى محمد ﷺ ، وصبرهم على ذلك كله وهم يدفعون بالحسنة السيئة ويدفعون الشر بالخير ، وينفقون مما رزقهم الله فى سبيله وابتغاء مرضاته ، وإذا سمعوا لغواً من قول المشركين أو أصابهم أذى منهم أعرضوا عنهم ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم سلام ترك وموادعة نحن لا نبتغى الجاهلين ولا نطلب مصاحبتهم .

وبالجملة فقد جاءت فى القرآن آيات تمدح وتثنى على فريق من أهل الكتاب ، وتصفهم بالإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات ، وهؤلاء هم القلة القليلة من أهل الكتاب الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه السابقة ، ثم اعتنقوا الإسلام فآمنوا بمحمد ﷺ وكتابه ، وعملوا بتشريعه وانقادوا لأحكامه .

ومع أن أسباب نزول هذه الآيات ومعانيها ظاهرة الدلالة فى ذلك ، فإن أهل الكتاب يحاولون مكابرين حملها على الكثرة الكاثرة من أهل الكتاب الذين لم يعتنقوا الإسلام متجاهلين أسباب نزولها ومعانيها الواضحة ، ليدخلوا فى روع الناس أنهم على حق وإن لم يعتنقوا الإسلام ، وأنهم ناجون فى الآخرة من عذاب الله وإن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ويعملوا بتشريع القرآن وجاءت فيه آيات تذم من لم يعتنق الإسلام من أهل الكتاب ، وهم الكثرة الكاثرة ، وتدمغهم مرة بالفسق كقوله تعالى : ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾[1] .

ومرة بالكفر وأخرى بالشرك كقوله تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾[2] وكقوله تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن**

---

(١) آل عمران ١١٠ .

(٢) المائدة ٧٢ .

مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾[2] .

والآيات التى تثبت كفر من لم يعتنق الإسلام من أهل الكتاب وخلوده فى النار والتى سبق الكثير منها — ويأتى مزيد منها فى المبحث الثالث من الفصل الثالث — فإنهم يتجاهلونها مكابرة وعناداً ، ولا يذكرونها فى رسائلهم التى ينشرونها ، كما لا يذكرون شيئاً من النصوص الكثيرة الصريحة التى تقدمت فى عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها من الشرائع السماوية ، حتى لا تكون حجة عليهم ، ويحاولون أن يلبسوا أنفسهم ثياب من أسلم من أهل الكتاب ، فيتمسحون فى الآيات التى نزلت فى القلة القليلة التى أسلمت منهم ، وما هم فى ذلك إلا كما قال الله : ﴿ **ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا** ﴾[3] .

والآيات التى نزلت فى الفريقين من أهل الكتاب من اعتنق منهم الإسلام ومن لم يعتنق تقدمت مفصلة فى المبحث الخامس والسادس من الفصل الأول ، وفى المبحث السادس من الفصل الثانى ، ويأتى لها مزيد فى المبحث الثالث من الفصل الثالث .

هذا ، والقرآن الكريم مع إقامته للحجج النيرة والبراهين الساطعة على عقائد الإيمان وأركان الإسلام ، ومع حسن بيانه لأحكامه ، وتعليله لتشريعه ، وتفصيله بما فيه الكفاية ، ويربو على الغاية ، فإن أكثر أهل الكتاب — حسداً وبغيا ، وحرصاً منهم على مظاهرهم فى هذه الحياة — لايؤمنون بما فيه من نقل ، ولا يخضعون لعقل ﴿ **وإذا ذكروا لايذكرون * وإذا رأوا آية يستسخرون**[4] ﴾[5] ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، حتى تحقق فيهم قوله تعالى : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾[6] وقوله تعالى : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون** ﴾[7] .

---

(١) التوبة ٣١ .
(٢) البينة ٦ .
(٣) الكهف ٥٦ .
(٤) يبالغون فى سخريتهم .
(٥) الصافات ١٣ ، ١٤ .
(٦) يونس ٩٦ ، ٩٧ .
(٧) البقرة ٧٥ .

المبحث الثانى عشر

البابا شنودة يؤول آيات القرآن تبعاً لهواه

وإليك ذلك والرد عليه :

أ ــ قال البابا شنودة فى ص ٤ : ووصف القرآن النصارى بأنهم ذوو رأفة ورحمة ، وقال فى ذلك ﴿ وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ سورة الحديد ٢٧ .

والجواب عن ذلك :

أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ جعل فى قلوب حوارى المسيح وأصحابه السابقين الذين آمنوا به وبالإنجيل ، وما جاء فيه من التبشير بمحمد ﷺ رأفة ورحمة فيما بينهم ، أى إنهم كانوا متوادين بعضهم مع بعض ، كما جعل ذلك فى قلوب أصحاب محمد ﷺ فقال تعالى : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[1] .

أما الذين لم يؤمنوا بما جاء فى الإنجيل من التبشير بمحمد ﷺ إيماناً حقاً يدفعهم إلى الإسلام فليس عندهم هذه الرأفة والرحمة .

وإلا فأين المودة والرحمة فى قلوب النصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وبما جاء فى الإنجيل من التبشير به ؟ ألم يقتلوا بعض النصارى الذين آمنوا بالشام فى حياته ﷺ وعلى رأسهم فروة بن عمرو الجذامى عامل الروم بمعان على من يليهم من العرب ؟ ألم يقتل الصليبيون من المسلمين سبعين ألفاً فى بيت المقدس بعد أن أعطوهم عهداً بالأمان ؟ ألم تفتك المسيحية بالمسلمين فى

---

(١) آخر الفتح .

بلاد الأندلس حتى قتلت مائة ألف مهاجر مسلم من قافلة واحدة مهاجرة ؟ هل نسيتم ما فعلته فرنسا بالجزائر المسلمة ؟ وما فعلته إيطاليا فى ليبيا ؟ وما فعلته انجلترا بمسلمى الهند ؟ وما فعلته الحبشة المسيحية بمسلمى الحبشة ، وأريتريا وعفر ، ولا تزال تفعله حتى الآن ؟ وما فعلته المسيحية وتفعله بمسلمى الفلبين ، وما تفعله المسيحية بالأقلية الإسلامية فى الدول الأفريقية والآسيوية ، وبالمسلمين فى كل مكان ؟ وسيأتى لذلك مزيد تفصيل وبيان .

ب ـــ وقال البابا شنودة فى ص ٤ أيضاً : واعتبرهم القرآن أقرب الناس مودة للمسلمين ، وسجل ذلك فى سورة المائدة حيث يقول : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾(١) .

وقال فى ص ٥ : ونلاحظ فى هذه الآية القرآنية تمييز النصارى عن الذين أشركوا لأنها هنا تذكر ثلاث طوائف واجهها المسلمون ، وهى : اليهود والذين أشركوا فى ناحية ، والنصارى فى ناحية أخرى ، فلو كان النصارى من المشركين لما صح هذا الفصل والتمييز ـــ إن التمييز والفصل بين النصارى والمشركين أمر واضح جداً فى القرآن ، ولا يقتصر على النص السابق ، وإنما سنورد هنا أمثلة أخرى منها قوله : **﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾**(٢) .

يراجع فى هذا المبحث السادس من الفصل الأول فقد وفى هذا الموضوع حقه .

جـ ـــ وإن تعجب فعجب له إذ يقول فى ص ٥ أيضاً :

إن الله ميز النصارى عن المشركين ، وهذا التمييز نجده فى الآية ١٨٦ من سورة آل عمران .

---

(١) المائدة ٨٢ .

(٢) الحج ١٧ .

ورداً على ذلك أقول :

الآية هي قوله تعالى : ﴿ **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ .

وهذه الآية عليه لا له ، لأن الله وإن كان فرق بينهم فى اللفظ ، فذكر اليهود والنصارى بلفظ « أوتوا الكتاب » وذكر عباد الأوثان بلفظ « والذين أشركوا » فقد ربط بين الفريقين فى الشر والإضرار بالمسلمين ، وإليكم معنى الآية لتروا أنها عليه لا له .

فالله يقول : تأكدوا أيها المؤمنون أنكم ستختبرون فى أموالكم بالنقص أو الإنفاق وفى أنفسكم بالجهاد والقتل ، وبالأمراض والآلام ، وأنكم ستسمعون من اليهود والنصارى والمشركين كثيراً مما يؤذيكم من السب والطعن ، وإن تقابلوا ذلك بالصبر وتقوى الله فإن ذلك من الأمور الصالحة التى يجب العزم على تنفيذها كما ربط بينهم وبين المشركين فى كراهة الخير للمسلمين فقال تعالى : ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم** ﴾[1] .

د ــ وفى ص ٥ كذلك أخذ يستدل على أن النصارى ناجون فقال : أما الآن فيكفى فى نظرة القرآن إلى إيمان النصارى أن نورد قوله :

﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[2] .

ودحضاً لهذا الافتراء أقول : هذه الآية لا تدل على مدعاه لما يأتى :

١ ــ أن معنى الآية أن المؤمن بمحمد ﷺ وكتابه إذا ثبت على إيمانه ولم يبدله ، واليهودى والنصرانى والصابىء إذا آمنوا بمحمد ﷺ ، وبما جاء به ،

---

(١) البقرة ١٠٥ .

(٢) البقرة ٦٢ .

وباليوم الآخر ، وعملوا صالحاً ولم يغيروا حتى ما توا على ذلك فلهم ثواب أعمالهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

٢ ـــ وأيضاً الاقتصار فى الآية على ذكر الإيمان بالله دون قرنه بذكر الإيمان بالنبوة وغيرها من أركان الإيمان المعروفة إنما هو لاستلزامه لها ، وعدم اعتباره بدونها ، وهو الأصل المتضمن لها .

وإنما يستلزم الإيمان بالله الإيمان بالنبوة ، لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا إذا حصل الإيمان بكون الله تعالى صادقاً فى جميع ما أخبر به ، والإيمان بهذا الصدق لا يحصل إلا إذا كان الذى أظهر المعجز على وفق دعواه صادقاً لأن المعجز قائم مقام التصديق بالقول ، فلما ظهر المعجز على وفق دعوى محمد ﷺ كان من ضرورة الإيمان بالله الإيمان بنبوة محمد ﷺ ، فكان الاقتصار على ذكر الإيمان بالله تنبيهاً على هذه الدقيقة .

ولذا قال الإمام فخر الدين الرازى[(١)] : واعلم أنه قد دخل فى الإيمان بالله الإيمان بما أوجبه . أعنى الإيمان برسله ، ودخل فى الإيمان باليوم الآخر جميع أحكام الآخرة . أ . هـ

ومن زعم أن الإيمان بالله دون الإيمان بالنبوة صحيح فقد كفر كفراً ليس فوقه كفر ، لأنه معارض لتصديق الله لرسوله فى تأييده بالمعجزة على وفق دعواه ، ورد على الله بالتكذيب ، وليس فوق ذلك كفر وإلحاد .

وما أبلغ الرد على هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾[(٢)] .

٣ ـــ أن ابن تيمية قال[(٣)] : إنه لا حجة لهم فى هذه الآية على مطلوبهم ، فإنه يسوى بين النصارى واليهود والصابئين ، وهم مع المسلمين متفقون على أن

---

(١) فى تفسيره ١ / ٣٧٠ .

(٢) النساء ٦٥ .

(٣) فى الجواب الصحيح رداً على ادعاء النصارى أن القرآن سوى بين جميع الأديان بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين** . . . ﴾ الآية .

اليهود كفار من حيث بعث المسيح إليهم فكذبوه ، وكذا الصابئون من حيث بعث إليهم رسول فكذبوه فإن كان فى الآية مدح لدين النصارى الذى هم عليه بعد بعث محمد ﷺ ففيها مدح لدين اليهود أيضاً ، وهذا باطل عند النصارى والمسلمين ، وإن لم يكن فيها مدح لليهود بعد النسخ والتبديل فليس فيها مدح لدين النصارى بعد النسخ والتبديل ، وكذا يقال لليهودى إن احتج بها على صحة دينه .

وأيضاً فإن النصارى يكفرون اليهود ، فإن كان دينهم حقاً لزم كفر اليهود ، وإن كان باطلاً لزم بطلان دينهم ، فيمتنع أن تكون الآية مدحتهما وسوت بينهما ، فعلم أنها لم تمدح واحداً منهما بعد النسخ والتبديل .

وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمحمد وكتابه والذين كانوا على شريعة موسى قبل النسخ والتبديل ، والذين اتبعوا المسيح قبل نسخ شريعته وتبديلها بالإسلام والصابئين الحنفاء الذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ ، فهؤلاء ونحوهم الذين مدحهم الله بقوله : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا** . . ﴾ إلخ .

فأهل الكتاب بعد النسخ ليسوا ممن آمن بالله ولا باليوم الآخر وعمل صالحاً ، كما قال تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب** ﴾[1] .

وقد كفر القرآن أهل الكتاب الذين بدلوا دينهم وكذبوا برسولهم أو بمحمد ﷺ وتلك آيات صريحة ، ونصوص كثيرة ، وهذا متواتر معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ . أ . هـ

٤ ــ تقدم فى مبحث عالمية الرسالة المحمدية ستون نصاً على عمومها وشمولها لجميع البشر بما فيهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وأن من لم يؤمن بمحمد ﷺ وكتابه بعد بعثته ، ويعمل بمقتضى إيمانه يعتبر كافراً ومخلداً فى النار ، وذلك معلوم من الدين بالضرورة .

---

(١) التوبة ٢٩ .

هذا : ويلاحظ أن النصارى يسلكون فى القرآن ما سلكوا فى التوراة والإنجيل فيتركون النصوص المحكمة الصريحة الواضحة التى لا تحتمل إلا معنى واحداً ، مثل قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾ ويتمسكون بالمتشابه المحتمل وإن كان فيه ما يدل على خلاف مرادهم .

هـ ــ وقال فى ص ٦ :

وكون القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فهذا يعنى صحة الإنجيل والتوراة ، وسلامتهما من التحريف ، وإلا فإنه يستحيل على المسلم أن يؤمن بأن القرآن نزل مصدقاً لكتاب محرف . أ هـ

والجواب : أن القرآن لا يصدق إلا ما جاء فى التوراة التى أنزلها الله على موسى عليه السلام ، وبشرت برسالة محمد ﷺ ولم يحرف أو يبدل أو ينسى ولا يصدق إلا ما جاء فى الإنجيل الواحد الذى أنزل على عيسى عليه السلام ، وبشر برسالة محمد ﷺ ، ولم يحرف أو يبدل أو ينسى كذلك .

أما التوراة والأناجيل الموجودة حالياً فقد وقع فيها ذلك كما تقدم وافياً فى المبحث الثالث والرابع من هذا الفصل .

و ــ ثم قال :

كذلك لو كان التوراة والإنجيل قد لحقهما التحريف ما كان يأمر قائلاً : ﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾[1] بل ما كان يصدر أيضاً ذلك الأمر .

﴿ **قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم** ﴾[2] .

وإجابة على ذلك أقول :

---

(١) المائدة ٤٧ .

(٢) المائدة ٦٨ .

أما تحريف التوراة والإنجيل فهذا أمر مقطوع به كما سبق فى المبحث الثالث والرابع من هذا الفصل .

وأما قوله تعالى : ﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ .

فمعناها وقال الله لأهل الإنجيل عند نزوله : احكموا بما أنزل الله فيه من الأحكام والتشريعات والبشارة ببعثة محمد ﷺ ، والتزموا الأمر بتصديقه واتباعه عند بعثته والعمل بما جاء فى كتابه ، كما قال تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** ﴾[1] .

ولكن النصارى غيروا فى الإنجيل وحرفوا كلمه من بعد مواضعه ، ولم يحكموا به ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الخارجون عن حدود الدين والعقل ، وعلى ذلك فأمر الله أهل الإنجيل أن يحكموا بما جاء فيه إنما كان عند نزوله ، أى قبل التحريف والتغيير فيه ، فلا تعارض فى ذلك .

وأما قوله تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ فهى حجة عليكم لا لكم ، وقد سبق الكلام عليها تفصيلا فى أول المبحث العاشر من هذا الفصل .

* * *

---

(١) الأعراف ١٥٧ .

الفصل الثالث

أهل الكتاب كفروا بالرسالة المحمدية وعلماؤهم موقنون بحقيتها

وبه ثلاثة مباحث

- علماء أهل الكتاب يعلمون يقينا أن القرآن حق .
- ويعلمون يقيناً أن محمدا ﷺ صادق فى دعواه الرسالة .
- من لم يؤمن من أهل الكتاب برسالة محمد ﷺ وكتابه فهو كافر ومخلد فى النار .

مقدمة

لقد كفر أهل الكتاب بالقرآن الكريم ، وبرسالة خاتم النبيين محمد ﷺ وعلماؤهم يعلمون جازمين أن القرآن حق ، وأن محمدا رسول الله للعالمين صدقا فاستحقوا الخلود فى نار جهنم وهم على بينة من أمرهم وإليك بيان ذلك فى المباحث الثلاثة الآتية :

* * *

المبحث الأول

علماء أهل الكتاب يعلمون يقينا أن القرآن حق

لقد كفر من كفر من أهل الكتاب بالقرآن الكريم، وعلماؤهم يعلمون علماً يقينياً أنه حق، وأن كل ماجاء به صدق، ولكنهم جحدوه ظلما وعلوا، وحرصا على سلطانهم وجاههم، وبغيا وحسدا لأمة القرآن، فكانوا فى كفرهم على بينة من أمرهم، فضلوا وأضلوا، وتحملوا أوزارهم وأوزار من اتبعهم، وإليك أدلة ذلك من القرآن الذى يحتجون به علينا فيما يوافق أهواءهم.

١ ــ قال تعالى: **﴿يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾**(١) أى ولا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذى تفترونه وتخترعونه، ولا تحرفوا مافى التوراة بالبهتان الذى تفترونه، ولا تخفوا مافى كتابكم من أوصاف محمد ــ ﷺ ــ وأنتم تعلمون أنه حق وأن ماجاء به حق.

٢ ــ وقال: **﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾**(٢).

٣ ــ وقال: **﴿ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾**(٣)

---

(١) البقرة ٤٠: ٤٢. (٢) البقرة ٨٩، ٩٠. (٣) آل عمران ٧٠.

أى لم تكفرون بآيات القرآن وأنتم تعلمون صدقها، وتتحققون حقها .

٤ ــ وقال : ﴿**قل يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ماتعملون**﴾(١) فقد سجل الله عليهم فى هذه الآية كفرهم بآيات الله، وتوعدهم على ذلك بالعذاب الأليم وهو الخلود فى النار .

٥ ــ وقال : ﴿**أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين**﴾(٢) .

والمعنى: قل ــ يامحمد ــ لهؤلاء القوم: عجبا لكم! أأضل عن الصراط المستقيم، فأطلب حكما سوى الله ليحكم بينى وبينكم، ويفصل المحق من المبطل، والحال أنه هو الذى أنزل إليكم القرآن مبيناً فيه الحق والباطل، وما أنتم فى حاجة إليه فى دينكم ودنياكم، ثم أكد حقية نزول القرآن من عند الله، وحقية مافيه، فذكر أن الذين أوتوا الكتاب من علماء اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين أن هذا القرآن منزل حقاً عليك من ربك، مشتملاً على الحق كما قال: ﴿**وبالحق أنزلناه وبالحق نزل**﴾(٣) .

وقوله: ﴿**فلا تكونن من الممترين**﴾ أى فلا تكونن من الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق، ولا يَرِبْك جحود أكثرهم وكفرهم به؛ لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك مرده البغى والحسد، والحرص على مظاهر الحياة، وهذا النهى زيادة فى التأكيد، وتثبيت اليقين كى لايجول فى خاطره طائف من التردد فى هذا اليقين، وإلا فهو كإخوانه المرسلين على حجة واضحة من أمر ربه، كما قال تعالى: ﴿**قل إنى على بينة من ربى**﴾(٤) .

٦ ــ وقال تعالى: ﴿**والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه**﴾(٥) .

والمعنى: والذين أعطوا علم الكتب المنزلة من شأنهم أن يفرحوا بالكتاب

---

(١) آل عمران ٩٨ .
(٢) الأنعام ١١٤ .
(٣) الإسراء ١٠٥ .
(٤) الأنعام ٥٧ .
(٥) الرعد ٣٦ .

الذى أنزل عليك ؛ لأنه امتداد للرسالة الإلهية ، ولا يفرح بالشيء إلا من يعلم أنه حق لاكذب ، ومن يتخذون التدين تحزبا ينكرون بعض ماأنزل إليك عداوة وعصبية .

٧ـــ وقال تعالى : ﴿**وإنه لفى زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل**﴾[١] وإنه : أى ذكر القرآن المنزل على محمد ﷺ لفى زبر الأولين : أى فى كتبهم .

والمعنى : وإن ذكر القرآن والإخبار عنه بأنه من عندالله نزل على محمد ـــ ﷺـــ لثابت فى كتب الأنبياء السابقين . أكفر هؤلاء المعاندون بالقرآن ، وعندهم حجة تدل على صدق محمدـــ ﷺـــ وحقية ماجاء به ، وهى علم علماء بنى إسرائيل بالقرآن كما جاء فى كتابهم .

٨ـــ وقال : ﴿**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين**﴾[٢] .

٩ـــ وقال : ﴿**وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون**﴾[٣] وما يجحد : الجحود إنكار باللسان لما هو ثابت فى القلب .

والمعنى : ومثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإنزال سائر الكتب أنزلنا إليك القرآن ، فالذين آتيناهم الكتاب من علماء اليهود والنصارى ، كعبد الله بن سلام ، وتميم الدارى ، وأضرابهما يؤمنون بالقرآن فى قرارة أنفسهم ، ومن هؤلاء العرب من يؤمن به كذلك ، وما ينكر بلسانه لما هو ثابت فى قلبه من آياتنا الظاهرة إلا المتوغلون فى الكفر ، المصرون عليه ، فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم إلى معرفة حقيقتها .

١٠ـــ وقال تعالى : ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايهدى القوم الظالمين**﴾[٤] .

---

(١) الشعراء ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٢) القصص ٥٢ ، ٥٣ .
(٣) العنكبوت ٤٧ .
(٤) الأحقاف ١٠ .

والمعنى: قل يامحمد لهؤلاء المشركين: أخبرونى عن حالكم، إذا كان القرآن من عند الله ــ لاسحر ولا مفترى كما تزعمون ــ وشهد شاهد عظيم الشأن من بنى إسرائيل على أنه من عند الله، فآمن بلا تردد، واستكبرتم أنتم عن الإيمان، وكفرتم بالقرآن، ألستم ظالمين لأنفسكم؟ بلى أنتم ظالمون لها، والله لايهدى القوم الظالمين.

فالمراد بالشاهد هنا الجنس، فيشمل كل من كان على هذه الصفة من اليهود، أو النصارى، وإن قال سعد بن أبى وقاص: (ماسمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض (إنه من أهل الجنة) إلا لعبد الله بن سلام. قال: وفيه نزلت هذه الآية ــ وشهد شاهد من بنى إسرائيل ــ الآية) رواه الشيخان(١).

١١ ــ وقال: ﴿إن هذا لفى الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى﴾(٢).

والمعنى: أن ماأوحاه، الله إلى نبيه ﷺ من أمر ونهى، ووعد ووعيد هو بعينه ماجاء فى صحف إبراهيم وموسى، فدين الله واحد، وإنما تختلف صوره وتتعدد مظاهره، فإذا كان المخاطبون قد آمنوا بإبراهيم أو بموسى فعليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأنه لم يأت إلا بما جاء فى صحفهم، وإنما هو مذكر، أو محيى لما مات من شرائعهم، ونحو الآية ﴿**وإنه لفى زبر الأولين**﴾، وقوله تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه..**﴾(٣).

* * *

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ٣/ ١٦٣.
(٢) آخر الأعلى.
(٣) الشورى ١٣.

المبحث الثانى

علماء أهل الكتاب يعلمون يقينا أن محمدا ﷺ صادق فى دعواه الرسالة

وأيضاً علماء أهل الكتاب يعلمون علماً يقينياً أن محمدا ﷺ صادق فى دعواه الرسالة ولكنهم يكتمونه عن قومهم محافظة على سلطانهم، وحظوظهم الدنيوية، والأدلة على ذلك كثيرة:

(أ) فمن القرآن

١ ــ قوله تعالى: ﴿**ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون**﴾[(١)] .

والمعنى: وحين جاء إلى أهل الكتاب وأحبارهم رسول من عند الله ــ وهو محمد ﷺ ــ مصدق لما معهم من كتب الله فى أصول الدين الذى ارتضاه الله لعباده، وهى تصدقه فى أنه النبى المنتظر، طرح فريق كبير من أهل الكتاب تعاليم كتبهم التى فيها البشارة بالنبى ﷺ وراء ظهورهم، وأعرضوا عنها إعراضا تاماً، حتى كأنهم لايعلمون عنها شيئا، فالآية مصرحة بأن كثيرا من أهل الكتاب نقضوا العهود التى أخذت عليهم فى كتبهم على ألسنة رسلهم بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويصدقوه عند ظهوره فيما يخبر به عن الله، وهذا النقض عن علم منهم بجرمهم.

وقد جعل تركهم إياها وإنكارهم لها، إلقاء لها وراء الظهر؛ لأن من يلقى الشيء وراء ظهره لايراه، فلا يتذكره.

---

(١) البقرة ١٠١ .

٢ ــ وقوله تعالى: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾**[١] .

والمعنى: علماء أهل الكتاب وأحبارهم يعرفون صفة النبى ﷺ التى فى كتبهم، والتى لاتنطبق إلا عليه كما يعرفون أبناءهم الذين يربونهم ولا يفوتهم شيء من أمرهم، حتى لقد قال عبد الله بن سلام رضى الله عنه ــ وقد كان من أحبار اليهود، ثم أسلم ــ: أنا أعلم به منى بابنى، فقال له عمر رضى الله عنه: ولمه؟ قال: لأنى لست أشك فى محمد أنه نبى، فأما ولدى فلعل والدته خانت. واعترف بمثل ذلك تميم الدارى من علماء النصارى[٢] .

وإن فريقاً من أهل الكتاب عاندوا وكتموا الحق الذى يعرفونه من نعت محمد ﷺ، وأنه نبى، وأن الكعبة قبلة، وأضاف الكتمان إلى فريق منهم؛ لأنهم لم يكونوا كلهم كذلك؛ إذ منهم من اعترف بالحق وآمن واهتدى، ومنهم من جحد عن جهل، وكفر به تقليداً، ولو علمه حق العلم لجاز أن يقبله.

الحق هو ماصدر لك من الله، لامايضلل به أهل الكتاب، فلا تكونن من الشاكين فى كتمان أهل الكتاب الحق عالمين به والخطاب للرسول ﷺ، والمراد أمته إذ الشك لايتوقع منه.

٣ ــ وقوله تعالى: **﴿إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾**[٣] .

قال ابن كثير[٤]: قال أبو العالية: نزلت فى أهل الكتاب كتموا صفة محمد ﷺ .

والمعنى : أن أهل الكتاب الذين يخفون ماأنزل الله من الآيات البينات الدالة على نعــت خاتم الرسل ﷺ وصدقه، أولئك جزاؤهم الطرد من رحمة الله ودعاء

---

(١) البقرة ١٤٦، ١٤٧ .
(٢) انظر تفسير المنار للسيد رشيد ٢/ ٢٠ .
(٣) البقرة ١٥٩، ١٦٠ .
(٤) فى تفسيره ١/ ٢٠٠ .

الملائكة والناس جميعا عليهم بذلك، إلا من تاب وأصلح ماغير، وبيّن ماأخفى فأولئك يتوب الله عليهم، وهو المبالغ فى قبول التوبة ونشر الرحمة.

٤ ــ وقوله تعالى: **﴿ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾**(١).

والمعنى: ياأهل الكتاب لم تخلطون الحق الذى جاء به النبيون، ونزلت به كتبهم من عبادة الله وحده، والبشارة بنبى من بنى إسمعيل يعلم الناس الكتاب والحكمة بالباطل الذى لفقه أحباركم ورؤساؤكم بتأويلاتهم الفاسدة، وتجعلون ذلك دينا يجب اتباعه، وتقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله، وتخفون مافى كتبكم من صفة محمد ﷺ، وأنتم تعرفون ذلك، وتتحققونه ولكنكم تفعلونه عناداً وحسداً.

٥ ــ وقوله تعالى: **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون﴾**(٢).

والمعنى: أن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون صفة محمد ﷺ ونعته معرفة تماثل معرفة أبنائهم الذين هم من أصلابهم، وذلك بسبب ماعندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ، وصفته وبلده، ومهاجره، وصفة أمته.

ثم بين الله السبب فى عدم إيمانهم وهو أنهم خسروا أنفسهم بإفساد فطرتها، وعدم اهتدائها بما منحها الله من الهدايات وإصرارهم على العناد والجحود، فلذا لايتسرب الإيمان إلى قلوبهم، لأنها قست وأظلمت وران عليها ماكانوا يكسبون.

٦ ــ وقوله تعالى: **﴿ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوارة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾**(٣).

---

(١) آل عمران ٧١ . (٢) الأنعام ٢٠ . (٣) الأعراف ١٥٦، ١٥٧ .

والمعنى: ورحمتى عمت كل شيء فى الدنيا، فسأكتبها فى الآخرة للذين يتقون الكفر والمعاصي ويؤدون الزكاة المفروضة، والذين يصدقون بجميع الكتب المنزلة، وأخص بها الذين يتبعون الرسول محمدا لايكتب ولا يقرأ، وهو الذى يجدون وصفه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل، يأمرهم بكل خير، وينهاهم عن كل شر، ويحل لهم الأشياء التى يستطيبها الطبع، ويحرم عليهم الأشياء التى يستخبثها الطبع كالدم والميتة، ويزيل عنهم الأثقال والشدائد التى كانت عليهم، فالذين صدقوا برسالته، وآزروه وأيدوه، ونصروه على أعدائه، واتبعوا القرآن الذى أنزل معه كالنور الهادى، أولئك هم الفائزون دون غيرهم ممن لم يؤمنوا به.

٧ــ وقوله تعالى: ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب**﴾[١].

والمعنى: ويقول الذين كفروا برسالة محمد ﷺ وجحدوا نبوته لست مرسلا للناس تخرجهم من الظلمات إلى النور، وتهديهم إلى الصراط المستقيم قل لهم ــ يامحمد ــ: كفى بالله شهيداً بينى وبينكم على صدقى بما أنزله على من القرآن المعجز، وما أيدنى به من الآيات البينات، كفى به تعالى شهيدا، وبمن عنده علم الكتاب، من علماء اليهود والنصارى، الذين علموا صدقى وصدق ماأنزل على من كتبهم فآمنوا بى، وصدقوا بالقرآن، فالمراد بالكتاب جنس الكتاب المنزل الشامل للتوراة والإنجيل وغيرهما، فإن علماء اليهود والنصارى الذين تخلصوا من التقليد الأعمى فآمنوا بالله، وصدقوا برسوله محمد ﷺ يعلمون حقا أن النبى محمدا ﷺ هو المبشر به عندهم، وأنه هو النبى المبعوث فى آخر الزمن كما يأتى.

٨ــ وقوله تعالى: ﴿**وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين**﴾[٢].

(ب) ومن التوراة:

٩ــ فى سفر التثنية ١٨ [١٨ أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل

---

(١) آخر الرعد. (٢) الصف ٦.

كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ماأوصيه به] الخطاب لموسى ــ عليه السلام ــ وإخوة الإسرائيليين أولاد إسمعيل، ومعنى جعل كلام الله فى فيه، أنه لاينطق عن الهوى، ولا يقرؤه فى كتاب؛ لأنه أمى، وإنما يتلقاه عن الله تعالى حافظا له، ويلقيه على أمته، وهذه الأوصاف لاتنطبق إلا على محمد ﷺ، ولأنه المماثل لموسى فى الشريعة المستأنفة.

١٠ ــ وفى التثنية أيضاً ٣٣ [١ فقال ــ أى موسى ــ : جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران] ، فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى ــ عليه السلام ــ وإشراقه من سعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام، واستعلانه من فاران إنزاله القرآن على محمد ﷺ؛ لأن فاران جبل من جبال مكة، ففى سفر التكوين ٢١ فى بيان حال إسمعيل [٢١ وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر] .

(جـ) ــ ومن الإنجيل:

١١ ــ فى إنجيل يوحنا ١٤ [١٦ وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعَزِّيا آخر يمكث معكم إلى الأبد] معزيا: أى معزيا للمؤمنين على عدم إيمان الكافرين، ومعزيا أيضاً للمصابين والمرضى والفقراء.

١٢ ــ وفى يوحنا أيضاً ١٥ [٢٦ ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى ٢٧ وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معى من الابتداء].

١٣ ــ وفيه كذلك ١٦ [٧ لكنى أقول لكم الحقَّ إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لايأتيكم المُعَزِّى، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم]..

١٤ ــ وفى نفس الإصحاح [١٣ وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لايتكلم من نفسه، بل كل مايسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية] فكل هذه الأمور والأوصاف لاتنطبق إلا على محمد ﷺ، خاصة، وأنه لانبى بعد عيسى ــ عليه السلام ــ غيره .

(د) ومن السنة النبوية :

١٥ ـــ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـــ رضى الله عنهما ـــ قال ـــ ذاكرا صفة رسول الله ﷺ فى التوراة : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن (ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزا للأميين.أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما ، وقلوبا غلفا)[١] السخب : رفع الصوتِ بالخصام . حرزا : حافظا . غلفا : كل شىء فى غلاف .

١٦ ـــ وعن أنس بن مالك قال : «فلما جاء نبى الله ﷺ[٢] جاء عبد الله ابن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق . .» الحديث[٣] .

١٧ ـــ وقال هرقل لأبى سفيان ـــ بعد أن سمع منه أوصاف النبى ﷺ : (إن يك ماتقول فيه حقا فإنه نبى ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أك أظنه منكم ، ولو أنى أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وليبلغنّ ملكه ماتحت قدمىّ . .)[٤] .

١٨ ـــ وعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : «يامعشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى قد جئتكم بحق ، فأسلموا . .» الحديث[٥] .

١٩ ـــ وعن أبى صخر العقيلى قال : «حدثنى رجل من الأعراب ، فقال : جلبت حلوبة إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعى قلت : لألقينّ هذا الرجل فلأسمعنّ منه ، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ، ناشرا التوراة يقرؤها ، يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت ، كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال له رسول الله ﷺ : (أنشدك بالذى أنزل التوراة ، هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى)؟ فقال برأسه هكذا ، أى

---

(١) البخارى ٣ / ١٣٩ .
(٢) أى إلى دار أبى أيوب الأنصارى حين دخل المدينة مهاجراً .
(٣) رواه البخارى فى ٥ / ١٦٢ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان ٢ / ٢٢١
(٥) رواه البخارى فى ٥ / ١٦٢ .

لا ، فقال ابنه : إى والذى أنزل التوراة ، إنا لنجد فى كتابنا صفتك ، ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله . فقال الرسول ﷺ أقيموا اليهودى عن أخيكم ، ثم تولى كفنه والصلاة عليه » رواه أحمد[1] .

٢٠ ـ وعن صفية بنت حيى بن أخطب رضى الله عنها ، قالت : « كنت أحب ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما فى ولد لهما قط ، وأهش إليهما ، إلا أخذانى دونه ، فلما قدم النبى ﷺ ، ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف ، غدا إليه أبى وعمى أبو ياسر مُغَلِّسَيْنِ ، قالت فوالله مارجعا إلا مع مغيب الشمس ، قالت : فرجعا إلينا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله مانظر إلى واحد منهما ، مع مابهما من الغم ، قالت : وسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه بنعته وصفته ؟ قال : نعم والله . قال : فماذا فى نفسك منه ؟ قال : عداوته مابقيت »[2] .

٢١ ـ وقال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن سفيان عن ابن السلمانى عن كرز بن علقمة ، قال : قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكبا منهم أربعة وعشرون رجلا من أشرافهم ، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يئول أمرهم : العاقب أمير القوم ، وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ، والذى لايصدرون إلا عن رأيه وأمره ، واسمه عبد المسيح ، والسيد : ثما لهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بنى بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم ، وصاحب مدراسهم .

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم ، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومّولوه وأخدموه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم .

فلما وجهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له مُوجِّهاً إلى رسول الله ﷺ وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة يسايره ، إذ عثرت بغلة أبى حارثة ، فقال له كرز تعس الأبعد ، يريد رسول الله ﷺ فقال له

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥١ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٩ .

أبو حارثة : بل أنت تعست ، فقال : ولم ياأخى ؟ فقال : والله إنه النبى الأمى الذى كنا ننتظره ، فقال له كرز : فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا ؟

فقال : ماصنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا وموّلونا وأكرمونا ، وقد أبوا إلا خلافه ، ولو فعلت نزعوا منا كل ماترى ، فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك[1] .

٢٢ ــ ولما حاصر الرسول ﷺ بنى قريظة وأيقنوا أنه غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم : (يامعشر يهود قد نزل بكم من الأمر ماترون ، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم .

قالوا : وما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم ، وأبنائكم ونسائكمَ . قالوا : لانفارق حكم التوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره ..) الخ[2] .

٢٣ ــ وقال عمرو بن سعدى لبنى قريظة : (ياقوم قد رأيتم مارأيتم فأطيعونى وتعالوا نتبع محمدا ــ والله إنكم لتعلمون أنه نبى ــ قد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان أبو عمير ، وابن حراش ، وهما أعلم يهود جاءانا يتوكفان[3] قدومه ، وأمرانا باتباعه ، جاءانا من بيت المقدس ، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام ، ثم ماتا على دينهما ، ودفناهما بحرتنا هذه ، فأسكت القوم ، فلم يتكلم منهم متكلم ، ثم أعاد هذا الكلام ونحوه ، وخوفهم بالحرب والسباء والجلاء .

فقال الزبير بن باطا : قد والتوراة قرأت صفته فى كتاب باطا التوراة التى نزلت على موسى ، ليس فى المثانى الذى أحدثنا . قال : فقال له كعب بن أسد : مايمنعك ياأبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ قال : أنت ياكعب . قال كعب : فلم ؟ والتوراة ماحلت بينك وبينه قط . قال الزبير : بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا ، فإن اتبعته اتبعناه ، وإن أبيت أبينا ، فأقبل عمرو بن سُعدى على كعب فذكر ماتقاولا فى ذلك ، إلى أن قال عمرو : ماعندى فى أمره إلا ماقلت ، وما تطيب نفسى أن أصير تابعا) رواه البيهقى[4] .

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٣٨ (٢) سيرة ابن هشام ٣ / ١٤٢ . (٣) يتوقعان (٤) البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٨٠

المبحث الثالث

من لم يؤمن من أهل الكتاب برسالة محمد ﷺ وكتابه فهو كافر ومخلد فى النار

إن أهل الكتاب ــ مع جزم علمائهم بأن القران حق ، وأن رسالة محمد ﷺ حق كما سبق ــ ينكرون حسدا وبغيا نسخ القرآن الكريم لشريعتهم، ويدعون أن من مات منهم على يهوديته ، أو نصرانيته فى عهد الرسالة المحمدية فهو مؤمن، وناج من عذاب الله وإن لم يؤمن برسالة محمد ﷺ وبكتابه الكريم .

ودحضا لهذا الافتراء الكاذب ، والادعاء الباطل أقول : لقد نزلت كثرة كاثرة من الآيات القرآنية المتواترة . وتوالت البينات الساطعة على أن رسالة محمد ﷺ وكتابه الكريم جاءا لعقلاء العالمين عامة ، وللبشر كافة ، وأصبح ذلك معلوما من الدين الإسلامى بالضرورة ، وصار من المقطوع به أن الشريعة المحمدية ناسخة للشريعة اليهودية والمسيحية ، وغيرهما من الشرائع السماوية ، فمن لم يؤمن من أهل الكتاب وغيرهم برسالة محمد ﷺ وبالقرآن الكريم إيمان إذعان وانقياد فهو كافر ومخلد فى النار ، والنصوص على ذلك كثيرة منها :

١ ــ قوله تعالى : **﴿يابنى إسرائيل اذكروا نعمتي التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون﴾**[١] فقد بينت هذه الآية أن من لم يؤمن بالقرآن فهو كافر ، ولا شك أن الكافر مخلد فى النار .

---

(١) البقرة ٤٠ ، ٤١ .

٢ ـــ وقوله تعالى: ﴿**ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين. وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم**﴾[١].

سبب النزول: عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ماكانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء، وداود بن سلمة: يامعشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته. فقال سلام بن مشكم أحد بنى النضير: ماجاءنا بشىء نعرفه، وما هو بالذى كنا نذكر لكم، فأنزل الله ﴿**ولما جاءهم كتاب من عند الله..**﴾ الآية[٢].

والمعنى: كان اليهود ـــ وعندهم فى التوراة وصف النبى ﷺ وبيان زمانه ـــ يمنون أنفسهم بالنصر على المشركين، وكانوا يقولون: اللهم انصرنا بالنبى المبعوث آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة، فلما جاءهم النبى ﷺ ومعه القرآن مصدقاً لما عندهم من التوراة ومؤيداً بنعته المعروف عندهم كفروا به، واستكبروا وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة، فلعنة الله عليهم فى الدنيا والآخرة.

ولما كان اليهود المعاصرون للنبى ﷺ يعرفون حقا أنه النبى المبشر به فى التوراة، ولكنهم لم يؤمنوا به حسدا وبغيا، فقد باعوا حظهم الحقيقى ـــ وهو الإيمان بالله ورسوله، وما يترتب عليه من الثواب فى الدنيا والآخرة ـــ وأخذوا بدله كفرهم بما أنزل الله، وما يترتب عليه من العقاب فى الدنيا والآخرة، وما دفعهم إلى ذلك إلا الحسد والبغى، وخوف ضياع الرياسة والمال من أيديهم، فهم قد رجعوا من الله بغضب جديد عظيم[٣]، لكفرهم بالنبى ﷺ؛ لأن الله أنزل عليه الكتاب من فضله، وكانوا لجهلهم بالدين يدعون أنهم أحق ـــ على غضب

---

(١) البقرة ٨٩: ٩١ .   (٢) لباب النقول للسيوطى ١/ ١٣ .   (٣) فالتنكير للتعظيم .

استحقوه من قبل لتضييع التوراة، والكفر بعيسى ـــ عليه السلام ـــ وللكافرين عذاب شديد الإهانة والإذلال، لتكبرهم عن اتباع الحق والخضوع له.

وإذا قيل لهم آمنوا بالقرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ قالوا لانؤمن به، وإنما نؤمن بالذى أنزل علينا، وهو التوراة، ويكفرون بغيره، مع أن القرآن هو الحق المصدق لما فى التوراة التى أنزلها عليهم، فكفرهم بالقرآن كفر بالتوراة نفسها؛ إذ الكل من عند الله، والكافر بذلك مخلد فى النار.

٣ ـــ وقوله تعالى: ﴿**من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين. ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون**﴾[١].

والمعنى: من كان عدواً لله وملائكته وكتبه، وخاصة القرآن الكريم، ورسله خصوصاً محمد وجبريل وميكال، فإن الله عدو له ومجازيه على ذلك، لأن تلك العداوة كفر عظيم تستحق العذاب الشديد.

ولقد أنزلنا إليك ـــ يامحمد ـــ آيات واضحات قد دلت على صدق رسالتك، ولا يكفر بها إلا الخارجون عن طاعة الله، المتمردون على آياته وأحكامه، وهؤلاء هم أصحاب النار، وهم فيها خالدون.

٤ ـــ وقوله تعالى: ﴿**ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون**﴾[٢].

والمعنى: ولما جاء أهل الكتاب رسول من عند الله ـــ وهو محمد ﷺ ـــ بكتاب مصدق لما معهم؛ إذ هو موافق للتوراة والإنجيل وسائر كتب الله فى الأصول الدينية العامة كتوحيد الله، وإثبات البعث والحياة الآخرة، وصدق الرسل، ترك فريق من أهل الكتاب كتاب الله ـــ وهو القرآن الكريم ـــ ولم يؤمنوا به، كأنهم لايعلمون أن من لم يؤمن بالقرآن الموافق لغيره من كتب الله لايكون مؤمنا بالكتب السابقة، ولا بالقرآن الكريم، وله عذاب أليم خالداً فيه.

٥ ـــ وقوله تعالى: ﴿**مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن**

---

(١) البقرة ٩٨، ٩٩. (٢) البقرة ١٠١.

ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[1] .

والمعنى: لايود الذين كفروا بالله سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين أن ينزل الله عليكم خيرا أبدا، كالقرآن والرسالة، والله لايقيم وزنا لما يرجون وما يكرهون، وهو يختص بالنبوة والخير من يشاء من عباده، لعلمه بمن هو أهل لذلك، وهو ذو الفضل العظيم، وقد وصف الله بالكفر أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وكتابه، والكافر مخلد فى النار.

٦ــ وقوله تعالى: **﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل. من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾**[2] .

والمعنى: الله لا إله إلا هو الدائم الحياة بلا بداية ولا نهاية، القائم بشئون خلقه على أتم وجه وأكمله، نزل عليك الكتاب الكامل وهو القرآن، متلبسا بالحق فى كل ماجاء به، مصدقا لكل ماسبقه من الكتب السماوية فى أصول الدين وأركانه، وأنزل من قبله التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، لهداية الناس، وأنزل الفرقان، وهو كل مايفرق بين الحق والباطل بقوة، فيشمل الكتب السماوية السابقة وغيرها، كصحف إبراهيم، وزبور داود، فهو من عطف العام على الخاص.

إن الذين كفروا بآيات الله فى كتبه المنزلة، وكونه الفسيح لهم عذاب شديد خالدين فيه، لأنهم دنّسوا أنفسهم بالكفر والضلال، والله قادر لايغلبه شيء، منتقم ممن يستحق الانتقام.

٧ــ وقوله تعالى: **﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾**[3] .

---

(١) البقرة ١٠٥ (٢) آل عمران ٢ : ٤ . (٣) آل عمران ١٩ .

والمعنى: أن الدين الحق المرضى عند الله هو الإسلام، وهو التوحيد الخالص من شائبات الشرك، وإخلاص العبادة لله وحده، والتزام أوامره ونواهيه وتشريعاته.

وما اختلف اليهود والنصارى فى أمر الإسلام ورسالة محمد ﷺ إلا بعد أن علموا بالحجج النيرة والآيات الباهرة، والبراهين الساحقة حقيقة ذلك.

فعدم إسلامهم، وكفرهم بمحمد وكتابه لم يكن عن جهالة بذلك أو شبهة، وإنما كان عن استكبار وحسد وبغى للرسول خاصة وللعرب عامة، وحرصاً على الجاه والسلطان ومظاهر الحياة، فكانوا ممن ضل عن علم وبينة، فاستحقوا بذلك أشد العذاب وأقساه، كما يفهم ذلك من التهديد والوعيد فى قوله تعالى: ﴿**ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب**﴾ أى ومن يكفر بآيات الله فى كتبه، وبراهين جلاله وكماله فى ملكوته فإن الله سيجازيهم فى الدنيا والآخرة بما يستحقون من العقاب الشديد الدائم.

قال ابن كثير[1] ــ فى قوله تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ ــ: إخبار منه تعالى بأنه لادين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ[2] فمن لقى الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**﴾[3] الآية، وقال فى هذه الآية مخبرا بانحصار الدين المتقبل منه عنده فى الإسلام ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾.

٨ــ وقوله تعالى: ﴿**وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد**﴾[4].

والمعنى: وقل يامحمد لليهود والنصارى ومشركى العرب أسلموا فقد أتاكم من البينات مايوجب إسلامكم ــ وخص هؤلاء بالذكر مع أن البعثة عامة لأنهم

---

(١) فى تفسيره ١ / ٣٥٤.

(٢) أى سد الله جميع الطرق الموصلة إليه إلا من جهته ﷺ.

(٣) آل عمران ٨٥. (٤) آل عمران ٢٠.

هم الذين خوطبوا أولا بالدعوة ـــ فإن أسلموا فقد أنقذوا أنفسهم من العذاب بخروجهم من الضلال إلى الهدى ، وإن تولوا فإنما عليك تبليغ الرسالة ، والله خبير بعباده وأحوالهم فسيجازيهم بأعمالهم .

قال ابن كثير: وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث .

٩ ـــ وقوله : ﴿ **ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾[١] أى ياأيها اليهود والنصارى لم تكفرون بآيات الله فى القرآن وأنتم توقنون من صميم قلوبكم أن القرآن حق وأن محمدا رسول الله ، والكفر بآيات الله جزاؤه النار وبئس القرار .

١٠ ـــ وقوله : ﴿**قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ماتعملون . قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون**﴾[٢] .

والمعنى: قل ـــ يامحمد ـــ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى لم تكفرون بآيات الله التى دلتكم على صدق محمد وكتابه ، والله شهيد على أقوالكم وأعمالكم ، وسيجازيكم عليها .

قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن بمحمد ﷺ قاصدين بذلك أن تكون سبيل الله معوجة فى نظر من يؤمن لكم ، ويصدق كلامكم بتغيير صفة محمد ﷺ ، وكذبكم على الله ، والحال أنكم تشهدون بصدقه فى أعماق نفوسكم ، وأن صراطه مستقيم ، وسبيله أقوم ، وأهدى سبيل ، وما الله بغافل عن جرائمكم ومفترياتكم ، وسيعاقبكم عليها أشد عقاب فى نار خالدين فيها وبئس المصير .

١١ ـــ وقوله تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته**

---

(١) آل عمران ٧٠   (٢) آل عمران ٩٨ ، ٩٩ .

وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيدا﴾[1] .

والمعنى: يأمر الله عباده المؤمنين بالدخول فى جميع شرائع الإيمان وشعبه، وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره، والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن فى كل صلاة (اهدنا الصراط المستقيم) أى زدنا هدى وتثبيتاً، فأمرهم بالإيمان الحق بالله وبرسوله والدوام عليه، وبالكتاب الذى أنزله على رسوله منجما ــ وهو القرآن الكريم ــ وجنس الكتاب الذى أنزله على رسله، كالتوراة والإنجيل.

ومعنى الإيمان بالقرآن التصديق بأن الله نزله من عنده على خاتم رسله، وأنه الناسخ لكل تشريع قبله، وليس بعده كتاب آخر، ومعنى الإيمان بالكتب السابقة التصديق بأنها نزلت من عند الله على رسله السابقين للعمل بما جاء فيها من عند الله.

ومن يكفر بالله خالق الكون ورب العالمين، وملائكته وكتبه، وخاصة القرآن الكريم، ورسله وخصوصاً محمد ﷺ، وينكر اليوم الآخر فقد ضل عن الصراط المستقيم، وأوغل فى الضلال وأبعد فيه، ومأواه جهنم وبئس المصير.

ومَنْ من صيغ العموم، فاليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعضها، ويؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعضهم لايعتد بإيمانهم، إذ الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل؛ لأنه لو آمن إيماناً صحيحاً بنبيه وكتابه لآمن بمحمد وكتابه المبشر به عندهم.

١٢ ــ وقوله تعالى: **﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما﴾**[2] .

---

(١) النساء ١٣٦ .

(٢) النساء ١٥٠ : ١٥٢ .

فقد بين الله فى الآية الأولى الكافرين حقا، فذكر أن من الناس من يكفر بالله ورسله، كالدهريين، والشيوعيين، ومنهم من يؤمن بالله ويكفر برسله؛ لإنكارهم الوحى، واستغنائهم — فى زعمهم — بالعقل عنه، كبعض الفلاسفة[1]، ومنهم من يؤمن ببعض الرسل، ويكفر ببعضهم حسدا وبغيا، أو تبعا لما ألفوا عليه آباءهم أو حرصا على جاههم ومظاهرهم فى هذه الحياة، كاليهود الذين آمنوا بالأنبياء وكفروا بعيسى ومحمد — عليهما الصلاة والسلام — والنصارى الذين آمنوا بهم وكفروا بخاتمهم محمد ﷺ، ويريدون أن يتخذوا بين الإيمان والكفر طريقا وسطا، والإيمان والكفر ضدان لايجتمعان فى قلب واحد، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأولئك هم الكاملون فى الكفر والضلال، الراسخون فى الجحود والإنكار، وقد أعد الله لهم ولأمثالهم عذاباً مهينا لهم، كما استهانوا بمن كفروا به، فالإيمان بالله حقيقة يقتضى عبادته على وجه الحق والصواب، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالإيمان برسله، واتباع تعاليمهم، فهم السفراء بين الله وبين أهل الأرض.

والإيمان واجب بكل نبى بعثه الله إلى الثقلين، فمن كفر بنبوة نبى حسدا أو عصبية، أو طمعا فى حظوظ دنيوية، أو حرصا على جاه أو سلطان فقد كفر بسائرهم.

فلو آمن اليهود بموسى حقيقة لآمنوا بمحمد، ولو آمن النصارى بعيسى حقيقة لآمنوا بمحمد كذلك؛ فهو مذكور فى كتبهم، ومبشر به عندهم، ومصدق لما معهم.

على أن رسالة محمد ﷺ أوضح دليلا، وأقوى برهانا لو نظر حق النظر فيها، فهو النبى الأمى الذى نشأ بعيدا عن الحضارة والمدنية، وكان مثلا أعلى من جميع نواحيه، وجاء بالقرآن الكامل فى أسلوبه وهداه والمعجزة الخالدة التى تحدى الله بها الإنس والجن على مدى الزمان والمكان.

ثم بين الله المؤمنين صدقا فقال: ﴿**والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما**﴾.

---

(١) الملاحدة الذين ينكرون النبوات، ويزعمون أن ماأتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم، لامن عند الله، وأكثر الملحدين فى هذا العصر من ذلك الفريق.

أى والذين آمنوا بالله على أنه واحد أحد فرد صمد ، لاإله غيره ، ولا رب سواه ويؤمنون بجميع رسل الله ، ولا يفرقون بين أحد منهم ، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون ، مهديون هادون إلى سبل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله ، حتى نسخت شرائع الجميع بشريعة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى تقوم الساعة على شريعته ، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين ، والذين كان أمرهم كما قال الله تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾(١) أولئك سيمنحهم الله الأجر العظيم، والثواب الجزيل على كامل إيمانهم بالله وبجميع رسله، والله غفور للتائبين رحيم بالمؤمنين الصادقين.

١٣ ـ وقوله تعالى: ﴿**ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن لله مافى السموات والأرض وكان الله عليماً حكيما**﴾(٢) فالله قد وجه الخطاب فى هذه الآية إلى جميع البشر من أهل الكتاب وغيرهم وأمرهم أن يؤمنوا بمحمد وكتابه الذى كله حق، وتوعد الكافرين بذلك بأشد أنواع العقاب؛ لأنه عليم حكيم فلا يسوى بين المؤمنين والكافرين.

١٤ ـ وقوله: ﴿**قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون**﴾(٣).

والمعنى: قل يامحمد لأهل الكتاب ماتعيبون علينا إلا إيماننا بالله وبالقرآن الذى أنزل إلينا بواسطة نبينا، وبالكتب التى أنزلت على من قبله من الرسل وأن أكثركم خارجون عن حدود الدين الصحيح لعدم إيمانهم الإيمان الحق بكتبهم والعمل بما أنزل إليهم فيها، وعدم إيمانهم بالقرآن والإذعان لأحكامه، والقليل منكم هو الذى آمن بما آمن به محمد ﷺ وصحبه.

١٥ ـ وقوله: ﴿**أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تكن فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس**

---

(١) البقرة ٢٨٥ .   (٢) النساء ١٧٠ .   (٣) المائدة ٥٩ .

لايؤمنون﴾[1].

والمعنى: أيستوى المؤمن والكافر، فمن كان يسير فى حياته على بصيرة وهداية من ربه[2]، ويطلب الحق مخلصا، ومعه شاهد بالصدق من الله وهو القرآن، وشاهد من قبله وهو كتاب موسى عليه السلام الذى أنزله الله قدوة يُتَّبع ماجاء به، ورحمة لمتبعيه، كمن يسير فى حياته على ضلال وعماية، فلا يهتم إلا بمتاع الدنيا وزينتها أولئك. الأولون الموصوفون بما ذكر من الجمع بين البينة الوهبية، وشهادة الوحى لعقائدهم وأعمالهم الكسبية، يؤمنون بهذا القرآن إيمان معرفة وإذعان ومن يكفر به ممن بلغه من سائر الملل والنحل من أهل الكتاب وغيرهم الذين تألبوا على الحق، وتحزبوا ضده، فالنار موعده يوم القيامة.

فلا تكن — أيها النبى — فى شك من هذا القرآن[3]، إنه الحق المنزل من عند ربك **﴿لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾** ولكن أكثر الناس تضلهم الشهوات فلا يؤمنون بما يجب الإيمان به. أما المشركون فلا ستكبار زعمائهم، وتقليد مرءوسيهم ودهمائهم، وأما أهل الكتاب فلحسدهم وبغيهم، وتحريفهم وابتداعهم فى دين أنبيائهم.

١٦ — وقوله تعالى: **﴿هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾**[4] أهل الكتاب هم بنو النضير من يهود المدينة. من ديارهم: من مساكنهم بالمدينة. لأول الحشر: من إضافة الصفة للموصوف، أى للحشر الأول، واللام فى (لأول الحشر) بمعنى عند. أى عند حشرهم الأول من ديارهم بالمدينة إلى خيبر، والحشر الثانى هو إخراجهم فى زمن عمر من خيبر إلى الشام حين نقضوا العهد.

---

(١) هود ١٧.

(٢) هذا تفسير للبينة، وهى مايتبين به الحق فى كل شىء بحسبه، كالبرهان فى العقليات، والنصوص فى النقليات، والخوارق فى الإلهيات، والتجارب فى الحسيات، والشهادات فى القضائيات، والاستقراء فى إثبات الكليات. وقد نطق القرآن بأن الرسل كلهم قد جاءوا بالبينات، قال تعالى لخاتمهم **﴿قل إنى على بينة من ربى﴾** الأنعام ٥٧.

(٣) نهى الله النبى عن الشك ليس معناه أنه يحتمل أن يشك، بل إنه يشير إلى أن من دون النبى ﷺ عليهم أن يحتاطوا لأنفسهم، فلا يجعلوا للشك طريقاً يصل منه إلى قلوبهم.

(٤) الحشر ٢.

١٧ ــ وقوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾[١] فقد وصف الله أهل الكتاب فى الآيتين بالكفر لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ ، وبما جاء به ، والكافر مخلد فى النار قطعا للكثرة الكاثرة من الآيات الكريمة المتواترة الدالة على ذلك .

١٨ ــ وقوله تعالى : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة . فيها كتب قيمة . وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة** ﴾ **إلى أن قال** : ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾[٢] .

والمعنى : لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى أهل الكتاب ، ومن المشركين عبدة الأوثان والأصنام متروكين هملا بدون إرشادهم إلى الحق ، وإقامة الحجة الواضحة عليهم ، وهذه الحجة الواضحة هى رسول من الله ، هو محمد ﷺ يتلو قرآنا عن ظهر قلب ــ لأنه أمى لايقرأ ولا يكتب ــ صار فيما بعد مكتوبا فى صحف منزهة عن الباطل والتحريف فيها آيات مستقيمة لاعوج فيها .

فالمراد بالرسول هنا قطعا هو محمد ﷺ لأنه هو الذى أرسل إلى جميع البشر من أهل الكتاب والمشركين كما سبق فى قوله تعالى : ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا** ﴾ وما اختلف اليهود والنصارى فى شأن محمد ﷺ وكتابه ، وصاروا فى ذلك شيعا وأحزابا إلا من بعد ماجاءتهم الحجة الواضحة الدالة على صدق رسالته ﷺ ، وأنه الرسول الموعود به فى كتبهم .

قال أبو السعود[٣] : وقوله تعالى : ﴿ **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب** ﴾ ألخ كلام مسوق لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة ، وتغليظ جناياتهم ببيان أن مانسب إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباه مافى الأمر ، بل كان بعد وضوح الحق ، وتبين الحال ، وانقطاع الأعذار بالكلية ، وهو السر فى وصفهم بإيتاء الكتاب المنبىء عن كمال تمكنهم من مطالعته والإحاطة بما فى تضاعيفه من الأحكام والأخبار

---

(١) الحشر ١١ . (٢) البينة ١ : ٤ ، ٦ . (٣) فى تفسيره ٥ / ٢٧٧ .

التى من جملتها نعوت النبى ﷺ. اهـ وفى الآية السادسة من هذه السورة أكد الله أن الكافرين برسالة محمد ﷺ من أهل الكتاب والمشركين خالدون فى نار جهنم، وبئس القرار، وأنهم شر الخلائق، وبذلك استحقوا أشد العذاب.

١٩ ــ وقوله ﷺ: ﴿**والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**﴾ رواه مسلم عن أبى هريرة[١].

وهكذا نجد دعوة الإسلام قائمة بحججها الواضحة القوية المتواترة على أهل الكتاب فى مشارق الأرض ومغاربها وأنهم مطالبون بالإيمان بمحمد ﷺ وبكتابه الذى هو حجة عليهم، كما هو حجة على غيرهم، وأن من لم يؤمن بذلك فهو كافر ومخلد فى النار.

* * *

(١) ق ٢/ ١٨٦.

الفصل الرابع

فى الرد على افتراءات المبشرين

وبــــه

مقدمة واثنا عشر مبحثا

- دحض جريمة اتهام الإسلام بالإكراه فى الدين
- دحض جريمة اتهام الإسلام بالتعصب
- دحض جريمة اتهام أصحاب محمد ﷺ بالفجور
- سحق جريمة تشكيك المبشرين فى القرآن
- سحق جريمة تشكيكهم فى نبوة محمد ﷺ
- بذل المبشرين نهاية جهدهم لإخراج المسلمين من دينهم
- الواجب على المسلمين للحفاظ على دينهم من هذا التيار الجارف
- اتهامهم الإسلام بأنه السبب فى انتشار الجهل وتخلف شعوبه
- دحض هذا الافتراء
- مراحل تطور التعليم فى الأمة الإسلامية
- سبب تأخر المسلمين فى العصور الوسطى
- كيف يستعيد المسلمون مجدهم التليد

المقدمـة

فى اتهام المبشرين الإسلام بالإكراه فى الدين والتعصب والدعوة إلى الفجور

قال هـ. جيومان. ف. لوستير[١]:

إن محمدا مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو.

ماأعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى، إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة، وقالوا للناس: أسلموا أو تموتوا، بينما أتباع المسيح قد كسبوا النفوس ببرهم وإحسانهم.

ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا؟ إذن لكنا نحن اليوم مسلمين، كالجزائريين والمراكشيين. اهـ.

وقال المنسنيور كولى فى كتابه (البحث عن الدين الحقيقى) تحت باب الإسلام[٢]: فى القرن السابع للميلاد برز فى الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذى أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون فى القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات. اهـ

---

(١) فى مؤلفه الذى يدرس لصفوف الشهادة الابتدائية بمدرسة القديس يوسف للبنات فى بيروت، وفى مدارس إرسالياتها تحت عنوان (تاريخ فرنسا) ص ٨٠، ٨١.

(٢) والكتاب عبارة عن محاضرات فى التربية الدينية، وصدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحى فى باريس طبع سنة ١٩٢٨.

وفى ظل الاستعمار الفرنسى للسنغال كانت الإرساليات التبشيرية تقول للناس هناك : إن الدين الإسلامى دين مستعمر ، لأنه جاء عن طريق العرب ، ولأنه فرض بالسيف . ا هـ[1] .

أقول: لقد رمى أعداء الإسلام ديننا بهذه الأباطيل، والإفتراءات الثلاثة حسدا، لما امتاز به، وبغضا فيه، فارتدت عليهم قذائفهم: رموه بالإكراه فى الدين، والتعصب له، وبالفجور فيه، وهذا ليس كذبا وافتراء على الإسلام فحسب، ولكنه بهتان عظيم، وفجور كبير، فإنه ضد طبيعة الإسلام، وأسسه وأركانه، فقد قام الإسلام على الرغبة والاختيار، وعلى السماحة ومكارم الأخلاق، فلا يعرف إكراها فى دين ولا تعصبا للإسلام والمسلمين، وهو حرب على الفساد والمفسدين، وإليك الرد على هذه الجرائم الثلاث فى المباحث الثلاثة الآتية :

* * *

(١) التبشير والاستعمار للدكتور الخالدى، والدكتور فروخ ١٣٥ .

المبحث الأول

دحض جريمة اتهام الإسلام بالإكراه فى الدين

لدحض جريمة اتهام الإسلام بالإكراه فى الدين أقول ماقال الله تعالى: ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾ فلا إكراه فى الدين الإسلامى، لأنه قام على الحجة والبرهان، لا على الضغط والإكراه، فإن المكره على شيء لايلبث أن يتركه متى سنحت الفرصة وتهيأت الأسباب للتخلص منه. إن ديننا يحذر من استخدام أية قوة لحمل الناس على الدخول فيه، فإن نوره جدير بأن يخترقِ الحجب ويضيء القلوب، ويأسر العقول. الإسلام يريد من الناس عقولهم وقلوبهم، لاأجسامهم وصورهم، ولذا كان لا إكراه فيه.

قال تعالى: ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا**﴾[1].

والمعنى: قل – أيها الرسول –: إن ماجئت به هو الحق من عند ربكم، فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن، فذلك خير له، ومن شاء أن يكفر فليكفر فإنه لايضر ولا يظلمْ إلا نفسه، إننا أعتدنا لمن ظلم نفسه بالكفر نارا تحيط بهم كالسرادق وإن يستغث الظالمون بطلب الماء وهم فى جهنم يؤت لهم بماء كالزيت العكر الشديد الحرارة يحرق الوجوه بلهيبه، أقبح بهذا الشراب لهم، وقبحت جهنم مكانا لراحتهم.

أما الذين آمنوا بالله وبدينه الحق الذى يوحى إليك، وعملوا ماأمرهم به ربهم

(١) الكهف ٢٩، ٣٠.

من الأعمال الصالحة، فإنا لانضيع أجرهم على ماأحسنوا من الأعمال وقال تعالى: ﴿**لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾[1].

والمعنى: لاإكراه فى دخول دين الإسلام، لأن الإيمان خضوع وإذعان، وذلك لايكون بالإكراه والإلزام، وإنما يكون بالحجة والبرهان، قد ظهر أن فى هذا الدين الرشد والفلاح، وأن ماخالفه غى وضلال، وهذه الآية ومثيلاتها شاهد قاطع وحجة قائمة على من زعم من أعداء الإسلام أنه ماقام إلا والسيف ناصره، فكان يعرض على الناس فإن قبلوه نجوا، وإن رفضوه حكم فيهم السيف وتاريخ الإسلام والمسلمين أكبر شاهد على كذب من يتهم الإسلام بإكراه الناس على الدخول فيه، وما على المكابر فى ذلك إلا أن يستعرض هذا التاريخ من البداية للآن ليرينا فى أى موطن من المواطن استخدم المسلمون فيه القوة ليكرهوا الناس على الدخول فى الإسلام.

سبب نزول الآية: ويؤكد أن الدين الإسلامى لايكره أحدا على الدخول فيه ماجاء فى سبب نزول هذه الآية، وهو مارواه ابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت ﴿**لاإكراه فى الدين..**﴾ فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلما، فقال للنبى ﷺ: ألا أستكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله الآية[2].

وقال تعالى: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾[3] وقال ــ مخاطباً رسوله: ــ ﴿**فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر**﴾[4].

الإسلام والحرب:

وإذا كان الإسلام قد حارب فإنه حارب مظلوماً لاظالماً، ومضطرا لامختارا، فقد سار المسلمون فى دعوتهم إلى الإسلام على المنهاج الذى رسمه الله لهم فى القرآن بقوله: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى**

---

(١) البقرة ٢٥٦.
(٢) لباب النقول للسيوطى ١/ ٥٠.
(٣) يونس ٩٩.
(٤) الغاشية ٢١، ٢٢.

أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[1]، وسالموا الناس، ولكن خصوم الإسلام لم يسالموهم، وأذا قوهم العذاب ألوانا، وصبوا عليهم البلاء صبا. مضى على ذلك ثلاثة عشر عاما، استشهد فيها بعض المسلمين تحت العذاب، والمشركون لايزدادون فى تعذيبهم إلا تفننا فى التعذيب وطغيانا فى الظلم، ودبروا المؤامرة الكبرى لقتل الرسول ﷺ حتى يموت وتموت دعوته، ويخلو الجو للشرك والوثنية، لولا عناية الله التى أفسدت تدبيرهم، وأبطلت كيدهم.

فاضطر المسلمون إلى الهجرة متسللين فراراً بدينهم، وصادرت قريش ديارهم وأموالهم بمكة، واشتدوا فى تعذيب من لم يستطع الهجرة، وفتنته فى دينه، وقعدوا للمسلمين فى المدينة كل مرصد، ووقفوا لهم فى كل طريق، وسدوا عليهم أبواب رزقهم، وقطعوا عليهم طرق تجارتهم، وألبوا ضدهم قبائل العرب، وحاكوا معهم المؤامرات للقضاء على المسلمين، حتى تموت دعوة التوحيد أمام جحافل الشرك والوثنية عند ذلك أذن الله للمسلمين فى قتال أعدائهم حماية لدعوة التوحيد وعباداته، وأماكنها مصورا حالهم أعظم وأروع تصوير، فقال تعالى: **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا**[2] **وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات**[3] **ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾**[4].

أسباب مشروعية القتال فى الإسلام:

والله سبحانه حينما شرع القتال فى الإسلام دفعا للضرر عن المسلمين، شرعه لأحد الأمور الآتية:

---

(١) النحل ١٢٥

(٢) أى أذن الله للذين يعتدى عليهم غيرهم أن يدافعوا عن أنفسهم ولو بالقتال بسبب ظلم الغير لهم.

(٣) الصوامع: معابد رهبان النصارى، والبيع: كنائس النصارى، واحدها بيعة بكسر الباء، والصلوات: كنائس اليهود.

(٤) الحج ٣٩: ٤١.

١ ــ دفع العدوان على الأنفس والأموال والأوطان فقال تعالى: ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين**﴾[١].

٢ ــ منع فتنة المسلمين فى دينهم، ليكون الدين خالصاً لله، قال تعالى: ﴿**وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ..**﴾[٢].

٣ ــ الأخذ على أيدى العابثين بالأمن الذين يخونون العهود، وينقضون المواثيق ولا يحترمون مابينهم وبين المسلمين من معاهدات، ويشوهون حقائق الإسلام، وينفرون الناس منه، قال تعالى: ﴿**وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاأيمان لهم لعلهم ينتهون**﴾[٣].

٤ ــ تخليص الجماعات والشعوب المستضعفة، والعجزة من الرجال والنساء والولدان من بطش الأقوياء وسطوتهم، ودفع الظلم عنهم، قال تعالى: ﴿**وما لكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا**﴾[٤].

فإذا سالمنا الغير، ولم يحصل منه اعتداء بأى وجه من الوجوه السابقة، أو أراد حل النزاع بيننا وبينه بالتحكيم فراراً من إزهاق الأرواح وجبت مسالمته وقبول التحكيم، ليعيش الناس فى محبة ووئام، وأمان واطمئنان كما قال تعالى: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ... على الله إنه هو السميع العليم**﴾[٥] وقال: ﴿**ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾[٦].

والمعنى: ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم بجميع شعبه وأبوابه، وكونوا جميعاً مسالمين فيما بينكم، ولا تثيروا العصبيات الجاهلية وغيرها من أسباب النزاع والخلاف، ولا تسيروا فى طريق الشيطان الذى يدفعكم إلى الشقاق، فإنه لكم

(١) البقرة ١٩٠ .
(٢) الأنفال ٣٩ .
(٣) التوبة ١٢ .
(٤) النساء ٧٥ .
(٥) الأنفال ٦١ .
(٦) البقرة ٢٠٨ .

عدو ظاهر العداوة، والكيد لكم وهكذا يؤثر الإسلام السلم على الحرب، ويدعو إلى المثل الأعلى فى جميع الصلات والمعاملات فإذا لم ينجح المثل الأعلى وأكره المسلمون على الحرب كان لابد من رد الاعتداء بمثله فقط ولا نتعداه، قال تعالى: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[1].

فالإسلام يؤثر السلم على الحرب مالم يكن من الحرب بد، ولا من القتال مفر

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها

ولكن الإكراه فى الدين عند المسيحيين الذين يتهمون به المسلمين ظلما وعدوانا، وزوراً وبهتاناً:

ففى إنجيل متى ١٠ (٣٤ لاتظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض، ماجئت لألقى سلاماً بل سيفاً ٣٥ فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والا بنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها ٣٦ وأعداء الإنسان أهل بيته).

وقال البابا أنوثان الثالث: عند الكلام فى مصادرة الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية: (لايجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة، وترك الحياة لهم منّ وإحسان) فلم يقصر الجزاء على الجاحدين، ولكن عدّاه إلى أولادهم، وعدّ ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضرباً من الإحسان إليهم لأنهم لاحق لهم فى أن يعيشوا وقد جحد آباؤهم[2].

أين هذا مما جاء فى الدين الإسلامي؟

حيث يقول تعالى فى شأن الوالدين المشركين: ﴿**وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا..**﴾[3].

وما جاء فى صحيح مسلم[4] عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أو صاه فى خاصته بتقوى الله

---

(١) البقرة ١٩٤. (٣) لقمان ١٥.

(٢) الإسلام والنصرانية للإمام محمد عبده. ٣٣ (٤) فى ١٢/ ٣٧.

ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا ... » .

وما رواه أبو داود عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: « انطلقوا باسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانيا، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلّوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »[1] .

وجاء فى إنجيل متى ١٨ (١٨ الحق أقول لكم كل ماتربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء وكل ماتحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء).

ومعنى هذا أنه إذا قال رجل الدين المسيحى لشخص: إنه ليس مسيحياً صار كذلك، وإذا قال له: إنك مسيحى فاز بها، فليس المعتقد حراً فى اعتقاده، يتصرف فى معارفه وأفكاره كما يهديه عقله، وكما يدعو إليه الإسلام من حرية العقيدة، وعدم الإكراه فى الدين.

أين هذا مما قاله الله لرسوله ـــ حينما دعا على بعض أعدائه ـــ: « ليس لك من الأمر شىء »[2] أى ليس لك التصرف فى أمر عبادى بشىء، بل الأمر لله وحده .

وما قاله أيضاً له: « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »[3] وما قاله كذلك: ﴿**فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر**﴾[4] .

وهكذا الإسلام :

لايحكم رؤساء الدين مهما كانوا فى غيرهم . كما تفعلون أنتم ، ولا يكره أحدا على عقيدة، أو يجبره على مذهب كما هو شأنكم، فالتحكم فى عقائد الناس، وإكراههم فى الدين عند النصارى لاعند المسلمين، وإن لم تكتف بهذا فإليك المزيد:

١ ـــ صدر الأمر من محكمة التفتيش فى ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢م بأن كل يهودى

---

(١) ق ١/ ٤٠٨ .
(٢) آل عمران ١٢٨ .
(٣) آخر ق .
(٤) الغاشية ٢١، ٢٢ .

لم يقبل المعمودية فى أى سن كان، وعلى أى حال كان، يجب أن يترك بلاد أسبانيا قبل شهر يوليه، ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل، وأبيح لهم أن يبيعوا مايملكون من عقار، ومنقول بشرط ألا يأخذوا فى الثمن ذهباً ولا فضة، وإنما يأخذون الأثمان عروضاً وحوالات.

ومن ذا الذى يشترى اليوم بثمن مايأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن ؟ يعنى أن أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذى تم فى يوليه .

وصدر أمر (توركماندو) ألا يساعدهم أحد من سكان أسبانيا فى أمر من أمورهم، وهكذا خرج اليهود تاركين كل مايملكون بأرواحهم، على أنه لم ينج الكثير منهم، فقد اغتالهم الجوع، ومشقة السفر مع العدم والفقر .

وفى فبراير سنة ١٥٠٢ م نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها، من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد أسبانيا قبل شهر أبريل، وأبيح لهم أن يبيعوا مايملكون على الشرط الذى وضع لليهود ولكن وضع للمسلمين شرط آخر، وهو ألا يذهبوا فى طريق يؤدى إلى بلاد إسلامية، ومن خالف فجزاؤه القتل، فهؤلاء المساكين نفوا جميعاً إلى القتل، إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العرى والجوع[1] .

٢ ــ عاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة بعد أن انتصر عليهم سنة ١٤٩٢ م، ولكن لم تحل سنة ١٤٩٩ حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذى دام قرونا ولم ينته إلا بطردهم من أسبانيا .

وكان تعميد العرب كرها فاتحه ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين بزعم أنهم ليسوا من النصارى، واستمرت مدة، لأن إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة متعذر.

وقد نصح كردينال طليطلة التقى الذى كان رئيسا لمحاكم التفتيش بقطع رءوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساءً وشيوخاً وولداناً، ولم ير

---

(١) الإسلام والنصرانية للإمام محمد عبده ٣٨، ٣٩ .

الراهب الدومينيكى (بيلدا) الكفاية فى ذلك، فأشار بضرب رقاب من تنصروا من العرب، ومن بقوا على دينهم، وحجته أنه من المستحيل معرفة الصادقين من الكاذبين فى تنصرهم، فمن المستحب إذن قتل جميع العرب بحد السيف، ليحكم الرب بينهم فى الحياة الأخرى، فيدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم .

ولم تر الحكومة الأسبانية أن تعمل بمشورة ذلك الدومينيكى الذى أيده الإكليروص لصعوبة تنفيذه، فأمرت فى سنة ١٦١٠م بإجلاء العرب عن أسبانيا، فقتل أكثر المهاجرين فى الطريق .

وأبدى الراهب البارع بيلدا ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع المهاجرين، وهو الذى قتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة، كانت مؤلفة من مائة وأربعين ألفا من المسلمين فى طريقهم إلى أفريقية .

وبذلك خسرت أسبانيا فى بضعة أشهر مليون مسلم من رعاياها ، ويقدر كثير من العلماء — ومنهم سيديو — عدد المسلمين الذين خسرتهم أسبانيا منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير بثلاثة بلايين، ولا تعد ملحمة سان بارتلمى إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لايؤبه له .

ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التى اقترفت ضد المسلمين .

ومما يرثى له أن فقدت أسبانيا عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية[1] .

٣ — فى الحروب الصليبية استولى الغرب على الأراضى المقدسة، وتم انتخاب (جودفروى) دوق لورين وقائد الحملة ملكا على أورشليم بعد ظهر يوم الجمعة ١٥ يوليه سنة ١٠٩٩م فى مشهد تاريخى رهيب، يقول عنه جيبون : (إن خدام رب المسيحيين رأوا باعتقادهم الأعمى أن يكرموه بذبح سبعين ألفاً من المسلمين تعظيماً وإجلالاً وزلفى، وقرباناً له، ولم يرحموا كبار

---

(١) حضارة العرب لجوستاف لوبون ص ٣٣٤ .

السن، والأطفال والنساء وقد استمرت هذه المذبحة ثلاثة أيام، وإن من احتفظوا بهم من الأسرى دون أن يقتلوا إنما يرجع بقاؤهم على قيد الحياة إلى التعب والإجهاد الذى أصاب الصليبيين لكثرة ماقاموا به من القتل[1].

وكتبوا إلى البابا يهنئونه ، ويقولون له : ثق أنه فى إيوان سليمان ومعبده كانت خيولنا تخوض فى بحر من دماء المسلمين .

وحينما دخلوا مدينة طرابلس الشام دمروا فيها وحدها دار كتب بها مايزيد على ثلاثة آلاف ألف كتاب مخطوط[2] .

وبعد تسعين سنة من مجزرة القدس فتحها صلاح الدين فماذا فعل؟ لقد كان فيها مايزيد على مائة ألف غربى بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم، وأعطاهم مهلة للخروج أربعين يوماً.

فجلا منها أربعة وثمانون ألفاً لحقوا بإخوانهم فى عكا وغيرها ، ثم أطلق كثيراً من الفقراء من غير فدية، وأدى أخوه الملك العادل الفدية عن ألف رجل منهم، وعامل النساء معاملة لاتصدر عن أرقى ملك منتصر فى العصر الحديث[3] .

وهكذا كان المسلمون رحماء، لايمثلون بالقتلى، ولا يخربون العمران، ولا يجبرون أحدا على نبذ دينه واعتناق الإسلام، ويقابلون السوء بالإحسان، وكان غيرهم فى منتهى القسوة والوحشية على إخوانهم فى الإنسانية .

٤ ــ وما رأيك فى سياسة اضطهاد المسلمين فى هذا العصر فى كل مكان؟ أليس يقف من ورائها الاستعمار المسيحى سواء فى زنجبار، أم الهند، أم الفلبين، أم الحبشة التى قضت على أريتريا المسلمة، أم تشاد، أم أوغندا، أم غيرها من البلاد ذات الأقلية المسلمة ؟

---

(١) من الحروب الصليبية إلى حرب السويس (محمد على الغتيت) .
(٢) راجع الحركة الصليبية لعبد الفتاح عاشور فى جزئين .
(٣) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعى ص١٠٧ .

القوة لاتنشر دينا :

١ ــ لو كانت القوة هى التى تنشر الدين لما ذاع الإسلام فى مكة، والنبى ﷺ وأصحابه قلة لايملكون من القوة مايحمون به أنفسهم من أذى المشركين، ولما انتشر فى المدينة قبل أن يهاجر إليها المسلمون حتى عم كل دار فيها، ولما صار له فى أيام ضعفه أتباع فى إنجلترا وأمريكا، واستراليا واليابان .

ولو كان القهر والسلطان هو الذى ينشر الدين لما اعتنق الإسلام الغالبون على دياره وأهليه من الأتراك السلاجقة والمغول وغيرهم بطريقة جماعية ففى سنة ٣٠٩ هـ، ٩٢١ م اتصل ملك الفولجا بالخليفة العباسى المقتدر بالله يريد الإسلام، فبعث إليه المقتدر من يرشده إلى الإسلام، فأسلم هو وشعبه وفى عام ٦٨١ هجرية، ١٢٨٢ م أسلم أحد سلاطين المغول بأرض فارس، وهو تكودا رخان، وذلك فى عهد السلطان قلاوون بمصر[١] .

وفى الرابع من شعبان سنة ٦٩٤ هـ التاسع عشر من يونيه سنة ١٢٩٥ م اعتنقت الإسلام شعوب المغول فى عهد ملكهم غازان خان، وصار هو الدين الرسمى لدولتهم، ودخل فيه فى يوم واحد مائة ألف منهم[٢] .

٢ ــ لو كانت القوة هى التى تنشر الدين لما انتشر الإسلام فى أقطاره العديدة فى وسط أفريقيا، وساحلها الشرقى والغربى، ولا فى الهند والملايو، وجزر أندونيسيا والصين، وغيرها من الأقطار التى انتشر فيها الإسلام، ولم يدخلها المسلمون بجيوشهم فاتحين .

ففى العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ٦٠ عن نعيم بن حماد قال : بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه :

من ملك الأملاك الذى هو ابن ألف ملك ، والذى تحته ابنة ألف ملك ، والذى فى مربطه ألف فيل، والذى له نهران ينبتان العود والألُوَّة ، والجوز والكافور، والذى يوجد ريحه على مسيرة اثنى عشر ميلا .

---

(١) ١ : ٦٥ ــ ٦٨ ، ٧ : ٢٣٧ ــ ٢٤٢ من صبح الأعشى للقلقشندى، وراجع المغول بين المسيحية والإسلام، والمغول فى إيران : لمصطفى طه بدر .

(٢) خلود الإسلام ٢٦ .

إلى ملك العرب الذى لايشرك بالله شيئا. أما بعد ــ فإنى قد بعثت إليك بهدية[1]، وماهى بهدبة، ولكنها تحية، قد أحببت أن تبعث إلى رجلاً يعلمنى ويفهمنى الإسلام. والسلام أ. هـ.

ولذا قال الإمام محمد عبده :[2]

لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل فى الرقاب للإكراه على الدين، والإلزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش، ووفرة العُدد، وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة، واستمر فى شدته بعد مجىء الإسلام سبعة أجيال، أو يزيد، فتلك عشرة قرون كاملة، لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام فى أقل من قرن.

هذا ولم يكن السيف وحده، بل كان الحسام لايتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون مايشاءون تحت حمايته، مع غيرة تفيض من الأفئدة، وفصاحة تتدفق على الألسنة، وأموال تخلب ألباب المستضعفين، إن فى ذلك لآيات للمستيقنين. اهـ.

وقال أيضاً[3]: كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها، يلجون على الناس بيوتهم، ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر، وبرهانهم الغلبة، وحجتهم القوة، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون، لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة.

وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً عندما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفا. أ. هـ.

---

(١) يعنى بالهدية الكتاب الذى أرسله إلى عمر رضى الله عنه.

(٢) فى رسالة التوحيد ١٩٠، ١٩١. (٣) فى رسالة التوحيد ١٨٤.

المبحث الثانى

دحض جريمة اتهام الإسلام بالتعصب

لدحض جريمة اتهام الإسلام بالتعصب أقول: الإسلام لايعرف التعصب ولا التمييز العنصرى، وإنما يعرف ذلك من رماه به.

ذلك أن الإسلام ــ أيها المتجنى عليه ــ رحب الصدر، سمح المعاملة، لم يضق ذرعا بالأديان السماوية كلها، لأن شعاره ﴿ **فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾[1]، فقد أمرنا الإسلام بالمودة والبر، والقسط والعدل مع الناس كافة، مسلمين وغير مسلمين ماداموا لم يقاتلونا فى الدين، ولم يعتدوا على المسلمين، فقال تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾[2] وقال: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط[3] شهداء لله[4] ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا[5] أو تعرضوا[6] فإن الله كان بما تعملون خبيرا**﴾[7] وقال: ﴿**ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا[8] اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**﴾[9] وقال: ﴿**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾[10].

وقال ﷺ: «وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[11].

---

(١) الزمر ١٧، ١٨.

(٢) النحل ٩٠.

(٣) مداومين على القيام بالعدل.

(٤) شهداء بالحق لوجه الله تعالى، لالغرض دنيوى.

(٥) أى تلووا ألسنتكم فى الشهادة بأن تأتوابها على غير وجهها.

(٦) تمتنعوا عن أدائها.

(٧) النساء ١٣٥.

(٨) أى لايحملنكم بغض قوم على عدم العدل.

(٩) المائدة ٨.

(١٠) الممتحنة ٨.

(١١) اللؤلؤ والمرجان ٢/ ١٨٦.

والقاعدة التى جاء بها الإسلام، واتفق عليها أولو الأمر من المسلمين فى معاملة الذميين هى (لهم مالنا وعليهم ماعلينا) ولذا قال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما» رواه البخارى[1]، وقال: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة» رواه أبو داود والبيهقى فى سننهما عن زيد بن رفيع[2].

وزيادة فى الحفاظ على أرواح أهل الذمة وأعراضهم وأموالهم نهى عمر رضى الله عنه أن تجعل بلادهم ميداناً لحرب حتى لايصابوا بأضرارها فى الأنفس أو الأموال، أو غير ذلك كما نهى أن يكلفوا بما يعجزون عن دفعه فقال ــ موصيا الخليفة الذى يأتى بعده ــ: «وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم» رواه البخارى عن عمرو ابن ميمون[3]، وقال عمر: «أوصيكم بذمة الله فإنه ذمة نبيكم ورزق عيالكم» رواه البخارى عن جويرية بن قدامة التيمى[4].

وأمر الإسلام باحترام أماكن عبادة أهل الذمة والمحافظة عليها والدفاع عنها مثل مساجد المسلمين تماماً فقال تعالى: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا**﴾[5].

ومن عدالة الإسلام السامقة مع أهل الذمة أنه أباح لأهل مدينة سَمْرقَنْد أن يشكوا القائد الإسلامى قتيبة بن مسلم الباهلى إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأنه قد دخل مدينتهم غدراً، وأسكنها المسلمين بغير حق، فأرسل عمر إلى والى خراسان سليمان بن أبى السرح يأمره بعرض هذه القضية على القاضى جميع بن حاضر البلخى، فقضى القاضى بأروع حكم فى التاريخ، قضى بأن يخرج الجنود منها إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحا جديداً، أو ظفرا عنوة، وهذا حكم لم تعرفه الدنيا إلا للإسلام، وعدالة لم يعرفها التاريخ لغير المسلمين من أمم الأرض أجمعين، عدالة عالية شامخة حتى فى ميادين الحروب، وساحات القتال.

---

(١) فى ٤/ ٢١١.
(٢) الخراج ليحيى بن آدم ٧١.
(٣) فى ٤/ ١٦١.
(٤) فى ٤/ ٢٠٩.
(٥) الحج ٤٠.

لذا قال أهل سمرقند: هذه أمة لاتحارب، لأن حكمها رحمة ونعمة، ورضوا ببقاء الجيش بينهم، وأن يقيم المسلمون بين أظهرهم[١] .

وهذه العدالة التى جاء بها تشريع القرآن هى التى حببت الإسلام إلى من كانوا أعداءه، وردوا إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

فعندما كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانت سيرته قد بلغتهم أسلم ملوك السند وتسموا بأسماء العرب[٢] .

وهكذا — ياأخى — يرعى الإسلام حقوق مواطنيه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، ويسوى بينهم فى كل شيء بلا تفرقة لدين أو جنس أو لون، أو غنى أو فقر، أو رئيس أو مرءوس .

ويسمح لامرأة فقيرة غير مسلمة من سكان مصر أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير مصر عمرو بن العاص، وما كان يريده لنفسه، ولكن ليوسع به مسجد المسلمين، فلما صمم على أخذه مع دفع أضعاف ثمنه، رفعت شكواها لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأمر برد بيتها إليها مع لوم عمرو على ماكان منه .

ويسمح ليهودى أن يخاصم أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ويقف معه للتقاضى أمام قاضيه، إلى أن قضى الحق بينهما من غير ضجر ولا تألم[٣] هذا هو موقف الإسلام العادل، ومنها جه السمح مع أهل الذمة، ومنهاج يلين القلوب القاسية، والعواطف المتحجرة .

والحديث فى عناية التشريع القرآنى بأهل الذمة، وحسن معاملة المسلمين لهم يطول، تصفحوا تاريخ الإسلام من مبدئه للآن فلن تجدوه أرغم من تحت سلطانه على الدخول فيه، عكس المسيحية تماماً .

أرونا أى شعب من شعوب أهل الكتاب يعامل من تحت سلطانه من غير أهل دينه بمثل هذه المعاملة؟ أخبرونى عن أى دين أو شريعة أو قانون جاء بما جاء به

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ٢/ ١٨١ .
(٢) المرجع السابق ١٨٧ .
(٣) رسالة التوحيد ١٨٨ .

الإسلام من مساواة الغير بالمسلمين مساواة كاملة، ومن رحمته لغير أهله رحمة شاملة؟

فحق لكل إنسان أن يؤمن بأن شريعة القرآن خير الشرائع، وأن ماجاء به محمد ﷺ هو أكمل ماجاء به رسول، وصدق الله ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾[1] .

شهادة أحرار الغرب بسماحة الإسلام :

إن سماحة الإسلام ليس لها نظير فى تاريخ الأديان السابقة، والعصور الماضية، وقد أجمع المؤرخون المنصفون الغربيون الذى يحترمون الحق على تسامح الإسلام، وأشادوا به، وإليك جانباً من هذه الشهادات :

١ ـــ شهد البطريق (عيشويابه) الذى تولى منصبه سنة ٦٤٧ ـــ ٦٥٧ هـ بأن (العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون. إنهم ليسوا أعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويوقرون قديسينا، وقسيسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وديننا)[2] .

٢ ـــ وقال الحبر ميشون : ولقد أيقنت من تتبعى للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع فى المعاشرة عن الغلظة، وتدل على حسن مسايرة، ولطف ومجاملة، وهو إحساس لم يشاهد فى غير المسلمين إذ ذاك، خصوصاً أن الشفقة والرحمة والحنان كانت أمارات ضعف عند الأوربيين، وهذه حقيقة لاأرى وجها للطعن فيها[3] .

٣ ـــ وقال الكونت هنرى دى كاسترى : وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقرارا منظما رأيناه أكثر محاسنة، وأنعم ملمسا بين مسيحى الشرق على الإطلاق، فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحى، بل بقيت روما نفسها حرة فى المراسلات مع الأساقفة الذين كانوا يرعون الأمة الخالية[4] .

---

(١) المائدة ٣ .
(٢) أهل الذمة فى الإسلام لتريتون ١٤٩ .
(٣) الإسلام للكونت هنرى دى كاسترى ٤٤ .
(٤) الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ٥١ .

٤ ـ وقال السيرتوماس أرنولد : لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة ، واستمر هذا التسامح فى القرون المتعاقبة ، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة ، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح[١] .

٥ ـ وذكر نورمان بينز : أنه لما فتح العثمانيون القسطنطينية كان أكثر الشعب المسيحى فى عشية الكارثة ينفرون من أى اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية أشد من نفورهم من الاتفاق مع المسلمين ، ومازال الناس يرددون الكلمة المشهورة التى نطق بها رئيس دينى فى بيزنطه فى ذلك الحين وهى : إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية فى مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية[٢] .

٦ ـ وقال جوستاف لوبون : إن القوة لم تكن عاملاً فى نشر القرآن ، وإن العرب تركوا المغلوبين أحرارا فى أديانهم ، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذى لم يكن للناس بمثله عهد ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التى لم تعرفها الأديان الأخرى ، وقد عاملوا أهل سوريا ومصر وإسبانيا ، وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم ، وحفظ الأمن بينهم .

والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم[٣] .

٧ ـ ويقول السير (مارك سايس) فى وصف الأمة الإسلامية فى عهد الرشيد : وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون فى خدمة الحكومة[٤] .

٨ ـ ويقول المستر (درابر) الأمريكى المشهور : إن المسلمين الأولين فى زمن

(١) المرجع السابق .
(٢) الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز ٣٩١ .
(٣) حضارة العرب لجوستاف لوبون ١٤٥ .
(٤) من روائع حضارتنا للدكتور السباعى ٩١ .

الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام، ورقوهم إلى مناصب الدولة حتى إن هارون الرشيدى وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنابن ماسويه، ولم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم، ولا إلى الدين الذى ولد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة[1] .

وهكذا: ظهر لكم ــ أيها المتحاملون على الإسلام ــ بشهادة إخوة لكم أنه ليس فى الإسلام تعصب ضد اليهودية أو المسيحية، أو ضد أى جنس أو لون، وليس فيه اتهام لنبى، أو تهجم على رسول، وأنه جاء بالعقيدة الصحيحة بعد أن كان الناس منها خلاء، وبالشريعة العادلة التى يكون الناس أمامها سواء، وبالأخلاق الفاضلة التى لايقوم أى مجتمع إلا بها، وبالنظم التى لابد منها لحياة الفرد والأمة والإنسانية جمعاء .

تعصب المسيحية ضد الإسلام:

كان من الخير للمسيحيين الذين يكتبون ضد الإسلام، ويرمونه بما ليس فيه ألا يفتحوا على أنفسهم هذا الباب، فإن مساوئهم فى التعصب لاتقف عند حد، ومخازيهم فيه لايحصيها العد.

١ ــ ألم يثبت الأستاذ بابيه أن السبب الرئيسى، بل السبب الوحيد الذى جعل الامبراطور قسطنطين يتخذ المسيحية ديناً رسمياً، إنما هو مارآه فيها من التعصب، الذى لايوجد فى غيرها من الأديان التى كانت منتشرة إذ ذاك فى روما ورأى أن هذا التعصب نفسه هو الذى سيربط الامبراطورية برباط من حديد فيكون ذلك مقاوماً لعوامل التفكيك التى تسرى فى شرايين الامبراطورية فقد نظر فى الأديان الموجودة فوجدها ثلاثة أديان متعادلة كل منها يصارع الآخر ليصرعه، ولم يكن نظره فيها للهداية والرشد، أو النجاة فى العالم الأخروى وإنما كان ينظر فى الأديان ليرى أنها أشد تعصبا، وأشد تهيؤا واستعدادا للتنكيل بالمخالف، فرأى أن المسيحية يتوافر فى رجالها ذلك،

---

(١) المصدر السابق، والمستر درابر كان مدرسا بجامعة نيويورك بالولايات المتحدة. وهو من أشهر علماء الاجتماع، وله كتاب (المنازعة بين العلم والدين) .

فاختارها دينا رسمياً للدولةمن أجل هذا السبب فحسب[1].

٢ ــ ألم يكن امبراطور القسطنطينية هو العامل الأكبر والمحرك الأعظم للأحداث فى الحروب الصليبية، والقوة الكبرى فى إشعال نيرانها[2].

٣ ــ ألم يدفعه التعصب ضد الإسلام إلى أن يقف وراء التتار يشجعهم، ويظاهرهم ويزين لهم صنع ماصنعوا، من تدمير فى العالم الإسلامى[3] وليس أدل على ذلك من أن هيتون ملك أرمينية المسيحى كان العامل الرئيسى فى إقناع مانجوخان (سنة ٦٤٦ ــ ٦٥٥ هـ) بإرسال الحملة التى دمرت بغداد بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ، ١٢٥٨ م، وأن هولاكو التترى والوثنى زوج ابنه من ابنة امبراطور القسطنطينية المسيحى[4]، مع أن ذلك لايجوز فى الشريعة المسيحية.

٤ ــ ألم يدفع التعصب الأسبان ــ حين استولوا على غرناطة آخر مملكة للإسلام فى الأندلس، وبعد أن أعطوا المسلمين بضعا وستين عهدا باحترام ديانتهم ومساجدهم، وأعراضهم وأموالهم ــ إلى ألا يرعوا للمسلمين عهدا، وألا يفوا لهم بذمة، وألا يتورعوا عن سفك دمائهم، وإزهاق أرواحهم، ونهب أموالهم ولم يكد يمضى على سقوط غرناطة اثنتان وثلاثون سنة حتى أصدر البابا أمره سنة ١٥٢٤ م بتحويل جميع مساجد أسبانيا إلى كنائس، ولم تمر بعد ذلك أربع سنوات أخرى حتى لم يبق فى أسبانيا كلها مسلم واحد[5].

وقد سجل أبو البقاء صالح بن شريف الرَّنْدِى المتوفى سنة ٧٩٨ هـ بعض هذه المخازى فى قصيدته المحزنة، فقال:

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لاعزاء له ... هوى له أحد وانهدّ ثهلان

(١) من أوربا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ١٣.

(٢) التاريخ الوافى للأستاذ طلعت زهران وإخوانه ص ٩.

(٣) الدعوة للإسلام لأرنولد، وتوماس ترجمه حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين ص ٢٥٢، والمغول بين المسيحية والإسلام، ومغول إيران لطه مصطفى بدر.

(٤) المرجع السابق ٢٦٠. (٥) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعى ١١٢.

أصابها العين فى الإسلام فارتزأت حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ماشأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كنّ أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيسٌ وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة حتى المنابر ترثى وهى عيدان

إلى أن قال :

يامن لذلة قوم بعد عزهمُ أحال حالهم جور وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم واليوم هم فى بلاد الكفر عُبْدان
فلو تراهم حيارى لادليل لهم عليهم فى ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يارب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان فى القلب إسلام وإيمان

٥ ــ ألم يحمل التعصب الغربى المسيحى إلى أن يساعد روسيا فى عهديها المسيحى والإلحادى فى أن تضم إليها أكثر من عشر جمهوريات وأقاليم إسلامية ، من أعرق البلاد فى الإسلام والثروات وأن تقضى على الإسلام فيها ، وهى استرخان ، والأورال ، وسيبريا ، والقرم ، وأذربيجان ، وجورجيا ، وأرمينية ، والتركستان ، أى الشمال الشرقى من العالم الإسلامى أجمع ، وفيها طشقند ، وسمرقند ، وبخارى ، ومرو ، وخوارزم ، وغيرها .

٦ ــ ألم تزرع المسيحية الغربية بمساعدة روسيا الإلحادية إسرائيل فى قلب

الوطن العربى ، لتمزق الصف العربى ، والوحدة الإسلامية ، وتشغل المسلمين بغيرهم مدى حياتهم ، حتى لايتفرغوا للقيام برسالتهم ، ومسايرة ركب الحضارة .

وإمعاناً فى التعصب ضد الإسلام ، ومنطقة انطلاقه ، أخذت المسيحية تصب عذابها على المسلمين فى الشرق الأوسط بواسطة الصهيونية التى غرستها فى جسمهم ، وأخذت ترعاها وتحميها ، وتمدها بكل ماتحتاج إليه ، وتدافع عن جرائمها فى الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن الدولى ، حتى لاتثبت عليها جريمة ، أو يلصق بها اتهام ولو عثت فى الأرض فسادا ، فقتلت الأبرياء بالجملة ، وانتهكت الحرمات ، وعبثت بالمقدسات .

وليس أدل على تعصب الغرب المسيحى ضد الإسلام ، والسعى فى القضاء عليه فى عقر داره ، ومركز انطلاقه مما يقوله إيدن فى مذكراته ص٣٤٣ الطبعة الإنجليزية .

إن أمريكا راحت تنفق أموالها فى الخمسينيات على نطاق مسرف ، لإعانة الشيوعية فى الشرق الأوسط ، وكان غرض أمريكا من نشاطها السياسى والثقافى والعلمى فى هذه المنطقة طيلة المائة عام الأخيرة هو تمييع المبادىء والعقائد الروحية الدينية التى يؤمن بها سكان المنطقة(١) .

وليست فى العالم كله دولة تخشى التحركات الإسلامية بمثل ماتخشاه روسيا ، لأنها بدون المناطق الإسلامية فيها لاتستطيع اقتصادياً أن تظل دولة كبرى وغرض الصهيونية العالمية تمييع التراث العربى الإسلامى فى المنطقة ، على الرغم من تمسكها هى بتراثها الدينى اليهودى .

٧ـــ ألم يتعاون الغرب جميعه مسيحيوه ، ويهوده ، وملحدوه ، وشياطينه على محاربة الإسلام فى أى موطن ، واعتباره العدو اللدود لهم ، ويدبر المؤامرات ويبث الفتنة ضد المسلمين فى كل مكان ، ويوقد نيران الحروب بينهم وبين مواطنيهم بغية القضاء عليهم ، كما فعل فى تشاد ، والسنغال ، ونيجريا ، وغانة ، والسودان ، والحبشة ، ولبنان ، والفلبين ، وغيرها فى العصر الحاضر ، والماضى القريب . تصفح

---

(١) من خلود الإسلام للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص٢٤ نقلاً عن جريدة الحياة البيرونية فى يوم ١٥/١١/١٩٧٠م ص٣ .

التاريخ، وراجع الصحف فى ذلك لتعود بالخبر اليقين، وإليك بعض هذه الحقائق .

أ ـــ فى سنة ١٨٨٧ دعا امبراطور الحبشة يوحانس ـــ الذى اعتلى العرش بمساعدة الإنجليز عقب انتحار سلفه ـــ أعضاء الكنيسة إلى اجتماع هام، تقرر فيه وجوب الاقتصار على دين واحد، وعقب الاجتماع صدر مرسوم امبراطورى بإنذار المسلمين بالحرب، أو الجلاء عن أوطانهم وأملاكهم إلى خارج الامبراطورية إذا لم يقبلوا التنصير فى مدة ثلاثة أشهر، ودعم هذا القرار بأعمال وحشية ضد المسلمين، ومعارك دامية أدت إلى إخلاء العاصمة من المسلمين، وتنصير مايقرب من خمسين ألفا، وهجرة مايقرب من نصف مليون إلى السودان فراراً بدينهم، ولكن الامبراطور لم يكتف بهذا، بل زحف على السودان غازياً فى ١٠ مارس سنة ١٨٨٩ بجيش قوامه مائتا ألف لضرب المهاجرين، والقضاء على حركة المهدى كنصيحة الإنجليز، ولكنه فشل فى حملته، فعاد يجر ثياب الذل والعار .

ب ـــ حينما احتل الفرنسيون الجزائر، دخلوا على نية إفناء أهلها وإبادتهم، يدل على ذلك ماقاله قائدهم: إنه لابد من أن تكون الجزائر لفرنسا، ولو أبدنا أهلها، وعلل ذلك بأنهم مسلمون لايستحقون البقاء .

إنها إذن حرب دينية، وليست حربا مدنية، وحرب وحشية، وليست حربا إنسانية .

ومن الذى كان ينصر الفرنسيين فى تلك الحروب الفاجرة المدمرة، ويظاهرهم سرا وعلنا، ويمدهم بالسلاح والقنابل الفتاكة، والأسلحة النووية، فى الوقت الذى كان العالم كله ينادى باستنكارها، ومن الذى كان يقوم بتجهيز ألف ألف من الجنود الفرنسيين بالآلات المدمرة المفنية للسكان، ويمدهم بكل مايحتاجون إليه؟ ومن الذى كانت تسره هذه المجازر التى يدفع إليها المسلمون للقتل والتمثيل بجثثهم الطاهرة، وبقر بطون النساء، وقتل الأطفال أمام أمهاتهم، والآباء أمام أبنائهم، والأمهات وهن يحتضن الرضع؟

إنهم الإنجليز والأمريكان، وحلف الأطلنطى بأكمله، وما فعلوا ذلك إلا لأن الجزائر بلد إسلامى، لالشيء آخر .

ويؤيد ذلك ماقاله وزير خارجية فرنسا فى تقريره عند احتلال الجزائر عن هذا الاحتلال : (إنما هى حملة من هذه الحملات الصليبية التى توجهها أوربا إلى الشرق بين حين وحين .

ولقد نفذوا ذلك تنفيذاً كاملاً عقب استيلائهم عليها، فصادروا الأوقاف الإسلامية، وجعلوا من المساجد مرابط لخيولهم، وحولوا أكثرها إلى كنائس، ولم يتركوا قائما إلا قوضوه، ولا صالحاً إلا أفسدوه، وأخذوا من الأهلين أرضهم وأموالهم، ومزارعهم الخصبة، واستقلوا بالتجارة، ولم يتركوا لهم من الأرض إلا القليل النادر الذى يشارف الصحراء، وتناسوا فضل الجزائريين عليهم فى الحرب العالمية الثانية، حيث كانوا فى مقدمة جيوش فرنسا المحاربة للألمان، وهلك منهم مايزيد على مليون جزائرى .

جـ ـ فى القرن العاشر الهجرى أسس ظهير الدين محمد بابر فى الهند الدولة الإسلامية المغولية التى كانت تجمع الهند كله تحت إمارتها، وكانت أعظم دولة إسلامية فى الشرق، وغالبية رعاياها من المسلمين، وظلت هذه الدولة قائمة تنشر العدل، وتحكم بين رعاياها بالقسط، إلى أن استولى عليها المستعمرون الإنجليز سنة ١٨٥٧م بعد حروب طويلة، وخلعوا آخر ملوكها ونفوه حتى مات .

وبذلوا أقصى مالديهم من قوة مادية وتبشيرية لحمل الهند على اعتناق النصرانية، والتحول عن ديانتهم الإسلامية بعد أن قسموا شبه الجزيرة الهندية إلى دويلات صغيرة، وبثوا بينها الخلافات الحادة وأشعلوا بينهم نار العداوة حتى يستطيعوا حكمهم والسيطرة عليهم حسب منهجهم الذى رسموه (فرق تسد) .

وبعد معارك طويلة دامية، وجهاد مرير راح ضحيته الآلاف المؤلفة من أبناء شبه الجزيرة الهندية، وبعد أن تقلص عدد المسلمين فيها إلى مايقرب من الخمس بسبب التبشير والاضطهاد منحتها انجلترا استقلالها الذى انتهى إلى تقسيمها إلى دولتين: الهند الهندوكية، وباكستان الإسلامية، وحتى لايهنأ المسلمون فى باكستان بالاستقلال أوجد لها الاستعمار الغربى مشكلة كشمير .

د ـ الاستعمار ومشكلة كشمير :

كشمير بلد إسلامى، وكان بمقتضى تقسيم شبه الجزيرة الهندية بين الهند

وباكستان أن تكون كشمير لباكستان الإسلامية، لأنها مجاورة لها وتلاصق حدودها، وهى إسلامية خالصة أو تكاد، ومع هذا لم تجد باكستان مساعدة من الإنجليز أو الأمريكان فى ضم كشمير إليها، مع أن الهند دولة محايدة، وباكستان تسير فى فلك الغرب، وعضو فى الحلف المركزى الذى أنشأته أمريكا وإنجلترا، وبهذا يتضح أن عدم مساعدة باكستان فى ضم كشمير إليها هو أنهم مسلمون وسياسة الغرب فى الشرق إنما تسير طبقاً لهذا. فهل فعل الإسلام شيئاً من هذا؟

٨ـ ألم تقرأ فى الأهرام مافعله المسيحيون الكاثوليك بالمسلمين فى الفلبين؟

قالت الأهرام فى عددها الصادر يوم الثلاثاء ٢٩ / ٢ / ١٩٧٢م :

أ ـ كان المسلمون فى هذه الجزر هم حكام هذه البلاد منذ عدة قرون، ولقد حاولت وكالة الأنباء أن تصف مايجرى للمسلمين هناك بأنه مجرد إضطرابات، ثم لما زاد البلاء سمته مذبحة، فلما تفاقم وتفاقم قالوا: إنها إبادة جماعية.

ب ـ الفتك بالمسلمين فى الفلبين منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٧٠م يحاصرونهم فى المدارس، وفى المساجد، ثم يبيدونهم عن آخرهم.

جـ ـ كثير جداً من المسلمين هناك يخرجون من ديارهم ولا يعودون؛ لأن القناصة تخطفهم وسط الأحراش وتقوم بذبحهم.

د ـ البيوت هناك تنهب وتحرق، بيوت المسلمين خاصة، والأطفال يشوهون بقطع الآذان والأيدى، ويطرحون فى مداخل القرى.

هـ ـ حضر القاهرة أحد زعماء المسلمين هناك، وهو (سالبادا بنداتون) وكشف النقاب عن البشائع والفظائع المنصبة على المسلمين هناك.

و ـ مما عرف ذبحهم خمسة عشر ألف قتيل، ومثلهم مفقود، أما الهاربون من أفران الإبادة فهم مائتان وخمسون ألفا، مع تدمير ست قرى تماماً.

ز ـ القنابل والرصاص لاتكفى، بل تقلع العيون من الوجوه، وتنزع الأحشاء والقلوب من الأبدان.

حـ ــ المقصود من هذه الفظائع إخلاء البلاد من المسلمين، كما فعلت إسرائيل فى فلسطين فى الأربعينات ليحلوا محلهم .

ط ــ الأمراض والمجاعة يفتكان بالآلاف من المهجَّرين وهم يطلبون من المسلمين الأرز والدواء لإنقاذ مايمكن إنقاذه .

ى ــ طائفة (إيلاجا) هى الجماعة المسلحة فى حماية الشرطة التى تقوم بالمذابح ، ويؤيدها الرئيس الفلبينى (ماركوس) وحكومته .

ك ــ مذهبهم كاثوليك متعصبون هجّروا المسلمين من الشمال إلى الجنوب ليحتلوا ثرواتهم وبلادهم، وليحصروهم فى مقاطعتين حتى يسهل محوهم.. ألخ ماجاء فى الأهرام .

فعجبٌ بعد هذا ممن سوّدت وقائعه وجرائمه التاريخ أن يرمى الإسلام بالتعصب. إننا نتحداه أن يأتى بواقعة ولو قريبة من هذه الفظائع فى أى قطر من الأقطار التى بسط عليها الإسلام سلطانه، ونشر عليها رايته فى مدى أربعة عشر قرنا.

٩ ــ ألم يدفع التعصب المسيحية إلى أن تمد يديها إلى الوثنية المادية والوثنيات الأخرى تستعين بها فى محاربة الإسلام، وفى القضاء عليه فى بلاده، وفى بلاد كانت إسلامية آمنة مثل: ألبانيا، ويوغسلافيا، والتركستان الشرقية والغربية، وزنجبار، والفلبين، وموزمبيق، وغيرها .

وليس أدل على تعاون الغرب مع الوثنية والشيطان للقضاء على الإسلام، مما قاله كاسترو للسفير الإسرائيلى فى بلاده ــ كما ذكرته صحف كوبا وإذاعتها وترجمته عنها صحفنا العربية ــ قال ناصحاً :

على إسرائيل ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعاً إسلامياً دينياً، حتى لايجعل من حركاتهم شعلة من نار الحماس الدينى، مما يجعل من المستحيل على إسرائيل أن تصون كيانها؛ لأن الفداء إذا تملكته عقيدة دينية، وبخاصة فى المجتمعات الإسلامية، تلاشت أمامه كل العقائد الأخرى، بما فيها المركسية[1] ومن قول أحد

(١) خلود الإسلام للدكتور محمد خفاجى ص ٣٠ .

المسئولين فى ثورة عفر بالحبشة : وثورتنا ثورة إسلامية وطنية ، مبادئنا نابعة من صميم ديننا ، وكلنا مسلمون والحمد لله .. وليس بيننا فكر غير إسلامى .. ولذا فإنهم يشنون حربهم علينا بلا هوادة .. ولو كنا نحمل أفكارا غير إسلامية لما حاربونا هذه الحرب الشرسة .. لأنهم يدركون أن الثورات غير الإسلامية يمكن القضاء عليها بسهولة .. أما الحركة الإسلامية فلا يمكن اقتلاعها ؛ لأنها تعيش فى عقل كل مسلم عقيدة .. وتتمثل فى سلوكه عملاً .. ويقاتل من أجلها وهو ضامن إحدى الحسنين : النصر أو الشهادة(١) .

ومن قول القس صمويل زويمر للمبشرين أعضاء مؤتمر القدس الشهير الذى عقد بالمدينة المقدسة فى يناير سنة ١٩١١م إبان الاحتلال البريطانى لفلسطين :

ولكن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية ، فإن فى هذا هداية لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لاصلة له بالله ، وبالتالى فلا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها ، وبهذا تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية ، وهذا ماقمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام ، وهذا ماأهنئكم عليه .. وتهنئكم عليه المسيحية ، والمسيحيون جميعاً(٢) .

أقول : أليس إخراج المسلمين من دينهم الحق إلى أى دين سماوى تعاونا مع الشيطان كما قال تعالى : **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾**(٣) ؟

وإذا أخرج المسلمون من دينهم إلى غير دين سماوى أصلا ، أليس فى ذلك تعاون صريح ، ثم صريح ، ثم صريح مع الشيطان ، وأعوان الشيطان ؟ وبعد هذا تزعمون أنكم من أتباع المسيح المؤمنين بالتوراة والإنجيل ؟ **﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾**(٤) .

إنكم بهذا كفرتم بالله الواحد الأحد ، وبكل دين سماوى ، لا بالإسلام وحده ،

(١) الوعى الإسلامى أول ربيع الثانى سنة ١٣٩٦هـ ص٦٦
(٢) من الغارة على العالم الإسلامى ٣٩ .
(٣) آل عمران ٨٥ .
(٤) البقرة ٩٣ .

وآمنتم بالشيطان وبالوثنية المادية .

اتركوا التبجح وافتراء الكذب — أيها القوم — ولا تتمسحوا بموسى وعيسى — عليهما السلام — فإنهما منكم براء، وقولوها صراحة — بلا لف ولا دوران حول الأديان — إنكم كفرتم بالله ورسله، وبجميع القيم والأخلاق، وآمنتم بالشيطان وبالوثنية المادية، وإنكم لستم من أتباع الشيطان فقط ولكنكم شياطين من الإنس، تأمرون بالمنكر، وتنهون عن المعروف، وتكفرون بالله، وتلبسون مسوح المؤمنين به .

قولوا كلمة الكفر صراحة. فقد كفرتم بالله صراحة؛ لأنكم ضالون عن الحق ومضلون لغيركم عنه ﴿**فماذا بعد الحق إلا الضلال**﴾[1]، وما مثلكم إلا كما قال الشاعر:

وكنت فتى من جند إبليس فانتهى بى الحال حتى صار إبليس من جندى

١٠ — ألم يدفع التعصب المسيحية المستعمرة إلى أن تفرض حكما استبدادياً على جميع البلاد الإسلامية التى استعمرتها، وتجعل لنفسها حق القيام على دينها، وثقافة شعوبها، وتخصهم بضروب من المعاملات، لايحتملها الصبر مهما عظم، ولا يطيقها التحمل مهما اشتد، حتى إذا تم لها القدرة على طردهم بعد أن تيئس من إخراجهم عن دينهم وتعميدهم أجلتهم عن ديارهم، وغسلت الأرض من آثارهم، كما فعلت فى جنوب إيطاليا وصقلية، وجزر البحر المتوسط، وأسبانيا، وفى كل مستعمراتها التى فيها أقليات إسلامية، وكما تفعل اليوم فى الحبشة والفلبين واستراليا وغيرها .

١١ — ألم يدفع التعصب والحرص على اضطهاد المسلمين الاستعمار المسيحى إلى أن يجعل الرئيس مسيحياً ويفرض حكما مسيحياً متعصباً على شعوب كثيرة غالبيتها مسلمون كما فعل فى قبرص وغانة ونيجيريا والسنغال وسيراليون وتشاد وغيرها حرصاً منه على مضايقة المسلمين وإذ لالهم لينفروا من دينهم ويتخلصوا منه .

١٢ — ألم يدفعكم التعصب للجنس واللون، والتمييز العنصرى إلى تحريم دور العلم والخيالة، والمعابد والمطاعم والفنادق، والمساكن والأحياء والمتنزهات الخاصة بالبيض على السود، وكذا زواج السود من البيض والعكس، وما جزاء من يتعدى ذلك

(١) يونس ٣٢ .

إلا الهلاك، ثم بعد ذلك تغمضون أعينكم، وتغلقون عقولكم عما هو حاصل بينكم، وترمون الإسلام والمسلمين بالتعصب .

الإسلام — أيها المتجنى عليه والمتهم له بما ليس فيه — لايعرف التمييز الدينى بينه وبين أصحاب الديانات الأخرى ، بل يعرف المساواة الكاملة بمقتضى قاعدته وقانونه الذى استخلصه من دينه (لهم مالنا وعليهم ماعلينا) ، ولا يعرف التمييز العنصرى ، ولا التفرقة بين الأجناس والألوان .

فقد ولى رسول الله ﷺ أسامة بن زيد قيادة جيش فيه كبار الصحابة وخيارهم ، أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وهو عبد أسود ، وابن مولاه زيد بن حارثة ، وسنه لم يتجاوز سبع عشرة سنة[1] .

وليس فى الإسلام مجتمعات للبيض وأخرى للسود كما فى أمريكا ومن على شاكلتها ، التى تحظر على الزنوج السكنى فى أحياء البيض ، أو التعلم فى معاهدهم ، أو دخول فنادقهم ، أو العلاج فى مستشفياتهم ، أو التعبد فى كنائسهم ، ولا أن يعيشوا معا ، أو يتساووا فى أى شيء .

الإسلام — يامن تفترى عليه — عالمى فى دينه، إنسانى فى حضارته، ينظر إلى الناس جميعاً بمنظار الحق والعدل، والمودة والبر، ولا يرى البياض ولا السواد إلا بياض الأعمال وسوادها ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[2] ولا يرى التفاضل والتمايز بين الناس إلا بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة.

قال تعالى : ﴿ **ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[3]، وقال ﷺ: «لافضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب» رواه أحمد[4] والإسلام يوجب ألا يؤدى اختلاف الناس فى أديانهم أو جنسياتهم، أو أوطانهم إلى أن يظلم بعضهم بعضا، أو يتعدى بعضهم على بعض، أو يتعالى عليه، بل يفرض عليهم أن يتعاونوا على فعل الخير ودفع الشر، قال تعالى: ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**

(١) نور اليقين للخضرى ٢٧٠ .
(٢) آخر الزلزلة .
(٣) الحجرات ١٣ .
(٤) فى سنده ٥/ ٤١١ عن رجل من أصحاب النبى ﷺ وإسناده صحيح .

واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[1]، ولذا قال الأستاذ محمد عبده: وما جاء به الإسلام هو الذى حببه إلى من كانوا أعداءه وردوا إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

غلب على المسلمين فى كل زمان روح الإسلام، فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم، إلا بعد أن يحرجهم الجار، فهم كانوا يتعلمونها من سواهم، ثم لايكون إلا طائفا يحل ثم يرتحل، فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب إلى سابق ماألفته من اللين والمياسرة[2] .

١٣ ــ ألم يدفع التعصب البغيض الغرب المسيحى كله إلى أن يقف فى وجه الإسلام محاولاً صد تياره، ومنع انتشاره وإطفاء نوره، ويعلن عليه حرباً استعمارية فى جميع أقطاره، وينشر مبشريه فى كل دياره، ويمدهم بكل الطاقات والإمكانيات، ويغريهم بالمكافئات، وبالسمو إلى أعلى الدرجات لتزييف حقائق الإسلام، وطمس معالمه، وإخفاء فضائله، ويوالى الطعن والتجريح فى رسوله الكريم، وكتابه العظيم فى كل مكان وزمان، محاولاً تجريد الرسول ﷺ من محاسنه ومكارمه، والقرآن من هداه وفضائله.

١٤ ــ ألم يدفع التعصب الغرب المسيحى إلى أن يصرح بأن القضاء على الإسلام أو على الأقل وقف توسعه عند حد هو هدف حيوى بالنسبة لفرنسا وأوربا ؟

١٥ ــ ألم يتساءل لويس التاسع قائلاً: هل فى وسع المسيحية أن تواصل وحدها الاطلاع بمحاربة الإسلام؟.. وعلى ضوء تجاربه كان جوابه هو أنه لم يعد فى وسع الكنيسة أو فرنسا مواجهة الإسلام، وأن هذا العبء لابد أن تقوم به أوربا كلها لتضيق الخناق على الإسلام وتقضى عليه، ويتم لها التخلص من الحائل الذى يحول دون تملكها لآسيا وأفريقيا .

وأنه إذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت عسكرياً فى تحقيق أهدافها فمما

---

(١) المائدة ٢ .

(٢) رسالة التوحيد ١٨٨ .

لاشك فيه أنها مهدت الطريق لزحف المبشرين كى يحققوا الهدف نفسه .

١٦ ـــ ألم يقل اليسوعيون : ألم نكن ورثة الصليبيين .. أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيرى والتمدين المسيحى ، ولنعيد فى ظل العلم الفرنسى وباسم الكنيسة مملكة المسيح[١] .

١٧ ـــ ألم يدفع التعصب البغيض الغرب المسيحى على أن يدفع بكتائب التبشير إلى جميع بلاد الشرق الإسلامى ، ويؤسس لهم فيه أكثر من خمسمائة جامعة وكلية ومعهد ، فضلاً عن المستشفيات والمستوصفات الطبية ، وتقديم المعونات المالية ، وعندما وضع النظام الأساسى للجامعة الأمريكية فى بيروت منذ أكثر من مائة عام أصر واضعوه على تأكيد الطابع التبشيرى لها ، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً[٢] .

١٨ ـــ ألم يقل القس صمويل فى نشرته لأعضاء هيئة التبشير : تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها .

ينبغى للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء[٣] .

وهكذا جعل الاستعمار من مبشريه بضلالهم وافترائهم نقاداً للإسلام وطاعنين فى القرآن وفى رسول الإسلام ، ورامين الإسلام بأنه سبب تأخر المسلمين ، ومشعلين على المسلمين نار العداوة والحقد فى كل مكان .لاأريد أن أطيل فى تسويد هذه الصفحات من هذا الكتاب بمساوئكم ومخازيكم التى يندى لها جبين الإنسانية ، وتقشعر منها جلود العقلاء ، ويتحدث عنها أحرار مفكريكم وهم فى خجل بالغ واستحياء مهين ، أمام مايعلمونه من سماحة الإسلام وتسامح المسلمين .

نحن لانعتدى ولكن نرد العدوان ، وما نفترى ، بل ندحض البهتان . لقد كان

(١) حقائق عن التبشير ٣١ . (٣) حقائق عن التشير ٣٢ .
(٢) خلود الإسلام ٤٧ .

من الخير لكم ـــ لو كنتم تعقلون ولا تحاولون طمس الحقائق ـــ ألا تفتحوا على أنفسكم هذا الباب الذى سودتم صفحاته بمخازيكم، وملأتم أوراقه بمساويكم، وأحقادكم الدفينة .

هل نسيتم مذابحكم وما فعلتموه ضد المسلمين فى الحروب الصليبية؟ وفى أسبانيا الإسلامية، وفيما استعمرتوه من بلاد الإسلام الأفريقية والأسيوية . تذكروا من أكرهتموهم على ترك الإسلام، وقتلتموهم بالجملة فى كل مكان، تذكروا محاكم التفتيش التى نصبتموها لمحو الإسلام والقضاء على المسلمين، ومرسوماتكم التى أصدرها رؤساؤكم لإبادة المسلمين فى الغرب والشرق، ومعابد المسلمين التى دمرتموها من أقطار بأكملها، وأخليتموها من مدن بجملتها، والتى انتهكتموها، والفجور الذى ارتكبتموه فى كل قطر حللتم به، تذكروا كل هذا ولا داعى إلى التفصيل خشية التطويل .

ثم اذكروا لنا أية جماعة فى أى قطر فى الأقطار قتلهم المسلمون لإكراههم على الدخول فى دينهم، وأية كنيسة هدمها المسلمون إكراها فى أى من البلاد التى فتحوها؟ ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ .

ولا تدعوا على الإسلام والمسلمين ماهو فيكم وليس فيهم إن كنتم تعقلون ماتقولون .

* * *

المبحث الثالث

دحض جريمة اتهام أصحاب محمد ﷺ بالفجور

لقد رمى المنسنيور كولى فى كتابه « البحث عن الدين الحقيقى » أصحاب محمد ﷺ ، بالفجور كما سبق ذكره فى أول هذا الفصل ، وتلك ثالثة الجرائم ، وكبرى العظائم ، وكيف لا تكون كذلك ؟ .

وقد عارض بها شهادة الله جل جلاله ، وشهادة رسوله ﷺ ، وشهادة المنصفين من أهل الكتاب ، وشهادة الواقع الفعلى الذى سجله التاريخ المتواتر لهؤلاء القوم الفضلاء .

أيها المتجنى على الرسول الكريم وصحبه الأطهار ، هل كنت حين تكلمت بذلك غائب العقل ، أو جاهلاً بالإسلام ، وبسيرة محمد ﷺ ، وأتباعه ، فانطلقت تهرف بما لا تعرف ، فأظهرت جهلك ، وفضحت أمرك ؟ أم كنت مكابراً فى الحق حسداً وحقداً على الرسول الكريم ، وأصحابه الفضلاء ، فنطقت بالباطل فى وجه الحق المبين الذى سجله فى كتابه رب العالمين ، ونطق به الرسول الأمين ، والأحرار المنصفون ؟ .

إن كنت لا تعلم فتلك مصيبة   وإن كنت تعلم فالمصيبة أعظم

لقد قال فيهم ربهم الذى خلقهم ، واختارهم ــ وهو أعلم بهم ــ أصحاباً لمحمد ﷺ : **﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾**[1]فقد وصفهم ربهم بالإيمان الصادق والخيرية الممتازة ،

---

(١) آل عمران ١١٠ .

والأخلاق الكريمة ، والحرص على تقديم الخير للغير ، ثم ترميهم أنت ــ أيها الجاهل بهم ــ بالفجور ، إن هذا لبهتان عظيم .

كما شهد لهم ربهم بالنبل والفضل ، وكمال الخلق مع الله وخلقه ، وسجل شهادته لهم بذلك فى قرآنه الكريم ، وفى التوراة والإنجيل ، ووعدهم فى الدار الآخرة بالمغفرة السابغة والأجر العظيم فقال عز وجل :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم(١) فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه(٢) فآزره(٣) فاستغلظ(٤) فاستوى(٥) على سوقه(٦) يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم(٧) مغفرة وأجراً عظيما ﴾(٨) .

وكرمهم الله بعدة تكريمات ، فاصطفاهم على غيرهم من الأمم ، ويسّر لهم أمور دينهم ، وجعل دينهم شريفاً شرف البيت العتيق ، وسماهم المسلمين فى الكتب السابقة وفى القرآن الكريم ، ثم منحهم ربهم ميزة لم تحلم بها أمة من الأمم ، فرفعهم إلى منزلة ما بعدها منزلة ، وسما بهم إلى درجة لم يصل إليها غيرهم ، فجعلهم يوم القيامة شهداء على الأمم جميعها ، ورسولهم شهيداً عليهم ، وقد ذكر الله هذه التكريمات الخمس فقال مخاطباً لهم : **﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾(٩) .**

---

(١) علامتهم التى تميزهم عن غيرهم .

(٢) شطأه قال الكسائى : يعنى طرفه الأعلى ، وفسره بأنه السنبل ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ استوى على سوقه ﴾ .

(٣) قواه والمراد قوى الزرع سنابله بما يغذيها به لجودته .

(٤) صار هذا السنبل غليظاً بعد أن كان ضعيفا .

(٥) استقر ولم تذهبه الآفات .

(٦) سيقانه ، وهى عيدانه .

(٧) (من) لبيان الجنس ، أى الذين آمنوا من جنس هؤلاء .

(٨) آخر الفتح .

(٩) آخر الحج .

وأكد الله هذه الميزة التى خصهم بها بقوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾(١) وسطا : عدولا وخيارا ، لا تفريط عندكم ولا إفراط .

وقال فيهم رسولهم الذى عاشرهم ، وعاش معهم فى ليل ونهار ، وحضر وسفر ، وحرب وسلم . محذراً من إيذائهم ، ومبيناً فضلهم ، وأنهم فى الفضل والخير لا يشق لهم غبار ، وأنهم لهم عند ربهم منزلة لا يدنو منها أحد مهما كان : « لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه(٢) » رواه الشيخان عن أبى سعيد الخدرى(٣) .

وعن سعد بن أبى وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من يرد هوان قريش أهانه الله عز وجل » رواه أحمد(٤) .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول فى قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ قال : أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيارها وأكرمها على الله تعالى » أخرجه الترمذى(٥) .

وقال فيهم عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من كان مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحى لا يؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة . أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » أخرجه رزين(٦) .

وقال فيهم علىّ ـــ كرم الله وجهه ـــ : لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثاً صفرا غبرا ، بين أعينهم أمثال ركب المِعْزى ،

---

(١) البقرة ١٤٣ .

(٢) المد : ملء الكفين المتوسطتين ، ولا نصيفه : نصفه ، وأحد جبل عظيم شمال المدينة المنورة .

(٣) اللؤلؤ والمرجان ٣ / ١٨٢ .

(٤) فى مسنده جـ ٢ حديث ١٤٧٣ .

(٥) تيسير الوصول ١ / ١٠٣ .

(٦) تيسير الوصول ١ / ٢٦ .

قد باتوا لله سجدا وقياما ، يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فما دواكما يميد الشجر يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم[١] .

وقد شهد رجال منكم لأصحاب محمد ﷺ وأتباعه بأنهم كانوا نماذج رفيعة فى الأخلاق الكريمة ، وفعل الخيرات وعمل الصالحات ، ومثلاً عليا فى الطهارة والعفاف والعدالة والوفاء ، فقد جاء فى البداية لابن كثير[٢] وغيرها : أنه حينما حاقت بالروم هزيمة ساحقة فى يوم واحد — بالرغم من أن الروم كانوا أضعاف أضعاف عدد المسلمين — أن أحد أمراء الروم وهو هرقل أمير أنطاكيا بلغ به العجب كل مبلغ حينما رآهم يولون الأدبار فى كثرة ساحقة ، وعدة وافرة ، فسألهم : ويلكم ، أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم فى كل موطن . قال هرقل : فما بالكم تنهزمون ؟ فأجابه شيخ من عظمائهم قائلاً :

من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون فيما بينهم ، ومن أجل أننا نشرب الخمر ونزنى ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغصب ونظلم ، ونأمر بما يسخط الله ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد فى الأرض ، فقال هرقل : أنت صدقتنى أ هـ .

وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ ، لا كما تجنّى عليهم المتجنى وافترى عليهم المفترى ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾[٣] ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾[٤] .

وقال بيتان رئيس فرنسا — بعد سقوطها المزرى فى الحرب العالمية الثانية موضحاً لقومه أسباب الهزيمة ، ومبيناً أن الفجور عندكم لا عند أصحاب محمد ، وداعياً إلى الأخذ بوسائل النصر ،وأولها ترك الفجور — فقال :

« زنوا أخطاءكم فهى ثقيلة الموازين ، إنكم لم تريدوا نسلا حلالا ، وتنكرتم

---

(١) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ٢٢٦ .
(٢) جـ ٧ ص ١٥ .
(٣) آخر المجادلة .
(٤) الأنعام ٩٠ .

للقيم الخلقية ، ونبذتم المبادىء الروحية ، وجريتم وراء الشهوات تتمرغون فى حمأة الزنا والخنا والفجور ، فانظروا إلى أين قادتكم كل هذه الخطايا والدنايا[1] .

ولقد قال البابا أنسنت الثالث فى وصف ما فعله الصليبيون ـــ حين قدموا من أوربا فاستولوا على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م ـــ بإخوانهم الأرثوذكس : إن أتباع المسيح وناصرى دينه الذين كان يجب أن يستلوا سيوفهم ضد عدو المسيحية الأكبر « يعنى الإسلام » قد سفكوا الدم المسيحى الحرام ، وغرقوا فى بحاره ، هؤلاء لم يحترموا الدين ، ولا السن ولا الجنس ، فارتكبوا الزنى فى وضح النهار ، لقد سُلِّمت الراهبات ، والعذارى والأمهات لوحشية الجنود .أ هـ[2]

لقد علمتم ـــ أيها القوم ـــ بعد هذا من هو الأحق بوصف الفجور ، ولقد فسد منطقكم ، وضاع احترامكم للنقل والعقل ، حتى بلغ ما بكم من الغباوة والجهل ، أن يسخر الباطل من الحق ، والفساد من الصلاح والتقوى ، والفجور من العفاف والطهر .

* * *

(١) من مجلة الأزهر عدد جمادى الأولى سنة ١٣٧٦ هـ .

(٢) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعى ١١١ .

المبحث الرابع

سحق جريمة تشكيك المبشرين فى القرآن

يقول المبشر جون تاكلى : يجب أن نستخدم القرآن ـــ وهو أمضى سلاح ـــ ضد الإسلام نفسه ، بأن نعلم المسلمين أن الصحيح فى القرآن غير جديد ، وأن الجديد فيه غير صحيح[1]

ويزعم المبشر نلسن وغيره : أن الإسلام مقلد ، وأن أحسن ما فيه مأخوذ من النصرانية ، وسائر ما فيه مأخوذ من الوثنية[2] .

وحكى الكونت هنرى دى كاسترى فى كتابه « الإسلام سوانح وخواطر » عن أحد المبشرين قوله : إن الرسول ﷺ كان يقرأ ويكتب ، فقرأ التوراة وقرأ الإنجيل وأخذ تعاليمه منهما [3] .

وسحقاً لهذه الافتراءات أقول : إن هذه الافتراءات مقطوع ببطلانها نقلاً وعقلاً لأمور :

١ ـــ أن القرآن الكريم منقول إلينا عن الرسول عن جبريل عن رب العالمين بالتواتر سماعاً وكتابة ، كل سورة منه ، وكل آية وكل حرف ، وكلما يتقادم العهد يزداد حفظاً على حفظ ، فأصبح بعد حفظه وتدوينه فى المصاحف مسجلاً فى شرائط ، ويذاع من جميع إذاعات القرآن الكريم فى جميع العالم صباح مساء ، وصدق الله : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[4] .

---

(١) واجب المسلمين فى نشر الإسلام للأستاذ زيد فياض ١٩ .
(٢) مفتريات اليونسكو للأستاذ عبد الله السمان ٢٠ .
(٣) أوربا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ٣١ .
(٤) الحجر ٩ .

فلأنه آخر كتاب وأنزل للعالمين حفظه الله من أى تحريف أو تغيير ، ليكون حجة قائمة على الناس إلى يوم الدين ، ومرور الزمن وتوالى القرون والقرآن كما هو يوم أنزل يؤكد وعد الله بحفظه .

٢ ــ أن القرآن الكريم تشريع شامل ، وكتاب كامل من جميع نواحيه ، فلا خلل فى مبانيه ، ولا معانيه ، كما قال تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه** ﴾(١) أى لا ريب فى كونه من عند الله ، ولا فى إعجازه وبلاغته ، ولا فى معانيه وحكمته ، ولا فى شمول تشريعه ودقته ، ولا فى عدالة أحكامه وكمال هدايته .

فهل يأتى بعد هذا من يشكك فيه ؟ أو يطعن فيه من أية ناحية من نواحيه ، فيقول:إن الصحيح فى القرآن غير جديد ، وإن الجديد فيه غير صحيح ، أو يقول إن ما فى القرآن مأخوذ من التوراة أو الإنجيل أو الوثنية ؟ يا لها من فرية ما فيها مرية .

٣ ــ إن هذه الافتراءات ولدت ميتة وباطلة ، فمن أنزل القرآن تحدى به الإنس والجن ، وفيهم العرب الذين عاصروا نزوله ، ونزل بلغتهم وكانوا فى القمة فصاحة وبلاغة ، ونبوغاً وذكاء ، ومع ذلك عجزوا عن أن يأتوا بأقصر سورة من مثله ، فأين منهم أمثالكم ؟

قال تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾(٢) .

أى قل لهم ــ يا محمد متحدياً ــ والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذى أنزل عليك فصاحة وبلاغة وأحكاماً وتشريعاً ، وإخباراً عن المغيبات ، وبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة ونحو ذلك ، لا يأتون بمثله ولو تعاونوا وتظاهروا ، فإن ذلك غير ميسور لهم ، لأنه فوق مستواهم لفظاً ومعنى ، إذ هو من كلام الخالق القادر على كل شيء العليم الحكيم ، وشتان بين كلام الخالق القادر على كل شيء ، وبين كلام المخلوق العاجز ، ثم

---

(١) البقرة ٢ .

(٢) الإسراء ٨٨ .

تحداهم الله بأن يأتوا بمثل أقصر وأوجز سورة منه ، وأخبرهم بأنهم لن يستطيعوا ذلك ، فقال تعالى :

﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[1] .

فإذا كان من عاصر نزول القرآن من العرب الذين نزل بلغتهم كانوا فى القمة فى جميع النواحى : من إتقان اللغة وحسن الصياغة ، ورصانة الأسلوب وتأثيره فى السامعين ، والإحاطة بما يريد الكلام فيه ، ومع ذلك عجزوا عن أن يأتوا بسورة مماثلة من سور القرآن فى بلاغتها وأحكامها وعلومها ، وسائر هدايتها ، عجزوا فرادى وجماعات .

فهل يستطيع أمثالكم ــ الذين هم دونهم فى اللغة وآدابها وكل ما يتعلق بها بمراحل ــ أن يأتوا بسورة من مثله ؟ جربوا حظوظكم واعرضوا علينا إنتاجكم لتضحكونا وتضحكوا الناس عليكم .

٤ ــ لو كان محمد كاذبا والقرآن مختلقاً ــ كما تدعون ــ لما جاء بتشريعات يعجز عنها البشر ، فتشريعات البشر كل يوم فى تغيير وتبديل ، ولما بقى أربعة عشر قرناً شامخاً سامقاً يتحدى العالم كله إنسه وجنه ، ولم يستطع أحد أن يقف أمام هذا التحدى ، ولم ينله أحد بشيء ، وأتباعه فى ازدياد ، ولقد ظهر أنبياء أدعياء ، وماتت دعوتهم بموتهم ، لأن دعوة الكاذب لا بقاء لها .

٥ ــ أعداء القرآن كانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض يشهدون له بالكمال وأنه فوق مستوى البشر .

فعتبة بن ربيعة حينما ذهب إلى النبى ﷺ يعرض عليه أموراً ليترك دعوته وينسجموا معه سمع منه النبى ﷺ كلامه ، وما عرضه عليه ، فلما انتهى من ذلك قرأ عليه النبى ﷺ أول سورة فصلت ، فعاد إلى قومه فقال لهم : والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر ،

---

(١) البقرة ٢٣ ، ٢٤ .

يا معشر قريش ، أطيعونى فاجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ[1] .

والوليد بن المغيرة عم أبى جهل — وكان من النبغاء فى اللغة والنظم والنثر — سمع القرآن مرة من رسول الله ﷺ . فلما خلا بقومه قال لهم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ماهو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[2] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه لَيَعْلو وما يُعْلَى[3] .

وكارليل أحد كبار كتاب الإنجليز ، ولم يعتنق الإسلام ، ولكنه يعترف بالحق لأهل الحق فيقول : فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً ، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع ... وما الرسالة التى أداها إلا الصدق والحق وما كلمته إلا صوت حق صادق ، صادر من العالم المجهول . . . وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله . . . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[4] .

٦ — فرية أن الرسول ﷺ كان يقرأ أو يكتب فقرأ التوراة والإنجيل وأخذ تعاليمه منهما أبطلها الله بقوله ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون** ﴾[5] .

أى ما كنت — يا محمد — تتلو كتاباً ولا تخط بيمينك حرفاً ، ولم تجلس إلى معلم ، ولم تستمع إلى مدرس ، بل كنت أمياً ، ومعروفاً فى التوراة والإنجيل بذلك ، قال تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾[6] ولو كنت قارئاً كاتباً لارتاب فيك أهل الكتاب ، وقالوا : الذى فى التوراة والإنجيل أمى ، ومحمد ليس كذلك .

٧ — جميع معاصرى الرسول ﷺ من أهل الجزيرة العربية يعلمون أنه ﷺ أمى ، ولم يعارضه أحد فى ذلك ، وهذا أمر معلوم بالتواتر معرفة ونقلاً ، فكيف يتجرأ أحد وينكر الأمر المعروف بالتواتر ، فضلاً عن النصوص القطعية ، لا شك أن كلامه باطل .

---

(١) نور اليقين للخضرى ٥٣ .
(٢) الطلاوة بضم التاء وفتحها : الحسن .
(٣) نور اليقين للخضرى ٤٣ .
(٤) أوربا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ٣٧ .
(٥) العنكبوت ٤٨ .
(٦) الأعراف ١٥٧ .

٨ ــ النبى ﷺ معروف فى التوراة والإنجيل أنه أمى فمن ينكر ذلك فقد أنكر ما جاء فيهما من وصف النبى ﷺ .

٩ ــ لو استقى النبى ﷺ معلوماته من التوراة والإنجيل لقال ــ كما قالوا ــ بالتثليث والحلول ، وبألوهية عيسى ، ووجد التحريف فى كتابه ، كما وجد فيهما ، لكنه جاء بالتوحيد وبأن الله ليس كمثله شيء ، الذى هو موافق لفطرته ، ومطابق لوجدانه منذ نشأته ، ولا تحريف أو تبديل فى كلماته .

١٠ ــ لو كان القرآن مأخوذاً من التوراة والإنجيل لكان غير معجز لأنه يكون من صنع البشر ، وهذا لا يقول به عاقل ، لأن كل عاقل معترف بأن القرآن معجز ، ويعلو ولا يُعْلَى .

١١ ــ لو كان القرآن مستقى منهما لما كان ناسخاً لهما ، ولما خالفهما فى كثير من تشريعاته ، ولما كان كاملاً من جميع نواحيه ، ولذا قال فيه الشاطبى : إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة ، وعمدة الملة ، وينبوع الحكمة ، وآية الرسالة ، ونور الأبصار ، والبصائر وأنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشيء يخالفه ، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه ، لأنه معلوم من دين الأمة[١] .

١٢ ــ وإذا كان القرآن مستقى من التوراة والإنجيل ــ كما يقول من يقول ، وأنه من صنع البشر ﴿ **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾[٢] فإنهم بشر مثل محمد ﷺ .

١٣ ــ ذكرت تحت عنوان « علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن القرآن حق » أحد عشر دليلاً من القرآن الكريم يثبت هذه القضية فالذى يعارض فى ذلك مكابر فى الحق مجادل بالباطل فلا قيمة لهرائه ، ولا اعتبار لكلامه فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم حرصاً على منصب أو جاه ، أو منفعة فى هذه الحياة .

فالقرآن حق كله ، وجديد كله ، ومقطوع بصحته كله ، بل بكل حرف منه ، وصدق الله ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل** ﴾[٣] .

---

(١) الموافقات فى أصول الأحكام للشاطبى المتوفى سنة ٧٩٠ هـ ص ٢٢٤ جـ ٣ .
(٢) الطور ٣٤ (٣) الإسراء ١٠٥ .

المبحث الخامس

سحق جريمة تشكيكهم فى نبوة محمد ﷺ

يبذل المبشرون نهاية طاقتهم ، وأقصى جهدهم فى التشكيك فى نبوة محمد ﷺ ويظهر ذلك فيما يأتى :

١ ـــ ألف الإمبراطور ما نويل الثانى « ١٣٩١ ـــ ١٤٢٥ م » كتاباً فى الرد على الإسلام وتعاليمه ، عرف فيه الإسلام بأنه ضلالة تسمى عقيدة وتحدث عن محمد ﷺ فى لهجة تشف عن التهجم[١]

٢ ـــ وجاء فى كتاب مادة التاريخ الذى يدرس للصف الرابع بالمدرسة البطريركية فى بيروت[٢] .

« واتفق لمحمد فى أثناء رحلته أن يعرف شيئاً قليلاً من عقائد اليهود والنصارى ، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولا . . . » ص ٣١ .

« والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدوّنونها بينما كان هو يتكلم . . . وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة » ص ٣٢ .

« وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل » ص ٣٦ .

« ودخلت فلسطين فى سلطان الكفرة منذ القرن السابع الميلادى »

---

(١) حضارة الإسلام لجوستاف جرونيباوم ترجمة عبد العزيز جاويد ٦٥ : ٧١ .

(٢) ويحمل غلافه هذا العنوان « تاريخ محاضرات ح إيزاك حررها أ . ألبا للشرق الأدنى لطلبة الصف الخامس عن العصور الوسطى » راجع التبشير والاستعمار ٦٨ ـــ ٦٩ للدكتور مصطفى الخالدى ، والدكتور عمر فروخ .

ص ١٢٦ .

ومعنى هذا أن محمداً ﷺ ليس مرسلاً من عند الله ، وأن القرآن مستقى من كتب اليهود والنصارى ، وأنه لم يكن يوحى إليه بشيء ، وأن الإسلام قام على الإكراه ، وأن المسلمين كفرة ، هل سمعت افتراء على الحق أعظم من هذا ؟ .

٣ ــ ونقل كارليل فى كتابه الأبطال عن بعض كتاب الأوربيين : « **إن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً لم يكن على حق** »(١) .

وقال كارليل : « ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية ، والحياة والسلطان . . . » وقال : ويزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وأثاره(٢) .

وقالت مجلة العالم الإسلامى الفرنساوية : فى المؤتمر الثانى العام الذى عقد بمدينة لنكو بالهند سنة ١٩١١ م ، وعرف باسمها ألقى الرئيس القس صمويل زويمر خطاباً يشير فيه إلى ارفضاض المؤتمر ، ثم وزعت على الأعضاء رقاع مكتوب عليها من جهة تذكار مؤتمر لنكو سنة ١٩١١م ، ومن الجهة الأخرى العبارة الآتية :

اللهم يا من يسجد لك العالم الإسلامى خمس مرات فى اليوم بخشوع انظر بشفقة إلى الشعوب الإسلامية ، وألهمها الخلاص بيسوع المسيح(٣) .

ويؤخذ من كلامهم أن الذى يخلص الشعوب الإسلامية من الشدائد والملمات التى ألمت بهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور فى زعمهم ، إنما هو المسيح عليه السلام ، وفى هذا كفر منهم بالله وتنكر لرسالة محمد ﷺ وتجاهل لها .

ودحضاً لهذه الافتراءات والأكاذيب أقول :

لقد أثبت فى المبحث الأول من الفصل الثالث من هذا الكتاب بالأدلة

---

(١) أوربا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) من الغارة على العالم الإسلامى ٦٥ .

المتواترة القاطعة أن علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن القرآن حق ، وفى المبحث الثانى منه أن علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن محمداً ﷺ صادق فى دعواه الرسالة ، وفى المبحث الثالث منه ، أن كل من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ فهو كافر ومخلد فى النار .

كما أثبت فى المبحث الأول من هذا الفصل بالأدلة المتواترة القاطعة كذلك أنه لا إكراه فى الدين الإسلامى .

ثم أعود لدحض افتراءات المبشرين للتشكيك فى نبوة محمد ﷺ فأقول :

١ ــ إن كل افتراءات المبشرين فى هذا الموضوع داحضة ، وجميعها جدال بالباطل فى وجه الحق الواضح ، وقد ذكرت ثلاثة وعشرين دليلاً من القرآن والتوراة والإنجيل والسنة النبوية تحت عنوان « علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن محمداً ﷺ صادق فى دعواه الرسالة » ، ولكنهم يكابرون فى ذلك ، ويكتمونه عن قومهم حرصاً على سلطانهم وحظوظ الحياة الفانية .

٢ ــ كان المشركون من قومه ﷺ إذا خلا بعضهم إلى بعض يعترفون بصدق النبى ﷺ فى دعواه الرسالة ، ولكنهم لا يؤمنون به حسداً وحقدا .

ففى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هرقل ملك الروم سأل عنه[1] أبا سفيان بن حرب قبل أن يسلم : « هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . قال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله »[2] .

ولقى رجل أبا جهل ــ ألد أعداء الرسول ﷺ ــ فسأله : يا أبا الحكم ، ليس هنا أحد غيرى وغيرك يسمع كلامنا ، فخبرنى عن محمد ، أصادق أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط .

وقال النضر بن الحارث لقريش : لقد كان محمد فيكم ــ وهو شاب ــ صادقاً أمينا ، فلما نبت الشيب فى صدغيه ، قلتم ساحر كذاب خائن ، والله ماهو

---

(١) أى عن النبى ﷺ .

(٢) اللؤلؤة والمرجان ٢ / ٢٢١ .

بساحر ولا كذاب ولا خائن[١] .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾[٢] .

٣ ـــ وقد أنصف بعض خصوم الإسلام الرسول الكريم ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ فإن السيرة العطرة لم تكن لتخفى ما كان عليه ﷺ من خلق كريم .

فقال كارليل : من العار أن يصغى أى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين : إن دين الإسلام كذب ، وإن محمداً لم يكن على حق ، لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة ، فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس ، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة ـــ التى عاشت عليها هذه الملايين وقامت ـــ أكذوبة كاذب ، أو خديعة مخادع ؟ .

ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفاً وعبثاً ، وكان الأجدر بها ألا توجد . هل رأيتم رجلاً كاذباً يستطيع أن يخلق ديناً ويتعهده بالنشر بهذه الصورة[٣] .

وقال تولستوى : لا ريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام ، وتكف عن سفك الدماء ، وتقديم الضحايا[٤] .

وقال أرنست رينان فى كتابه « تعليقاتى على تواريخ الأديان » : قد دلّتنى تحرياتى العلمية والتاريخية على أنه لا صحة مطلقاً لما أريد إلصاقه بالنبى محمد ﷺ من كذب وافتراء مصدرهما بعض المباينات العرفية ، والعادات القومية التى أراد بعض المتحاملين أن يتوجهوا بها إلى الناحية التى تشفى سقام ذهنيتهم الوقحة ،

---

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرى وابن كثير فى آية ٣٣ من سورة الأنعام « فإنهم لا يكذبونك . . » وتفسير المنار جـ ٧ ص ٣٧٢ : ٣٧٦ .

(٢) الأنعام ٣٣ .

(٣) فى كتابه « الأبطال » وهو من كبار كتاب الإنجليز المشهورين .

(٤) أوربا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود عدد ٧ ص ٤٥ .

وتعصبهم الذميم ، كقولهم : إنه كان يميل إلى التسيد والسيطرة ، مع أن محمداً كما أثبتت الوثائق التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ كان على العكس من ذلك ، بريئاً من روح الكبرياء متواضعاً صادقاً أميناً ، لا يحمل الحقد لأحد ،وكانت طباعه نبيلة ، وقلبه طاهر ، ورقيق الشعور[1] .

وقال الأستاذ الكبير عبد الرحمن عزام رحمه الله : ولقد سألت مرة — ونحن فى قطار لندرة أحد كبار العلماءالمستشرقين : هل تظن أن محمداً كان يقول قولاً لا يؤمن به ؟ فقال : لا . إن أمراً واحداً لا ريب فيه هو أنه كان صادقاً مؤمناً إيماناً كاملاً بما يقول وبما يدعو إليه[2] .

وهكذا يعترف بصدق النبى ﷺ وكاله المشرك والمسيحى .

٤ — وقولهم : إن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان وإن الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وأثاره . إن هو إلا افتراء وكذب على أخلاقه وسيرته ﷺ .

فقد فاوضه عن قومه عتبة بن ربيعة بجانب الكعبة ، فقال له : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت ، من البسطة والعشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها .

فقال محمد : قل يأبا الوليد . قال عتبة : إن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى .

فقال عليه الصلاة والسلام : فقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال :

---

(١) من « محمد رسولاً نبياً » للأستاذ عبد الرزاق نوفل ٦٨ .
(٢) فى كتابه بطل الأبطال ١٧ .

فاسمع منى ، فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصلت :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * حم *تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراًونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ... . . ﴾[١] ومضى يتلو عليه[٢] ، وكان ذلك جوابه لما عرضته قريش .

وقال كارليل : ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان . . كلا واسم الله ، لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس المملوءة رحمة وبراً وحناناً ، وخيرا ونورا وحكمة ، وأفكاراً غير الطمع الدنيوى ،وأهداف سامية غير طلب الحياة والسلطان[٣] .

وقال ليونارد إن كان رجل على هذه الأرض قد عرف الله ، وإن كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له وفنى فى خدمته بقصد شريف ودافع عظيم ، فإن هذا الرجل بلا ريب هو محمد نبى العرب[٤] .

٥ ـــ إن الرسول العظيم محمداً ﷺ ولد وولد الخير معه ، ونما وترعرع ، ونما معه كل خلق كريم ، وكل فعل جميل ، وما اكتمل شبابه وبلغ أشده حتى بلغ خلقه كماله ، وصار المثل الأعلى للإنسانية ، والقدوة الحسنة للبشرية ، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾[٥] .

وقول مشركى قومه له حين قال لهم : « أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقىّ » ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا » رواه الشيخان عن ابن عباس[٦] .

وقول زوجه السيدة خديجة رضى الله عنها ـــ وهى ألصق الناس به ـــ حينما

---

(١) أول فصلت .

(٢) نور اليقين للخضرى ٥١ .

(٣) أوربا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ٣٧ .

(٤) بطل الأبطال للأستاذ عبد الرحمن عزام ١١ .

(٥) الأحزاب ٢١ .

(٦) اللؤلؤة ١ / ٥٢ .

قال لها : لقـــد خشيت على نفسى « كلا أبشر فوالله لايخزيك الله أبـــــدا ، والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » رواه الشيخان(١) .

وقوله ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » رواه مسلم عن وائلة بن الأسقع(٢) .

لقد جمعت الأنبياء خير صفات أقوامها وجمع محمد ﷺ صفات الأنبياء كلها ، وقد أخبر الله عن ذلك بقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾(٣) ، وعن الحسن قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : « كان خلقه القرآن » رواه أحمد(٤) . ومعنى ذلك أنه ﷺ كان تطبيقاً عملياً للقرآن الكريم .

٦ — إن رسولنا محمداً ﷺ كانت أخلاقه وصفاته وسجاياه ،وأعماله برهاناً صادقاً ، ودليلاً ناطقاً على أنه فوق مستوى الإنسانية وعلى أسمى ما تتصور البشرية يؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا** ﴾(٥)، فالبرهان : الرسول ﷺ ، والنور : القرآن .

وقد عرف فيه ذلك جده عبد المطلب ، وهو دون الثامنة من عمره ، فقال : إن ابنى هذا سيد ، وسيكون له شأن عظيم .

وكان يجىء إليه ﷺ الرجل من أهل البادية ليتعرف أمره ، فيقول له زعماء الشرك : إنه كذاب ، فإذا ما التقى بالرسول ﷺ وألقى عليه نظرة فاحصة هتف قائلاً : والله ما هذا الوجه بوجه كذاب .

وعن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه(٦) فكنت فيمن جاءه فلما تأملت وجهه واستثبته(٧) علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب . . » الحديث رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن

---

(١) اللؤلؤة والمرجان ١ / ٣٣ ،واللفظ لمسلم جـ ٢ ص ٢٠٠

(٢) واللفظ له جـ ٥ ص ٣٦ ، وأحمد والترمذى .

(٣) القلم ٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٠٢ .

(٥) النساء ١٧٤ .

(٦) أسرعوا ومضوا إليه كلهم .

(٧) تحققته وتبينته .

صحيح ، وابن ماجه والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين(١) .

٧ ــ ماذا نقول فى أكرم مخلوق شهده الوجود ، وأفضل إنسان عرفه التاريخ ، وما عسى أن نقول فيه بعد قول الله سبحانه ، وهو أعلم بمقامه : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾(٢).

وبعد أن بين لنا منزلته الكريمة وعرفنا بمقامه العظيم فقال تعالى : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾(٣) .

لقد رفع الله منزلته فكرمه وعظمه وأعده للشهادة على الأنبياء والمرسلين يوم الدين ، وجعله مبشراً للمؤمنين بالجنة ومنذراً للكافرين بالنار ، وداعياً إلى الله وطاعته بأمره وسراجاً منيرا ، يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، فقال تعالى :

﴿ **يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيرا** ﴾(٤).

وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة ؟ قال : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ﴿ **يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا** ﴾ وحرزا للأميين(٥) ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب(٦) فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عميا وآذانا صما وقلوباً غلفا » (٧) رواه أحمد والبخارى (٨) .

٨ ــ ماذا نقول فيه ؟ وقد شرح الله صدره ، وجعله يتسع لكل ما فى الحياة

---

(١) الترغيب ٢ / ٣ .
(٢) الأنعام ١٢٤ .
(٣) التوبة ١٢٨ .
(٤) الأحزاب ٤٥ : ٤٧ .
(٥) حافظاً لهم .
(٦) السخب : رفع الصوت بالخصام .
(٧) كل شىء فى غلاف .
(٨) أحمد فى مسنده جـ ١٠ حديث ٦٦٢٢ وإسناده صحيح ، والبخارى فى جـ ٣ ص ١٣٩ واللفظ له .

من خير ويقوم بالدعوة إلى الله خير قيام ، ويتحمل أعباءها بنفس راضية ، وقلب مطمئن ، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ورفع له ذكره حتى أصبح يقترن باسم الله تعالى فى الأذان والإقامة والتشهد والدعاء ، والصلاة ، وجعل طاعته من طاعة الله ، فقال له مولاه : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك** ﴾(١) .

٩ — وماذا نقول فيه بعد أن أعطاه مولاه الخير الكثير ، ومنحه الفضل العميم : أعطاه النبوة ، والدين الحق ، والقرآن العظيم ، والمعجزة الخالدة ، والعلم والحكمة ، وأرسله رحمة للعالمين ، وجعل دينه خاتم الأديان ، ونهاية الرسالات ، وخلّده خلود الأرض والسموات ، وجمع له فيه بين الحسن والكمال فى كل ناحية وخيرى الدنيا والآخرة ، وغير ذلك من الأمور التى جمعها فى قوله تعالى : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾(٢) فالكوثر : الخير الكثير .

وجاء فى المسعودى من صفة الرسول ﷺ : « كان الرسول أجود الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله »(٣) .

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية : لقد صادف محمداً النجاح الذى لم ينل مثله نبى ولا مصلح دينى فى زمن من الأزمنة ، ويقول يوزورث اسمث : إن محمداً بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق (٤) .

فمحمد ﷺ الذى هو فى نظر المسلمين خاتم الأنبياء والرسل ، ومعلم الأبطال ، هو فى نظر المفكرين العقلاء من أهل الملل الأخرى أكبر المصلحين على الإطلاق ، إن مدار الاصطفاء للإيحاء هو التبريز فى إحراز الفضائل ، ونيل المكرمات ، وللنبى ﷺ فى ذلك القِدْح المعلّى ، فقد اشتهر بينهم بالأمانة والصدق وحسن السمعة ، وبلوغ الغاية فى الكمالات ، ولله در القائل :

---

(١) أول الانشراح .
(٢) أول الكوثر .
(٣) محمد رسولاً نبياً للأستاذ عبد الرزاق نوفل ٦٥ .
(٤) بطل الأبطال للأستاذ عبد الرحمن عزام ١١ .

خُلِقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

وقول الآخر :

ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

وهكذا كان محمد رسول الله ﷺ وكتابه الكريم فى القمة من جميع النواحي ، وفى الذروة من جميع الجوانب بشهادة القرآن والسنة ، وبشهادة أعدائه ومحبيه ، وبشهادة كل من رآه وخالطه ، ولا صمود أمام هذه الشهادة لكلام حاسد أو حاقد .

* * *

المبحث السادس

بذل المبشرين نهاية جهدهم لإخراج المسلمين من دينهم

يبذل المبشرون وأعوانهم كل ما يستطيعون لإخراج المسلمين من دينهم ، والتخلي عن قرآنهم ، ويدل على ذلك ما يأتى :

١ ـ ما قاله وليم جيفور بالكراف : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه[١] ـ يقصد حضارة الغرب الداعرة الفاجرة ، التى لا تعرف حلالاً ولا حراما .

٢ ـ وما قاله م . ك . اكسنفلد فى تقريره لمؤتمر أدنبرج الذى عقد فى هذه المدينة سنة ١٩١٠م : إن نمو ثروة الاستعمار متوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات ،وأهم وسيلة لتحقيق هذا الهدف هى إدخال الدين المسيحى فى البلاد المستعمرة ؛ لأن هذا هو الشرط الجوهرى حتى من الناحية الاقتصادية .

وجاء فى قرار المؤتمر أيضا : إن ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم[٢] ..

ويشير المؤتمر على الذين فى أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية[٣] .

---

(١) من الغارة على العالم الإسلامى ٣٩ .

(٢) راجع حقائق عن التبشير لعماد شرف ٤٤ .

(٣) المرجع السابق .

٣ ــ وما قاله القس صمويل زويمر رئيس المبشرين لأعضاء مؤتمر القدس الشهير الذى عقد بالمدينة المقدسة فى يناير سنة ١٩١١ م إبان الاحتلال البريطانى لفلسطين دافعاً للمبشرين ومحمساً لهم على تكفير المسلمين كما سبق بيانه :

... ولكن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ، ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية ، فإن فى هذا هداية لهم وتكريما ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالى فلا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها ، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام السالفة ــ خير قيام ، وهذا ما أهنئكم عليه ، وتهنئكم عليه المسيحية والمسيحيون جميعاً .

لقد سيطرنا من ثلث القرن التاسع عشر على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية ، ونشرنا فيها مكامن التبشير والكنائس ، والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التى تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية ، ولقد أعددتم فى ديار الإسلام شباباً لا يعرف الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية ، وبالتالى جاء النشء طبقاً لما أراده الاستعمار ، لا يهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، ولا يصرف همه فى دنياه إلا إلى الشهوات .

إن مهمتكم قد تمت على أكمل الوجوه ، وانتهيتم إلى خير النتائج ، وباركتم المسيحية ، ورضى عنكم الاستعمار ، فاستمروا فقد أصبحتم بفضل جهادكم موضع بركات الرب[١] .

٤ ــ وما قاله الأسقف دى ميسنيل وكيل إدارة البعثات التبشيرية فى الشرق بروما :

إن الهدف الذى يتعين على المبشر تحقيقه هو تحطيم قوة التماسك الجبارة التى يتميز بها الإسلام ، أو على الأقل إضعاف هذه القوة ، وإن على المبشر أن يدرس

---

(١) راجع المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للأستاذ محمد محمود الصواف ٥٧ ، ٥٨ ، وحقائق عن التبشير لعماد شرف ٣٣ ، ٣٤ .

ويتفهم « قرآن محمد » ليعرف كيف يذكر الناس فى الشرق بأنه كانت هناك مدنية سابقة على الهجرة ، وأنها كانت مدنية مسيحية ، وأن يستخدم الأسلحة السلمية التى تأسر النفوس وفى مقدمتها الصدقات والمعونات وإقامة المعاهد والمدارس والمؤسسات الخيرية ،وهى كلها مؤسسات دينية(١) .

٥ ـــ وحين قامت الثورة فى مصر بتأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦ م ، وأخذت فى دراسة دفاترهـا وميزانيـاتها وجـدت أنـه قد خصص فى هذه الميزانيـات ثلاثـة ملايين جنيه استرلينى سنوياً للتبشير فى بلاد الشرق الأوسط .

فقناة السويس التى حفرت بأيـد مصرية فى أرض مصرية يخصص من دخلها ثلاثة ملايين جنيه لإضعاف شأن مصر ، والشرق ديناً وخلقاً وتشريعاً(٢) .

٦ ـــ وفى ١٦ يونية سنة ١٩٦٧ م نشرت مجلة التايم أن الدكتور أرثر فلمنج رئيس المجلس الكنسى فى الولايات المتحدة قد أوصى بقيام حملة تبرعات لجمع ثلثمائة ألف دولار من أربع وثلاثين طائفة مسيحية تشترك فى عضوية المجلس الكنسى ، لتقديم معونات إلى الكنائس فى أندونيسيا ، وإلى جانب هذا الخبر ذكرت المجلة معلوماتها عن النشاط التبشيرى هناك على لسان الميجور أندروبى لاندى المدير المساعد للشئون التنفيذية لجمعية الإغاثة الكاثوليكية بأن الجمعية قد أنفـقت أكثر من ثلاثـة ملايين جنيـه فى صورة غذاء وأدويـة للمحتـاجين فى كافـة أنحاء أندونيسيا ، وذلك بتعاونها مع ممثلى الكنائس منذ عام ١٩٦٢ م ، أى فى خلال خمس سنوات(٣) .

٧ ـــ وما قاله الأستاذ عبد الرحمن زكى فى كتابه « المسلمون فى العالم اليوم » : قد صارت أقسام الدراسات الإسلامية والعربية التى يشرف عليها المستشرقون فى جامعات أوربا وكندا والولايات المتحدة ، ذات طابع هجومى على الإسلام ومراكز للتجسس عليه ، وينتدب للتدريس فيها أساتذة من أنحاء العالم الإسلامى(٤) .

٨ ـــ وما قاله المبشر لورانس براون : الخطر الحقيقى يكمن فى نظام

---

(١) المرجع السابق ٣٤ .
(٢) المرجع السابق ٧٣ .
(٣) غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا .
(٤) خلود الإسلام ٤٦ .

الإسلام ، وفى قدرته على التوسع ، وفى حيويته ، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى[1] .

٩ ـــ وما قاله الإمام محمد عبده : أما التبشير فيقف من ورائه العالم المسيحى بتوجيه الهيئات الدينية العليا فى أوربا ، وهو ند لحركة الاستشراق فى الأهداف وفى خدمة الاستعمار القديم والجديد ، وفى التجسس على الإسلام والحركات الإسلامية المعاصرة ، وهو كذلك حملة صليبية جديدة على الإسلام ، ومحالفة أبدية من الاستعمار لخنقه وصرف أتباعه عنه بكل وسيلة[2] .

١٠ ـــ وقال الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى[3] : ولا يصح بحال أن ننسى أو نتناسى أهداف أوربا التى تعمل لها بيننا وفى مقدمتها العمل من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين فى العالم .

إن بقاء الإسلام أمر تكرهه أوربا كل الكراهية ، وكذلك قيام بعث إسلامى جديد شىء ترهبه كل الرهبة ، شرقها وغربها وامتداد الشرق والغرب جميعاً ، وهى تقدم الخوف منه والحذر من انطلاقه على كل خوف وكل حذر ، إنها مشغولة بأمر الإسلام مشغولية من يشعر بيقظته . وترقب ما وراء هذه اليقظة ، فلا يخرجها لحظة من حسابه ، كما يقول العقاد

ومن أجل ذلك تجمعت أوربا فى الماضى ، وتحالفت شعوبها المتناقضة المختلفة فى سبيل إيقاف هذه اليقظة ومقاومتها بكل ما تستطيع .

وقال الدكتور خفاجى[4] : وقف الإسلام فى العصر الحديث أمام غزو استعمارى مدمر ، وامتحان قاس شديد ، وامتصاص كامل لمقدرات شعوبه ، وثروات أممه ، وكما ورث الترك العرب فى سيطرتهم على العالم الإسلامى ، فقد ورث الاستعمار الغربى الترك والعرب فى السيطرة على الشعوب العربية والإسلامية فى أفريقيا وآسيا ....

وأوجد الاستعمار طبقة من الشباب العربى الذين راعتهم حضارة الغرب المادية ، فتنكروا لماضيهم وعروبتهم ودينهم ، وساند هذه الطبقة لتعمل على تغيير

(١) واجب المسلمين فى نشر الإسلام ٢٣ .
(٢) راجع الإسلام والنصرانية له .
(٣) فى كتابه خلود الإسلام ٢٣ .
(٤) فى نفس المراجع ١٢٦ : ١٢٩ .

التفكير الإسلامى ، وربطه بالتفكير الأوربى .

ثم أخذ المستشرقون الأوربيون باسم العلم والفكر يدسون أفكارهم الصليبية فى بحوثهم وكتبهم ، ويشوهون الإسلام وتاريخه فى نظر العالم المتحضر ، وكان من ذلك البلاء كل البلاء ، فإن الأساتذة فى الجامعات العربية أخذوا يدعون إلى هذه الآراء ، ويذيعونها بحجة أنها آراء علمية خالصة .

وفاتهم أن الغرب لا يفرق بين العلم وبين مصلحته فى القضاء على الإسلام ، وأن أوربا تقدم الفكرة اليوم ، لتخدم بها غداً أو بعد غد غرضاً سياسياً أو استعمارياً ، وتخدم بها مصالحها الاقتصادية .

إن الغرب يخشى الإسلام ، ويحذر قيام حركات إسلامية جديدة . إنه يخاف من الأسد وهو مكبل بالسلاسل ، فكيف به لو تحرك وفك قيوده وأغلاله ؟ .

ثم جاءت الشيوعية فقضت على الإسلام فى كل بلد من بلادها .

ولقد اصطدم الغرب بالإسلام فى معارك كثيرة ليؤخر سيره العظيم ، والحروب الصليبية فى العصور الوسطى والحروب الاستعمارية فى العصر الحديث من مظاهر هذا الاصطدام الرهيب .

ولقد ملأ الأوربيون أنفسهم بالتعصب الدينى ضد الإسلام ، وعبئوا شعوبهم معنوياً ومادياً لمحاربته ...

وساعدت أوربا على قيام مذاهب جديدة منحرفة فى وسط العالم الإسلامى ، وعلى الدعاية للغرب وحضارته ، وللمذاهب الغربية الهدامة ، من ماسونية ، وصهيونية ، ووجودية ، وإلحادية ، وغيرها ، وعلى قيام مذاهب إسلامية متخاصمة متعادية .

وأخذوا فوق ذلك يزيفون الحقائق والمفاهيم الإسلامية ، ويحرفون كثيراً من أصول ثقافتنا وحضارتنا ، ويجهّلون الشباب الإسلامى بدينهم وبكتابهم العظيم ، وبلغة القرآن الكريم .

وأخذوا يفهموننا أنهم كشفوا أفريقيا ، وأن بدء البعث العربى كان بحملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ م ، أو بوصول الجمعيات التبشيرية ، الفرنسية

والأمريكية إلى الشرق العربى فى نصف القرن التاسع عشر . أ هـ

عملهم فى هدم أركان الإسلام :

وإن تعجب لإجرام هؤلاء القوم فاعجب لعملهم الذى يسلكونه لهدم أركان الإسلام ، وإليك بعض الأمثلة .

أ ــ ففى العقيدة : يلقن المبشرون المسلمين أن رب السموات والأرض ومن بيده جلب الخير ، ودفع الشر هو المسيح . فيقول : س . أ . موريسون . فى مجلة العالم الإسلامى : « نحن متفقون بلا ريب على أن الغاية الأساسية من أعمال التنصير بين مرضى العيادات الخارجية فى المستشفيات أن نأتى بهم إلى المعرفة المنقذة ، معرفة ربنا يسوع المسيح ، وأن ندخلهم أعضاء عاملين فى الكنيسة المسيحية الحية .

وفى بلدة الناصر بجنوب السودان مثلاً ، كانوا لا يعالجون المريض أبداً إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذى يشفيه هو المسيح .

وفى الحبشة كان العلاج لا يبدأ قبل أن يركع المرضى ، ويسألوا المسيح أن يشفيهم[1] .

ب ــ وفى الصلاة : التى تصل العبد بمولاه ، ويقوم فيها بذكره وشكره ، وتطهر القلب ، وتزكى النفس ، وتهذب الخلق .

يقول فيها نيتشة : إنه لشىء مخجل أن يبتهل الإنسان بالصلاة[2] .

جـ ــ وفى الصيام :

قال القسيس زويمر : إنه جمع تلاميذه المسلمين مرة ووضع بين أيديهم كرة تمثل الكرة الأرضية ، ثم حول عليها نوراً قوياً ، وبرهن لهم بذلك على أن الأمر بصيام شهر رمضان ليس آتياً من عند الله ، لأنه يتعذر أداء هذه الفريضة فى بعض البلاد[3] .

---

(١) راجع حقائق عن التبشير ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) خلود الإسلام ٦٣ .

(٣) الغارة على العالم الإسلامى ٣٩ .

أقول : لقد نسي هذا المضلل أن الذى شرع أركان الدين الإسلامى هو العليم الحكيم ، فخطاب الله لعباده بنى على الغالب من الأحوال ، فإذا طال النهار ، والليل أكثر من أربع وعشرين ساعة فيقدرون وقت الصوم ، ووقت الإفطار بالساعات بحسب أقرب الجهات المعتدلة إليهم ، وذلك إنما يكون بالحساب ، فالشارع بنى أحكامه على الغالب .

يوضح ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه[1] عن النواس بن سمعان من حديث الدجال : « قلنا يا رسول الله ، وما لبثه فى الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » قلنا : يا رسول الله ، فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : « لا ، اقدروا له قدره » .

وكذلك جاءت عدة أحاديث غير هذا فى هذا المعنى ، وحديث مسلم ، وإن ورد فى الصلاة ، ولكن يؤخذ منه مدار العبادات على الدورة اليومية ، والدورة الشهرية ، والدورة السنوية ، وأن الشارع لم يأمر بالصلاة لدلوك الشمس مثلاً ، ولا بالصوم لرؤية هلال رمضان ، ولا بالحج فى وقته ، وغير ذلك من الأوقات ، التى جعلها علامات لأوقات العبادات ، إلا بناء على الغالب ، ولتكون تلك العلامات دالة على أوقات العبادات ظاهرة للخواص والعوام .

وهكذا تتوالى افتراءات المبشرين على الدين الإسلامى وشعائره دون أن ينالوا منه شيئا إلا الخزى والعار ، لأن ديننا وتشريعه صادر إلينا من ربنا العليم الحكيم ، وفيه ما يحميه ويصونه من عبث العابثين ، وكيد الحاقدين .

* * *

(١) فى ١٨ / ٦٥ .

المبحث السابع

الواجب على المسلمين

للحفاظ على دينهم من هذا التيار الجارف

يجب على المسلمين جميعاً فى كل مكان وزمان للحفاظ على دينهم من فتنة المبشرين لهم ما يأتى :

١ ـــ مقابلة كل عمل للمبشرين وأعوانهم بالمثل فيما تجوز لنا فيه المثلية ، ورد ادعاءاتهم وافتراءاتهم أولاً بأول .

٢ ـــ عقد المؤتمرات الإسلامية فى كل مكان من العالم إزاء المؤتمرات التى يعقدها هؤلاء المبشرون ، لنبين للعالم حقيقة الإسلام ، ومحاسنه .

٣ ـــ نشر الوعى الإسلامى فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بجميع الوسائل الممكنة من إذاعات وكتب ومجلات وغير ذلك .

٤ ـــ قيام المساجد بدور إيجابى فى هذا الميدان ، وتأدية رسالاتها على الوجه الأكمل ، لأن المساجد كانت دائماً النواة التى تتفجر منها الدعوات الإصلاحية والمكان الصالح لنشر التعاليم الإسلامية ، وإقامة الندوات الدينية .

وكان للحرمين المباركين والأزهر الشريف ، والمساجد الشهيرة فى العالم الإسلامى الأمثلة الواضحة فى ذلك .

٥ ـــ إسهام البلاد الإسلامية فى طبع ترجمة تفسير القرآن الكريم بجميع اللغات وتوزيعه فى جميع مراكز العالم الثقافية .

٦ ـــ نشر كتب تتناول مبادىء الإسلام وتشريعاته ، وما يمتاز به ، وقضايا

العصر من وجهة النظر الإسلامية بكل لغات العالم ، وعلى أوسع نطاق .

٧ ـــ تبادل زيارات العلماء والكتاب الإسلاميين بين مختلف البلدان لا سيما بين بلدان العالم الإسلامي لتهيئة مناخ إسلامي عالمي يساعد على نشر الثقافة الإسلامية وتنشيط العقول الإسلامية الهامدة .

٨ ـــ اهتمام صحافتنا ووسائل الإعلام بالثقافة الدينية ، وتطهيرها مما ينشر الفساد ويفسد الأخلاق ، ويتعارض مع ديننا الحنيف وتعاليمه .

٩ ـــ خلخلة المناطق المزدحمة بالسكان ، والأقل ثراء إلى المناطق الأقل ازدحاماً والأكثر ثراء .

فالاستعمار هو الذى وضع حدوداً بين أوطان العالم الإسلامى لتفتيت وحدته حتى يسهل عليه استعماره ، فنشأ عن ذلك الانفجار السكاني الذى أدى إلى انتشار الفقر الذى أوجدوه ، ورموا ديننا بأنه السبب فيه .

١٠ ـــ تعميم نظام الضمان الاجتماعى فى جميع بلاد الإسلام حتى يشمل كل المحتاجين من المسلمين فى العالم ، وحتى لا يستغل المبشرون فقرهم فى إخراجهم من دينهم .

١١ ـــ التطلع إلى ماضى الإسلام الحضارى العريق لنتخذ من ذلك دافعاً لنا إلى الأمام فى سبيل رقى أمتنا الإسلامية ، حتى نرد وَهْم المستعمر بأن سبب تخلفنا هو تمسكنا بالدين ، فيعرف أن سببه هو استعماره لنا ، ونهبه خيراتنا قروناً عديدة .

١٢ ـــ التوسع بقدر المستطاع فى إقامة المؤسسات الصناعية والمهنية فى كل دولة حتى تستوعب الأيدى العاملة ، ويكثر الإنتاج ويعم الخير والرخاء .

* * *

المبحث الثامن

اتهامهم الإسلام بأنه السبب في انتشار الجهل وتخلف شعوبه

يتهم المبشرون وأعوانهم الإسلام بأنه هو السبب فى انتشار الجهل فى الأقطار الإسلامية ، وتخلف شعوبها وانحطاطها ، وإليك بعض افتراءاتهم فى ذلك :

١ ــ عقد مؤتمر فى مدينة لنكو بالهند سنة ١٩١١ م ، واشترك فيه ١٦٨ مندوباً ، ١١٣مدعواً من ٥٤ جمعية تبشيرية ، وخطب فى هذا المؤتمر رئيسه القسيس صمويل زويمر ، ثم ختم خطابه الافتتاحى بقوله :

« إذا نظرنا إلى البلاد التى يحكمها هذا الدين الكبير المعادى لنا ، وإلى البلاد التى يتهددها بحكمه إياها يظهر لنا أن كل واحدة من هذه البلاد هى رمز لعنصر من عناصر المعضلة الكبرى .

فالمغرب الأقصى فى الإسلام مثال للانحطاط ، وفارس مثال للانحلال ، وجزيرة العرب مثال للرقود ، ومصر مثال لمجهودات الإصلاح ، والصين مثال للإهمال ، وجاوة مثال للتغيير والانقلاب ، والهند مركز للاحتكاك بالإسلام ، وأفريقيا الوسطى مكان للخطر الإسلامى .

والإسلام يحتاج قبل كل شيء إلى المسيح ، فهو الذى يرسل أشعة النور إلى المغرب ، ويعيد الوحدة لفارس ، والحياة لجزيرة العرب ، والنهضة لمصر ، ويرد إلى الصين ما أهمله الإسلام فيها ، وهو الذى يبقى لأهالى ماليزيا بلادهم ، ويزيل الخطر العظيم من أفريقيا[1] .

(١) من مجلة الغارة على العالم الإسلامى ٦٥ .

٢ ــ وقال اللورد كرومر الحاكم الإنجليزى فى مصر فى أوائل هذا القرن : إن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوربية لا يصلح لحكم بلاده ، وإن الإسلام ناجح كعقيدة ، ولكنه فاشل كنظام اجتماعى[1] .

ولذلك حاول بقدر ما استطاع فى منع علماء الأزهر من العمل فى وزارات الحكومة ، وحصر مهمتهم فى العمل فى الوعظ والإمامة والتدريس فى الأزهر بحجة عدم صلاحيتهم لغير ذلك ، ولكنه فى الحقيقة خوفا من نشر الوعى الدينى فى المصالح الحكومية ، وإقناع الشعب بأن الإسلام ناجح كنظام إجتماعى ، كما هو ناجح كعقيدة ، وأيضا خوفا من أن يحرك رجال الأزهر الثورة ضد الإنجليز ، كما أشعلوها وقادوها ضد الحملة الفرنسية على مصر .

وقد وقع ماكان يخشاه الورد كرومر فأشعل رجال الأزهر الثورة وقادوها ضد الإنجليز سنة ١٩١٩ م ، تماما كما فعلوا ضد الحملة الفرنسية .

٣ ــ وقال اللوردكرومر : إن الإسلام دين مناف للتجديد ، ولم يكن صالحاً إلا للزمن والمحيط الذى وجد فيهما ، وإن المسلمين لا يمكن أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم ، وينبذوا القرآن وأوامره ظهرياً لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ، ويثبت فيهم روح البغض للأغيار والشقاق وحب الانتقام ، وإن الإسلام على الجملة هو العقبة الكئود فى سبيل رقى الأمة الإسلامية[2] .

٤ ــ ويدعى المبشرون أن الإسلام سبب انتشار الجهل ، وتأخر الشعوب وانحطاطها ، وأن العلم والإسلام عدوان لدودان[3] .

٥ ــ والمبشرون فى الفلبين وأمثالها يعملون جاهدين على إقناع المسلمين هناك بأن الإسلام هو سبب تخلفهم اقتصادياً[4] .

---

(١) خلود الإسلام للدكتور خفاجى ١٢٧ .

(٢) الإسلام فى معركة التغريب للأستاذ أنور الجندى ٦٣ .

(٣) المصدر السابق ٢٢ ، وحقائق عن التبشير للأستاذ عماد شرف ٤٧ .

(٤) المصدر السابق ٧٢ .

المبحث التاسع

دحض هذا الافتراء

لدحض هذا الافتراء الكاذب ،وسحق هذا الادعاء الباطل أقول :

١ ــ إن ما يدعيه المبشرون من أن الإسلام هو سبب التخلف والجهل فى البلاد الإسلامية هو أمر مفترى أشد ما يكون الافتراء ، وإن الهدف الوحيد من هذا الافتراء هو تنفير الناس من الإسلام ، وإخراج المسلمين منه ، كما أخرجوا بعض دول الإسلام منه بسبب افتراءاتهم الحاقدة .

٢ ــ إن الإسلام دين كامل وتشريع شامل صادر من عليم حكيم لإسعاد البشرية والسمو بها إلى درجات الكمال والهناء فى الدنيا والآخرة ، ويدل على ذلك أن الآيات القرآنية نزلت تحث الناس جميعاً على فعل الخير للفرد والمجتمع الإنسانى أجمع ، ودفع الشر عن الفرد والإنسانية جمعاء ، وأن يعيش الناس جميعاً فى محبة ووئام ، وأمان واطمئنان فقال تعالى : ﴿ **وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾[٢] .

ودعا إلى تعلم العلم بجميع أنواعه النافعة فى الدنيا والآخرة فى مئات الآيات منها قوله تعالى فى أول آية نزلت : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾[٣] .

(١) الحج ٧٧ .
(٢) النحل ٩٠ .
(٣) العلق ١ : ٥ .

فهذه أول آيات القرآن نزولاً جاءت تأمر بتعلم القراءة والكتابة ، وتحارب الجهل وتحث على التعليم بجميع أنواعه وفروعه .

ولذا قال الإمام محمد عبده رحمه الله تعالى — عقب تفسيره لهذه الآيات[١] : « ثم إنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات » .

وقوله تعالى : ﴿ **ن * والقلم وما يسطرون** ﴾[٢] وهذه هى المرة الثانية من الوحى التى نزلت فيها آيات تحث على العلم والتعلم ، فقد بدأ سبحانه بحرف من حروف الهجاء وأقسم بالقلم والكتابة ، فكان أول قسم فى القرآن الكريم هو القسم بالقلم وبما يسطر القلم .

قال الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله[٣] : والقرآن بتسميته ، وبأول آيات نزلت منه وبأول قسم فيه يوجه الإنسان — بطريق مباشر وبطريق إيحائى — إلى الاتجاه نحو المعرفة قراءة وكتابة وعلماً .

وقوله : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[٤] فالذكر هنا هو العلم بدليل قوله : ﴿ **إن كنتم لا تعلمون** ﴾ فإنّ أمر من لا يعلم أن يسأل عما لا يعلم لا يكون إلا بالسؤال للعلماء . أ . هـ

وقوله تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾[٥] فبدأ بالعلم وجعله قبل القول والعمل وأساس الدين وقوامه ، وماذا يبقى من الدين إذا ذهب أساسه .

وسرد الآيات التى نزلت تحث على العلم والتعلم يطول ، فهل بعد ذلك يقول المبشرون إن الإسلام والعلم عدوان لدودان ؟ .

وأمر تعالى بالسعى على المعاش وتحصيل الرزق فى آيات كثيرة كذلك منها قوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾[٦] وقوله : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من**

---

(١) فى جزء عم ١٢٤ .
(٢) القلم ١ ، ٢ .
(٣) فى كتابه دلائل النبوة .
(٤) الأنبياء ٧ .
(٥) محمد ١٩ .
(٦) الملك ١٥ .

فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾[1] وقوله : **﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾**[2] ، وقوله تعالى : **﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾**[3] .

ووضع القرآن أساس المدنية الفاضلة والسعادة الدائمة للمجتمع الإنسانى أجمع ، فأوجب على كل إنسان أن يكون كاملاً فيعمل النافع لنفسه وأهله وقومه والناس أجمعين ، ويدعو غيره إلى مثل ذلك ، وأن يستعين كلاهما على بلوغ هذا الكمال بالصبر ، وضع أساس ذلك بصورة العصر الوجيزة البليغة فقال تعالى: **﴿ والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾** .

وجعل معيار التفاضل بين الناس بالتقوى والعمل الصالح ، لا بالجنس واللون ، ولا بالقبيلة والقوم فقال تعالى : **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾**[4] فهل بعد هذا يقال إن الإسلام سبب تخلف الشعوب وانحطاطها ؟ .

٣ ــ وإذا لم يكفكم هذا الإجمال فى نهضة الإسلام بالشعوب ورقيها فإليكم التفصيل .

تنزل القرآن العظيم فى ليلة مباركة من شهر رمضان الكريم **﴿ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾** تنزل تبياناً لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، وانطلق نوراً وسلسبيل حياة فى قفار الجزيرة العربية ، أبعد بلاد الله عن الحضارة والمدنية ، وأهلها منغمسون فى الشرور والوثنية ، فرقتهم عصبية الجاهلية شيعاً وأحزاباً ومذاهب وأدياناً وقبائل وبيوتاً فطهرهم من أدران الوثنية ، وحمية الجاهلية ، وسلطان العادات ، ونقاهم من الشرور ومساوىء الأخلاق ، وجمعهم تحت راية واحدة فى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير فى ماضى حياتهم ، وجعلهم جميعاً وحدة متضامنة وكتلة متكاتفة ، وجسماً

---

(١) الجمعة ١٠ .
(٢) البقرة ٢٩ .
(٣) القصص ٧٧ .
(٤) الحجرات ١٣ .

واحداً يشترك جميع أعضائه فى المسئولية عن صلاح المجتمع ، وفى التبعة عن شيوع الفساد .

أخرجهم القرآن العظيم من الصحراء رجالاً فى كل نواحى الحياة ، حتى كانوا كما قال الله : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾(١) .

جيشوا الجيوش ، وكتبوا الكتائب وانطلقوا يحملون الحق على أيديهم يفتحون البلاد التى عمها الشر ، وطبقها الفسادَ لاليستذلوا أهلها ، ولا ليستغلوا خيراتها ، وإنما ليدفعوا عن أنفسهم عدوان المعتدين ، وليؤمنوا دعوتهم ويشقوا الطريق لتبليغ رسالتهم وليخرجوا العالم من ظلمات الشرك والبغى إلى نور الحق والعدل .

ففتحوا الجزيرة العربية ، ونشروا الإسلام فى ربوعها ، ثم انطلقوا شرقاً وغرباً يعلنون دعوة الحق ، ويبلغون رسالات الله ، والاستشهاد فى سبيلها أحب إليهم من الحياة ، تميد الجبال ولا يميدون ، ويلين الحديد ولا يلينون ، لا تستعصى عليهم قلاع ، ولا تقف أمامهم حصون .

ثلوا عروش الأكاسرة الذين أرادوا الفتك بهم ، ودكوا ممالك القياصرة الذين تعددت اعتداءاتهم عليهم ، واكتسحوا بلاد أفريقيا ، واستمر زحفهم يمتد حتى غطت انتصاراتهم الأرض ، من جدار الصين فى الشرق إلى المحيط الأطلسى فى الغرب ، ومن حقول الجليد فى الشمال إلى خط الاستواء فى الجنوب .

ففتحوا الدنيا وطهروا العالم ومدّنوا الإنسانية ، وملئوا الوجود علماً وإيماناً ونوراً وعرفاناً وعدلاً وإحساناً .

وانطلقوا يعلمون رجال الحرب كيف تصاحبها الرحمة ، ويعلمون رجال السياسة كيف تكون سياسة الشعوب ، ودارس العدل كيف يكون العدل ، ويلقنون علماء الإدارة كيف تكون الإدارة ، ويلقون درساً على العالم أن قوة الخُلق فوق مظاهر العلم ، وقوة الاعتقاد فى الحق فوق النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية .

---

(١) آل عمران ١١٠ .

ويعلمون الناس كيف يبنون علاقاتهم مع من هم على غير دينهم ، يبنونها على أسمى ما تتصور البشرية ، وتصل إليه الإنسانية ، يبنونها على أساس المودة المخلصة ، والعدالة الكاملة ، والمساواة الشاملة ، طبقاً لقاعدة الإسلام الفاضلة « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » فى ضوء ما قاله الله ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾[1] .

فلم يمر قرن — كما قال السيد رشيد رضا[2] — حتى جدد الإسلام للعالم كله ديناً قيماً وعلماً محكماً ومجتمعاً فاضلاً ، وسياسة رشيدة ، ومدنية سعيدة ، ونشر ذلك كله فى مشارق الأرض ومغاربها ، بقوة الحق ، وسرعة البرق ، فتغير وجه الأرض ، ونفخ فى الإنسانية روحاً جديدة ، وأعطاها من أصول السعادة ، ومقومات الحياة مالا يقبل الفناء ، ما دامت الأرض والسماء .

وانطلق صوت الشاعر العربى يدوى :

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف بعده ... طلع الصباح فأطفأ القنديلا

وهكذا كان الإسلام هدى للناس ، وخيراً للإنسانية ، ورحمة للبشرية ، فيه قضاء على شرور العالم ومساوئه ، فيه أصول كل السعادات ، فيه صلاح للحياة فى شتى نواحيها ، وترقية للبشرية إلى أسمى مراقيها فيه حضارة زاهية ، ومدنية صافية ، وسعادة فى الدنيا والآخرة .

* * *

---

(١) الممتحنة ٨ .

(٢) فى مقدمة كتاب الإسلام والنصرانية للأستاذ محمد عبده .

المبحث العاشـــر

مراحل تطور التعليم فى الأمة الإسلامية

لقد انتشر التعليم فى الأمة الإسلامية وتطور فى عدة مراحل على النحو التالى :

١ ـــ فحينما بعث الرسول ﷺ بمكة المكرمة ، وأخذ القرآن الكريم يتنزل عليه منجماً كان كلما نزل عليه نجم منه يدعـو أصحابه فيقرؤه عليهم ويأمر الكاتبين منهم بكتابته حفاظاً عليه ، وكان فيما ينزل من آيات القرآن ما يحث على تعلم القراءة والكتابة ، وعلى العلم والتعلم ، فدعا ذلك أصحابه للتنافس فى ذلك حرصاً منهم على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما يدعو إليه ، وبذلك أخذ التعليم فى الانتشار بين المسلمين .

٢ ـــ وبعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ، وأخذ سلطان الإسلام يمتد إلى الجهات البعيدة عنها أخذ الرسول ﷺ يرسل البعوث من أصحابه إلى من يدخلون فى الإسلام لتعليمهم شئون دينهم ، وسلك طريقه الخلفاء من بعده ، وأكثروا من إنشاء الكتاتيب لتعليم الصبيان القراءة والكتابة ، ومبادىء العلوم ، وتحفيظهم القرآن الكريم .

٣ ـــ وأخذت دائرة العلوم والفنون فى الاتساع ، ولم ينته القرن الثانى حتى غطت المدارس والمكتبات الصغيرة الأقطار الإسلامية علي سعتها ، فضلاً عن أن كل مسجد كان لا يخلو من مدرسة تقوم فيه ، فكان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة فى حضارتنا ، فلم يكن مكان عبادة فحسب ، بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة ، وعلوم الشريعة واللغة وفروع العلم المختلفة .

٤ ـــ ثم أقيم بجانب المسجد الكتّاب وخصص لتعليم القراءة والكتابـة ، والقرآن وشيئاً من العلوم العربية والرياضية ، وكان الكتاب يشبه المدرسة الابتدائية

فى عصرنا الحاضر ، وكانت الكتاتيب من الكثرة بحيث عد ابن حوقل ثلثمائة كتاب فى مدينة واحدة من مدن صقلية ، وكان من الاتساع أحياناً بحيث يضم الكتاب الواحد مئات وآلاف من الطلاب .

ومما يذكر فى تاريخ أبى القاسم البلخى أنه كان له كتاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ ، وكان كتابه فسيح جداً بحيث يحتاج إلى أن يركب حمارا ليتردد بين طلابه ، ويشرف على شئونهم .

٥ ـــ ثم قامت المدرسة بجانب الكتاب والمسجد ، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية فى عصرنا الحاضر ، وكان التعليم فيها مجانياً فى جميع مراحله ، فلم يكن يدفع الطلاب فى دراستهم الثانوية والعالية رسماً ما من رسوم الدراسة التى يدفعها طلابنا اليوم فى بعض الدول الإسلامية .

ولم يكن التعليم فيها محصورا فى فئة من أبناء الشعب دون فئة ، بل كانت فرصة التعليم متوفرة لجميع أبناء الشعب وكان يجلس فيها ابن الفقير بجانب ابن الغنى ، وابن التاجر بجانب ابن الصائغ والمزارع .

وكانت الدراسة فيها قسمين : قسماً داخلياً للغرباء ، والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم ، وقسماً خارجياً لمن يريد أن يرجع فى المساء إلى بيت أهله وذويه ، أما القسم الداخلى فكان بالمجان أيضاً ، يهيأ للطالب فيه الطعام والنوم والمطالعة والعبادة ، وبذلك كانت كل مدرسة تحتوى على مسجد وقاعات للدراسة ، وغرف لنوم الطلاب ، ومكتبة ومطبخ وحمام ، وكانت بعض المدارس تحتوى فوق ذلك على ملاعب للرياضة البدنية فى الهواء الطلق .

٦ ـــ وقامت الجامعات والمكتبات الكبيرة التى تحوى آلاف المجلدات فى المدن الكبيرة ، من سمرقند وبخارى شرقاً إلى العراق والشام ومصر والمغرب وقرطبة وغرناطة غرباً .

واشتغل المسلمون بالعلوم على اختلاف أنواعها من دينية وأدبية ، ورياضية وهندسية ، وطبية وكيميائية وفلكية وفلسفية ، وغيرها .

٧ ـــ والمسلمون هم أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية ، وأعتق العلم من رق التقليد ، وعلّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع

استقامة الدين .

ففى الطب لم يكتفوا بما حوته الكتب الطبية التى نقلوها من اليونانية أو السريانية ، بل عكفوا على دراسة الأمراض ومداواتها فى تجارب كانوا يجربونها فى المخابر والمستشفيات التى أنشئوها ، حتى زادوا فى الطب القديم زيادات كبيرة ، وعدّلوا من معارف القدماء تعديلات مهمة .

وحسب الأطباء المسلمين أنهم أول من فتتوا الحصى فى المثانة ، وسدّوا الشرايين النازفة ، وكتبوا فى الجذام والحصبة والجدرى ، وعدوى الطاعون واستعملوا المخدر فى العمليات الجراحية ، وكشفوا النقاب عن الدورة الدموية ، وعن دورة « الإنكلستوما » وكان اسمها عندهم الدورة المستديرة . . . إلخ .

٨ ـــ وهم أول من أنشأ المدارس الطبية على أدق النظم الحديثة ، وأول مدرسة طبية أنشئت فى أوربا على النظام الحديث هى التى أنشأها المسلمون فى سالير ن من بلاد إيطاليا .

ومن أشهر أطباء المسلمين فى الشرق أبو بكر الرازى ، وابن سينا ، ومن أشهرهم فى الأندلس أبو القاسم الزهراوى[١] وعبدالله بن زهر[٢] .

٩ ـــ والمسلمون هم الذين وضعوا أساس صناعة الصيدلة ، وكانوا يجلبون العقاقير من الهند وغيرها ، ثم أخذوا يصنعون عقاقير أخرى ويعالجون المرضى بها ، ويدرسونها ويؤلفون الكتب فيها .

١٠ ـــ وهم أول من اكتشف الكيمياء الحقيقية ، ويقول العارفون من علماء أوربا : إن المسلمين هم الذين وضعوا أساس الكيمياء الحديثة بما كانوا يقومون به من تجارب وبما كانوا يهيئونه من مستحضرات كيماوية استعملت فى صناعات شتى ، كصناعة الورق ، والصابون والأصبغة والمفرقعات ، والأدوية ، وقد نقل الغربيون عنهم بعض الصناعات ولا سيما صناعة الورق ، كما نقلوا إلى لغاتهم أكثر من خمسين اسماً من الأسماء الكيماوية التى وضعها المسلمون .

---

(١) أبو القاسم الزهراوى من أطباء الأندلس المعدودين توفى سنة ٥١٦ هـ .

(٢) من أطباء الأندلس الذين اشتهروا فى الكتابة عن الأغذية والأدوية توفى سنة ٥٥٧ هـ .

١١ ـ وفى ميدان العلوم الرياضية اقتبس المسلمون الأرقام الهندية وهذبوها وأوجدوا لها طريقة مبتكرة ، هى الإحصاء العشرى باستعمال الصفر ، كما يستعمل فى أيامنا هذه ، وعن الأرقام العربية التى استخدمها المسلمون فى المغرب والأندلس أخذت أوربا أرقامها فى شىء يسير من التعديل ما زال يشف عن أصلها العربى

ولم يكتف علماء المسلمين فى الرياضة بكتب إقليدس ، وأرشميدس[1] ، بل ألفوا فى الحساب كتباً كثيرة ترجم الأوربيون بعضها وانتفعوا بها .

أما الجبر فقد أوضحوا معالمه ، وأضافوا إليه ما جعله علماً مستقلاً ، وعنهم نقل الإفرنج اسم هذا العلم إلى لغتهم .

ولمحمد بن موسى الخوارزمى[2] أول كتاب فى الجبر نهل من معينه علماء العرب وعلماء الغرب جميعاً ، وقد استعمل المسلمون الرموز فى الرياضة فسبقوا الأوربيين إليها .

١٢ ـ وفى الهندسة ترجموا كتاب إقليدس ، وأسموه كتاب الأصول ، ثم صنفوا كتباً أخرى ضمنوها قضايا عويصة أبدعوا فى حلها .

ومن الثابت أن الأوربيين فى القرون الوسطى لم يعرفوا عن علم الهندسة شيئا إلا بعد أن نقلوا كتاب إقليدس وغيره من كتب الهندسة العربية إلى اللاتينية ، ويعود الفضل الأكبر إلى المسلمين فى جعل المثلثات علماً مستقلاً كامل التكوين .

١٣ ـ ومآثر المسلمين فى علم الفلك جد كثيرة ، فقد بدءوا يترجمون الكتب اليونانية فى هذا العلم منذ أواخر عهد الأمويين ، ثم صححوا ونقحوا ما ترجموه ، وزادوا عليه معلومات كثيرة ، وأنشئوا المراصد فى أنحاء البلاد الإسلامية ، فقامت المراصد فى جيرالد وأشبيلية وصقلية غرباً تجاوب مراصد العراق وسمرقند وبخارى شرقاً .

وقد طهروا هذا العلم من خرافات التنجيم ، ووضعوا الأزياج[3] الدقيقة

(١) من أكبر علماء الهندسة الإغريق توفى سنة ٢١٢ قبل الميلاد .

(٢) مؤلف رياضى مشهور توفى سنة ٣٥٠ هـ ، ٩١٧ م .

(٣) الأزياج جمع زيج وهو ما يستدل به على حركة النجوم السيارة .

الكبيرة الفائدة ، ووضعوا جداول للأرصاد الفلكية فى غاية الضبط ، ووصلوا بتلك إلى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية الأرضية .

وهم أول من عرف الأصول التي تفضي إلى الرسم على سطح الكرة ، وأول من أوجد علمياً طول الدرجة من خط نصف النهار ، وقالوا باستدارة الأرض ودورانها على محورها،وفى عهد أمير المؤمنين المأمون مسحوا الكرة الأرضية ، وعرفوا محيطها وقطرها .

١٤ ــ والعرب سبقوا الغرب إلى إختراع آلة الأسطرلاب الدقيقة،وحققوا مواقع كثيرة من النجوم ، وحسبوا طول السنة الشمسية ، وبحثوا فى كلف الشمس[١] قبل الأوربيين ، ووضعوا جداول دقيقة فى النجوم الثوابت ، وصوروها فى مصورات ، فأمست مرجعاً مهما لعلماء عصرنا فى بحثهم التاريخى عن مواقع بعض الكواكب وحركاتها ، ونقل الأوربيون إلى لغاتهم كثيراً من أسماء النجوم العربية وكان للعلماء المسلمين فى بحوث علم الطبيعة ملاحظات واختبارات تدل على أنهم يعدون من واضعى أسس البحث العلمى الحديث قبل الأوربيين المحدثين .

١٥ ــ وقد كتبوا فى الميكانيكا ، وسموا ما كتبوه فى ذلك علم الحيل ، وبحثوا فى السوائل فعللوا صعود الماء فى العيون والفوارات ، وتجمعه فى الآبار والقنوات واعترف كثير من علماء أوربا أن ابن يونس هو الذى اخترع البندول أما قانونه فواضعه جاليليو[٢] ، ومع هذا كان للمسلمين فكرة واضحة عن هذا القانون .

١٦ ــ والمسلمون هم أول من استعمل الساعات الدقاقة والساعات الزوالية وبحثوا فى الصوت : حدوثه وانتشاره وأنواعه ، وعللوا الصدى ، وطبقوا مبادىء الصوت على الموسيقى ، وألفوا فى ذلك كتباً نفيسة ، وابتدعوا آلات كثيرة .

١٧ ــ وعرف المسلمون ظاهرة الجذب المغناطيسى وطبيعة اتجاهه ، وأفادوا من ذلك فى أسفارهم البرية والبحرية .

(١) البقعة السوداء التى ترى فى وجهها .

(٢) هو فلكى إيطالى مشهور توفى سنة ١٦٤٢ م .

١٨ ـــ ولهم فى علم الضوء بحوث جليلة لم يسبقهم إليها أحد ، ومن أشهر الباحثين فى هذا العلم الحسن بن الهيثم ، وقد كانت مؤلفاته مرجعاً للأوربيين حتى القرن السادس عشر للميلاد .

١٩ ـــ ونقل المسلمون إلى العربية كتب فلاسفة اليونان ، مثل أفلاطون وأرسطو ، وسرعان ما ظهر فيهم فلاسفة امتازوا بتفكيرهم الواسع ، وعقولهم الجبارة ، فعدوا من العاملين على تقدم العقل البشرى ، ومن أشهرهم الفارابى[١] وابن سينا[٢] وابن رشد[٣] والغزالى[٤] .

قال لوبون : إذا تحرينا الحقيقة نجد أن العرب هم أول من برز فيهم ما نسميه فى زماننا هذا باسم التفكير الحر ، وقد أعجب العلماء الغربيون بذلك الفكر المتقد الذى أملى على ابن خلدون آراءه الاجتماعية والاقتصادية فى مقدمة تاريخه المشهور ، وعده كثير منهم مؤسس علم الاجتماع ، وأصول الاقتصاد السياسى قبل ميكافلّى[٥] ومنتسكيو[٦] ، وأوجست كُنْت[٧] ، وغيرهم من علماء الغرب .

٢٠ ـــ ولست فى حاجة إلى ذكر من نبغ من المسلمين فى تلك العصور فى كل علم وفن وما ألفوه من الكتب فى مختلف العلوم والفنون التى نحن عالة عليها فى معارفنا حتى اليوم ، ولا إلى ذكر ما أسس الخلفاء والولاة من المدارس ، وأقاموا من المراصد ، وما حشدوا من الكتب إلى المكاتب ، لأن هذا يحتاج إلى مجلدات .

ولا إلى ذكر ما أقاموا فى المدن الكبيرة من مساجد تعتبر تحفة غالية ، وما شيدوا من بيوت عالية ، وقصور شاهقة ، وسماء تطاول السماء ، وأطواد تناطح الجوزاء ، وقباب تفضى إليها النجوم بالأسرار ، وأبراج تحيل السحب إلى

(١) فيلسوف إسلامى له أبحاث فى الفلسفة والموسيقى ، ويقال إنه واضع الآلة الموسيقية المعروفة بالقانون توفى سنة ٣٣٩ هـ .

(٢) فيلسوف إسلامى اشتهر بالفلسفة والأخلاق والطب توفى سنة ٤٢٨ .

(٣) أشهر فلاسفة المسلمين وأكبر أساتذة أوربا فى العلم والفلسفة توفى فى بلاد المغرب سنة ٥٩٥ هـ .

(٤) من أشهر فلاسفة العرب له مؤلفات كثيرة فى الفلسفة والتصوف توفى سنة ٥٠٥ هـ .

(٥) مؤلف سياسى إيطالى توفى سنة ١٥٢٧ م .

(٦) هو أحد واضعى أسس علم الاجتماع ، وهو فرنسى الأصل توفى سنة ١٨٥٧ م .

(٧) هو من أبرز علماء الاجتماع الفرنسيين توفى سنة ١٨٥٧ م .

أمطار .

ولا إلى ذكر ما أقاموه فى المدن والقرى من مصانع ومؤسسات تمد الشعوب بكافة المنتجات والحاجيات .

ولا إلى أنهم جعلوا من بلاد الأندلس فردوساً ، ومن الشام جناناً ، ومن العراق ومصر وغيرهما حقولاً ناضرة ، وحدائق يانعة ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وتبعث إليك بأريج أزهارها .

لست فى حاجة إلى ذكر شىء من هذا ، فقد كفتنا ذكره كتب التاريخ ، ومازالت آثارهم فى بعض البلاد تشيد بفضلهم ، وتتحدث بمجدهم .

مدنية الأوربيين من المسلمين :

من دولة المسلمين فى الأندلس التى كانت زينة الدنيا فى العلوم والفنون والحضارة والعمران أخذ الأوربيون مدنيتهم وحضارتهم ، وفى جامعات العرب ومدارسهم فى الأندلس وجنوب إيطاليا تلقوا علومهم ومعارفهم ، كما نقلوا كثيرا من محاسن الإسلام وعلومه إلى بلادهم أيام اختلاطهم بالمسلمين فى الحروب الصليبية وهذا أحد فلاسفتهم يقول : ليس فى الأوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ، ثم ينكر أن الفضل فى إخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم ، وفى تعليمها كيف تنظر ، وكيف تفكر ، وفى معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها إليهم ، وأدخلوها من أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا عليهم .

إن شوارع باريس لم تفرش بالحجارة إلا فى القرن الثانى عشر ، وقد رصت بالبلاط على نحو ما رصت به مدن أسبانيا(١) .

ويقول آخر : لا أدرى كيف أعطانا الإسلام فى مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفراده ، وإن الكنيسة تسلطت على العالم المسيحى اثنى عشر قرناً فى أوربا ولم تمنحنا فلكياً واحداً(٢) .

(١) الإسلام والنصرانية للإمام محمد عبده ٩٥ ، ٩٦ .
(٢) الإسلام والنصرنية ٩٦ .

ويقول لوبون : إنه لو انتصر العرب على شارل مارتل لأصاب أوربا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب أسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبى محمد ﷺ[1] .

وهكذا نجد المسلمين قد ضربوا بسهم وافر فى ميادين المعرفة الإنسانية من أقدم العصور ، فكانوا أساتذة علماء أوربا ، ومصدراً للعلوم الحديثة فى صورها المختلفة باعتراف المفكرين الأحرار من الأوربيين[2] .

* * *

---

(١) خلود الإسلام للدكتور خفاجى ١١٩ .

(٢) **مراجع هذا المبحث** : العلوم عند العرب للأستاذ قدرى حافظ طوقان . أثر العرب فى الحضارة الأوربية للعقاد . الكيمياء عند العرب للأستاذ روحى الخالدى . علوم العرب وأثرها فى نهضة أوربا للأستاذ مصطفى الشهابى رئيس المجمع العربى بدمشق ، ويعد من أبرز علماء سوريا وأدبائها . الإسلام والنصرانية للإمام محمد عبده .

المبحث الحادى عشر

سبب تأخر المسلمين فى العصور الوسطى

يرجع تأخر المسلمين فى جميع نواحيهم فى العصور الوسطى حتى العصر الحديث إلى أمرين :

أ ــ انحرافهم عن دينهم وتركهم تعاليمه :

فالمسلمون حينما كانوا متمسكين بدينهم علماء بقرآنهم ، مستبصرين بتعاليمه سائرين على نهجه كانوا علماء الكون ، وأساتذة العالم فى العلم والمعرفة ، وفى القمة فى جميع شئونهم ، وأقاموا أرقى حضارة ، وأزهى مدنية كما سبق بيانه .

وحينما انحرفوا عن دينهم ، وتركوا تعاليم قرآنهم ، وأخذوا فى الصد عنه وعن علومه وفنونه ، وأغلقوا باب الاجتهاد وجمدوا على التقليد الأعمى تأخروا عن ركب الحضارة والتقدم العلمى والفنى والحضارى .

وساعد على ذلك أن تولى رئاستهم رجال أعاجم بعيدين عن لغة القرآن وفهم تعاليمه وأدار شئونهم جهالهم ، فجهل المسلمون شئون دينهم ، واستولت عليهم البدع والخرافات من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة ، الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، والأمم التى تجهل ماضيها لا تعرف كيف تتهيأ لخير مستقبلها .

ب ــ الاستعمار :

كان المسلمون هم أصحاب الفضل فى مدنية الغربيين وحضارتهم ، كما سبق بيانه ، واعترف به أحرارهم ، وكان من المنتظر أن يقابل الغربيون الفضل بمثله ، ولكن خوفهم من انتشار الإسلام وظهوره وحقدهم عليه ، وتعصبهم

ضده ، دفعهم إلى أن يعملوا على تأخر المسلمين وتخلفهم ثقافياً واقتصادياً ، وإليك الأدلة على ذلك :

١ ـــ لقد استعمر الغربيون بلاد المسلمين واستعبدوا أهلها ، وابتزوا ثرواتهم ، وجعلوا من أنفسهم حكاماً عليهم ، وفرضوا عليهم ثقافتهم ولغتهم وقوانينهم وعملوا على تنفيرهم من دينهم الذى كان سبب مجدهم ورقيهم ، وحالوا بينهم وبين تشريعاته القيمة التى تدفعهم إلى سعادة الدنيا والآخرة .

٢ ـــ حال الاستعمار بين المسلمين وبين إقامة مؤسسات صناعية وفنية وتجارية ، ورحّلوا سكان المستعمرات من المناطق الخصبة إلى المناطق المجدبة وضعيفة الإنتاج حتى يحتكروا الصناعات وتخلص لهم الثروات والخيرات ، ويحرم منها أهلها فيعمهم الفقر وتفتك بهم الأمراض ، فيسهل عليهم تبعاً لذلك تجريدهم من دينهم .

٣ ـــ نشر الاستعمار مبشريه فى البلاد التى بسط نفوذه عليها ، وزودوهم بكل الإمكانيات للعمل على إضعاف الإسلام وتقلصه ، وإخراج الناس منه .

٤ ـــ أوعز الاستعمار إلى مبشريه بالعمل على تحطيم قوة التماسك الجبارة التى يتميز بها الإسلام ، وتربط بعضه ببعض ، ليستمر استعمارهم لبلاده .

٥ ـــ كما أوعز الاستعمار إليهم دراسة القرآن الكريم ، لا لينتفعوا بما جاء فيه ، وإنما ليلصقوا به أباطيلهم ، ويشوهوا حقائقه ، لينفروا الناس منه ، ويحولوا بينهم وبين تعاليمه التى تعمل على اتحاد شعوبه ضد أعدائه ، وعلى رقى المسلمين وتقدمهم .

٦ ـــ أقام الاستعمار ومبشروه فى البلاد الإسلامية مؤسسات تعليمية ومشاف ومستوصفات ، وجمعيات خيرية ، ظاهرها نفع المسلمين ، وباطنها شر لهم ، وهدم لدينهم .

٧ ـــ فرض الاستعمار ضرائب باهظة على منشئاته فى البلاد الإسلامية ، تجبى من المسلمين وتصرف على المبشرين بالدين المسيحى ، كما كان يحدث فى قناة السويس .

٨ ـــ إن أكثر المستشرقين لم يكونوا مخلصين فى مهنتهم ، بل كانوا يعملون على تشويه التاريخ الإسلامى ، وأبطاله وقادته ، والطعن فى العقيدة الإسلامية .

٩ ـــ إن أقسام الدراسات الإسلامية والعربية التى يشرف عليها المستشرقون فى جامعات أوربا وكندا والولايات المتحدة صارت ذات طابع هجومى على الإسلام ، ومراكز للتجسس عليه ، ويندب للتدريس فيها أساتذة من جميع أنحاء العالم الإسلامى لهذا الغرض .

١٠ ـــ إن شعوب أوربا المختلفة المتناقضة قد تحالفت وتجمعت للعمل جاهدة على الحيلولة دون نهضة الإسلام ، وللقضاء عليه ، لاعتقادهم أنه الجدار الوحيد الذى يقف فى وجه الاستعمار الأوربى ، وأن الخطر الحقيقى عليهم يكمن فى نظام الإسلام ، وفى قدرته على التوسع وفى حيويته .

١١ ـــ ما دسه المستشرقون باسم العلم والفكر من أفكارهم الصليبية فى بحوثهم وكتبهم ، وشوهوا به الإسلام وتاريخه فى نظر العالم المتحضر ، وتلقّنه كثير ممن تعلم من الشرقيين فى جامعات الغرب ، وعادوا به يبثونه فى الشرق ، ويدعون إليه .

١٢ ـــ ما قامت به أوربا من نشر مذاهب جديدة منحرفة وهدامة فى وسط العالم الإسلامى ، كالماسونية ، والصهيونية ، والوجودية ، والإلحادية ، وغيرها التى تدعو إلى حضارة الغرب المدمرة ، حضارة الربا والقمار . والعرى الفاضح والشهوات العارمة ، والجنس الآثم ، والشذوذ الجنسى ، والمادية الملحدة ، والعلمانية الكافرة ، والشيوعية الفاجرة ، فخلقت العداوة والبغضاء بين المسلمين وشغلت بعضهم ببعض .

نهضة تبشر بالخير : مما يبشر بالخير أن أكثر المسلمين فى هذا العصر أخذوا فى العودة إلى دينهم ودراسة قرآنهم وعلومه ، وفتحوا باب الاجتهاد من جديد واتجهوا إلى أخذ تعاليم دينهم من منبعه الأول : كتاب الله وسنة رسوله ، صافياً من البدع والخرافات وإلى دراسة أحوال السابقين ، والاسترشاد بهديهم فى فهم الدين ، والسير على صراطهم المستقيم .

واتخذت معظم الدول الإسلامية قراراً بمجانية التعليم فى جميع مراحله ، وأقامت

المدارس فى جميع قراها وأماكن تجمعات مواطنيها ، والجامعات فى كل المدن الكبيرة ، بل شجعت طلابها مادياً وأدبياً على مواصلة تعليمهم إلى آخر مرحلة ، كما تخلصت أكثر دول الإسلام من الاستعمار وجرائمه ، ولم يبق للاستعمار إلا الغزو الفكرى والثقافى والمالى الذى يجب أن نحذره ، ونتنبه له ، ونعمل على التخلص منه .

* * *

المبحث الثانى عشر

كيف يستعيد المسلمون مجدهم التليد

لقد بنى المسلمون السابقون مجداً علمياً شامخاً سامقاً فى شتى الميادين ، وكانوا هداة الإنسانية ، وقادتها إلى آفاق المعرفة حقباً طويلة من الزمن ، وكانت لهم حضارة زاهية ، ومدنية صافية ، شهد لهم بها مؤرخو الثقافة والفكر ، كما سبق ذكره .

ولكى نستعيد هذا المجد ، ونسعد فى الحياتين كما سعدوا ، يجب علينا أن ننهج منهجهم فى فهم الدين ، والسير على طريق رب العالمين ، وصراطه المستقيم ، فنأخذ ديننا من منبعه الأول ــ كتاب الله وسنة رسوله ــ صافياً من البدع والخرافات ، وأن ندرس أحوال السابقين ، ونترسم خطاهم فى التعلم والعمل ، وبذل كل ما لدينا من إمكانيات ، وما نملكه من طاقات ، لنرتفع إلى مستوى المسئولية والآمال التى نتطلع إليها ، ونصل حاضرنا بماضينا .

وقد أثبتنا فى الماضى قدرتنا على إنشاء مثل تلك الحضارة المرتقبة ، والمدنية المنتظرة ، وما دمنا قد استطعنا أن نقيم تلك الحضارة الإنسانية الرائعة فى عصور التخلف العلمى والفكرى ، فنحن اليوم أقدر على أن نقيم مثلها فى عصور التقدم العلمى والفكرى ، واكتشاف المجهول الكونى شيئاً بعد شىء ، وقد وعدنا الله أن يهبنا فى الدنيا الحياة الطيبة الرغيدة ، وأن يرفعنا فى الآخرة إلى الفردوس الأعلى إذا سرنا فى طريقه القويم ، وعملنا النافع لنا وللناس أجمعين ، فقال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[1] .

---

(١) النحل ٩٧.

وإننا إذا سرنا على منهاج القرآن الكريم فلا تنتظر الإنسانية منا ــ على اختلاف أديانها ومذاهبها ــ إلا الرحمة والبر والمودة والخير .

فنحن حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبة لن نتخذ من الوصول إلى الفضاء دليلاً على الإلحاد وإنكار وجود الله ، ولن نتخذ من الصواريخ عابرة القارات وسيلة إلى تهديد الأمم والشعوب ، لتظل تحت دائرة نفوذنا ، ولا نتخذ من وسائل الإعلام ودور الخيالة وسيلة للتضليل ونشر الفجور ، وفتنة الشباب وإغرائه بالفساد ، ولا من المرأة متعة للجسم ، ولا من التقدم الحضارى أداة لاستغلال الشعوب المتخلفة ، واستنزاف خيراتها ، وإذلال شعوبها ، وإنما تنتظر منا العدالة الكاملة ، والمساواة الشاملة ، والخير العام ، والنفع التام ، فلهم ما لنا وعليهم ماعلينا ،كما كان الحال فى عهد أسلافنا .

إن الله تعالى ينفخ فينا من روحه لكى نحمل اللواء ونكون قادة الأمم إلى مدنية سعيدة فاضلة ، وحياة خيرة طيبة ، فيقول تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾(١) ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾(٢) .

وقد بيّن الله لنا الدعائم التى تبنى عليها الحياة الهنيئة الفاضلة ، وتؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وهى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال تعالى : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾(٣) .

وحيث أننا حين استجبنا لنداء الله تعالى فى الماضى حملنا لواء الإنسانية ، وقدناها إلى مواقع الأمن والطمأنينة ، والحياة الهنيئة السعيدة ، فلماذا لا نحمله مرة أخرى ونعيد سيرتنا الأولى ، ونستجيب لنداء الله الذى يحثنا على السير فى طريق أسلافنا ، حتى نعزكما عزواً ونحظى بحياة هنيئة كريمة ، فيقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾(٤) .

---

(١) آل عمران ١١٠ .
(٢) البقرة ١٤٣ .
(٣) الحج ٤١ .
(٤) الأنفال ٢٤ .

وإذا كان المسلمون قد تآمرت عليهم قوى الظلم والعدوان فنحتهم عن قيادة الركب العلمى والثقافى فترة من الزمان ، فها هم أولاء قد أفاقوا من غفلتهم ، وأخذوا يتنادون فى كل مكان ، هيا إلى الأمام لنسجل من جديد صفحات رائعة فى سفر التاريخ ونضيف إلى العلوم والفنون والحضارة والمدنية بإبداعنا ما يستحق أن يكون فخراً لنا وللإنسانية فى مستقبلها ، كما كان ذلك فخراً للإنسانية فى ماضيها . وإننا لنأمل أن يحمل راية الإسلام من جديد رجال لا يخافون فى الله لومة لائم ، يردون عنه عادية الإلحاد والفسوق ، ويرفعون راية الإسلام عالية خفاقة فى كل مكان .

فيدرك ثأر الله أنصار دينه ولله أوس آخرون وخزرج

فإلى الأمام على طريق الله — أيها المسلمون فى كل مكان — فإننا على ميعاد من الله أن يحقق لنا عز الدنيا ، وسعادة الآخرة ، إذا سرنا على هدى قرآننا وسنة نبينا ، وفى طريق سلفنا ، فقد قال تعالى :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[1] .

قرآننـــا

قرآننا نور يضىء طريقنا قرآننا ياقوم مصدر عزنا
قرآننا كان الأساس لمجدنا قرآننا أضحى السبيل لنصرنا

---

(١) النور ٥٥ .

يا إخوة الإسلام سيروا إلى الأمام
بالعزم والإقدام بصحبة القرآن

قرآننا نور يضىء طريقنا

النور فى أيدينا وربنا يحمينا
قرآننا يهدينا لساحة الإيمان

قرآننا نور يضىء طريقنا

هيا ارفعوا القرآن وحطموا الأوثانا
وحرروا الإنسانا من قبضة الطغيان

قرآننا نور يضىء طريقنا

هيا اهتفوا يا إخوتى واستيقظى يا أمتى
هيا أعيدى بسمتى كسابق الأزمان

قرآننا نور يضىء طريقنا

* * *

الفصل الخامس

محاربة أهل الكتاب للدعوة المحمدية

وبه مقدمة ، وتسعة مباحث

- ادعاء كل من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملته .
- ادعاء كل منهم أن غيره ليس على شيء من الدين .
- ادعاء كل منهم أن لا دين إلا دينه .
- ادعاء كل من اليهود والنصارى أن دينه هو الأحق بالاتباع وأن إبراهيم عليه السلام كان على ملته .
- سعي الكثير من أهل الكتاب فى إضلال المسلمين .
- تعالى أهل الكتاب على الإسلام والمسلمين .
- سعيهم فى تمزيق وحدة المسلمين وإشعال نيران الفتن ضدهم .
- استهزاؤهم بالدين الإسلامى وعباداته .
- محاربتهم للدعوة المحمدية فى شخص رسولها ﷺ .

مقدمة

لم يقف أهل الكتاب من الرسالة المحمدية ، والدعوة الإسلامية عند هذا الحد بين إنكار نسخها لما سبقها من الشرائع السماوية ، وشمولها لسائر البشرية ، ومن الامتناع عن اعتناقها ، والانضواء تحت لوائها ، ليفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة ، مع أنهم — كما سبق — كانوا على بينة من أمرها ، ويعرفون صدقها ، وصدق صاحبها ، كما يعرفون أبناءهم .

بل أخذوا يحاربونها ، ويقفون فى وجهها ويصدون الناس عن سبيلها ، فضلوا ، وأخذوا يضللون غيرهم ،ويدعون أن لا هدى إلا هداهم ، ولا دين إلا دينهم ، فاليهود يدعون أن لا دين إلا اليهودية ، والنصارى يدعون أن لا دين إلا النصرانية ، وقد تمادى اليهود والنصارى فى الدعاوى الباطلة ، حتى زعم كل فريق منهم أن الجنة وقف عليه ، لا يدخلها غيره ، لأنه — فى نظره — صاحب الديانة الحقة وشعبه هو المختار .

وقد حكى القرآن أباطيلهم ، وسرد مفترياتهم ، ودمغها بالحجة والبرهان ، وإليك البيان لبعضها فى المباحث الآتية .

المبحث الأول

ادعاء كل من اليهود والنصارى
أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملته

قال تعالى : ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾(١) .

معانى المفردات : هودا : جمع هائد ، وهو معتنق اليهودية . الأمانى : واحدها أمنية ، وهى ما يتمناه الإنسان ولا يدركه ، والعرب تسمى كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنياً وغرورا ، وضلالا وأحلاماً . أسلم وجهه لله : انقاد وأخلص له فى عمله ، بحيث لا يجعل العبد بينه وبين ربه وسطاء يقربونه إليه زلفى .

والمعنى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ، إلا أن الآية سلكت مسلك الاختصار ، فحكت القولين فى جملة واحدة ، وعطفت أحد الفريقين على الآخر بحرف « أو » ثقة بفهم السامع أن يرد كلا من القولين إلى صاحبه ، وأمنا من اللبس لما عرف من التعادى بين الفريقين ، وتضليل كل منهما لصاحبه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا** ﴾(٢) أى قال اليهود : كونوا هوداً تهتدوا ، وقالت النصارى : كونوا

---

(١) البقرة ١١١ ، ١١٢ .
(٢) البقرة ١٣٥ .

نصارى تهتدوا ، وهذه آراء الفريقين إلى يومنا هذا .

وكل من الفريقين لا يستند فى مدعاه إلى عقل سليم ، أو نقل صحيح ، وإنما هى أمانى وشهوات تمنوها على الله بغير حق ، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لكلا الفريقين : هاتوا برهانكم ودليلكم على ما تزعمون إن كنتم صادقين فيما تدعون .

وهذا وإن كان ظاهره طلب الدليل على صدق المدعى ، فهو فى عرف التخاطب تكذيب له ، لأنه لا برهان لهم عليه .

وفى هذا إيماء إلى أنه لا يقبل من أحد قول لا برهان له عليه ، والقرآن الكريم ملىء بالاستدلال على ذات الله ، وصفاته الذاتية ، بالآيات الكونية والبراهين العقلية .

ثم رد الله زعمهم الباطل فقال : بلى إنه سيدخلها من لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، لأن رحمة الله لا تختص بقوم دون غيرهم ، فليس بينه وبين أحد نسب ، وإنما هى لكل من يستحقها ، فمن أسلم وجهه لله وحده فلم يشرك به شيئاً ، وهو محسن فى عمله ، فله ثواب عمله عند ربه ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه .

قال ابن كثير[1] : قال تعالى : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ **أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى :** ﴿ **فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن** ﴾[2] الآية ، وقال أبو العالية والربيع : « بلى من أسلم وجهه لله » يقول من أخلص لله ، وقال سعيد بن جبير : « بلى من أسلم » أخلص « وجهه » قال : دينه (وهو محسن) ، أى اتبع فيه الرسول ﷺ فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، فمتى كان خالصاً ، ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم[3] ، فعمل

---

(١) فى تفسيره ١ / ١٥٤ .

(٢) آل عمران ٢٠ .

(٣) فى ١٢ / ١٦ .

الرهبان ، ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة

وفيهم وفى أمثالهم قال تعالى : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة**[2] يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة**[4] * **تصلى ناراً حامية**[5] * **تسقى من عين آنية** ﴾[6] وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه تأولها فى الرهبان .

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضا مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين ، كما قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا** ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ **فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾[8] ولهذا قال تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾[9] . أ هـ

* * *

---

(١) الفرقان ٢٣ .

(٢) السراب : ما يرى فى المكان المتسع الخالى وقت الظهر كأنه ماء . وقيعة : جمع قاع كجيرة جمع جار ، والقاع هو المكان الخالى .

(٣) النور ٣٩ .

(٤) خاشعة : ذليلة لأنها أدركت بطلان عملها فى الدنيا . عاملة ناصبة : وقع منها عمل فى الدنيا وأصابها فيه نصب ، أى تعب ولم تستفد من عملها سوى نصبها ، فأثر الخيبة ، وحبوط العمل ظاهر عليها .

(٥) شديدة الحرارة .

(٦) الغاشية ٢ : ٥ .

(٧) النساء ١٤٢ .

(٨) الآيات آخر الماعون .

(٩) آخر الكهف .

المبحث الثانى

ادعاء كل منهم أن غيره ليس على شىء من الدين

قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾[1] يقال فلان ليس على شىء من كذا : أى ليس على شىء منه يعتد به ، ويؤبه له .

سبب نزول الآية : أخرج ابن أبى حاتم من طريق سعيد ، أو عكرمة عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود فتنازعوا ، فقال رافع بن خزيمة : ما أنتم على شىء وكفر بعيسى والإنجيل ، فقال رجل من أهل نجران لليهود : ما أنتم على شىء ، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله فى ذلك ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء** ﴾[2] الآية .

والمعنى : وقالت اليهود : ليست النصارى على شىء من الدين يعتد به ، فهم قد كفروا بالمسيح مع أنهم يتلون التوراة التى تبشر به ، وتذكر من الأوصاف ما لا ينطبق إلا عليه ولا يزالون إلى اليوم يدعون أن المسيح المبشر به فيها لما يأتى بعد ، وينتظرون ظهوره وإعادته الملك إلى شعب إسرائيل . وقالت النصارى : ليست اليهود على شىء من الدين يعتد به ؛ لإنكارهم نبوة المسيح المتمم لشريعتهم ، قالوا ذلك ، وكتاب كل من الفريقين ينطق بغير ما يعتقدون به ، فالتوراة تبشر برسول منهم يأتى بعد موسى ، لكنهم خالفوها ولم يؤمنوا به ،

---

(١) البقرة ١١٣ .

(٢) لباب النقول للسيوطى ١ / ١٩ .

والإنجيل يقول : إن المسيح جاء متمماً لناموس موسى ، لا ناقضاً له ، وهم قد نقضوه ، فدينهم واحد ، لكن ترك بعضهم أوله ، وبعضهم آخره ، ولم يؤمن به كل واحد منهم ، والكتاب الذى يتلونه حجة عليهم ، وشاهد على كذبهم .

ثم بين الله أنهم ليسوا أول من قال ذلك ، بل قبلهم أمم قالت مثل مقالتهم فقال : ﴿ **كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم** ﴾ أى مثل هذا القول الذى لم يبن على برهان قال الجهلة من عبدة الأوثان ، من مشركى العرب وغيرهم لأهل كل دين : لستم على شىء .

والحق وراء هذه المزاعم ، فهو إيمان خالص ، وعمل صالح ، لو عرفه الناس حق المعرفة لما تفرقوا أو اختلفوا فى أصوله ، لكنهم تعصبوا لأهوائهم ، فاختلفوا وتفرقوا طرائق قددا .

﴿ **فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ فهو العليم بما عليه كل فريق من حق أو باطل ، فيحق الحق ، ويجعل أهله فى النعيم ، ويبطل الباطل ،ويلقى أهله فى الجحيم .

* * *

المبحث الثالث

ادعاء كل منهم أن لا دين إلا دينه وأن لا هدى إلا فى اتباعه

وقد حكى الله دعواهم هذه ، وأبطل مدعاهم . فقال تعالى : ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارىٰ تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾[1] .

سبب النزول : أخرج ابن أبى حاتم من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا للنبى ﷺ : ماالهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد . وقالت النصارى مثل ذلك . فأنزل الله فيهم : ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا** ﴾[2] .

والمعنى : وقالت اليهود للنبى ﷺ وللمسلمين : لا دين إلا اليهودية ، ولا يتقبل الله سواها فاتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا ، وبذلك كفروا بعيسى وإنجيله ، ومحمد وقرآنه ــ عليهما الصلاة والسلام ــ وقالت النصارى للنبى ﷺ وأصحابه : لا دين إلا النصرانية ، ولا يتقبل الله سواها ، فاتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا ، وبذلك كفروا بموسى ومحمد وكتابيهما ــ عليهما الصلاة والسلام ــ ولو صح ما يقولون لما كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام مهتدياً ، لأنه لم يكن يهودياً ، ولا نصرانياً ، والجميع متفقون على أنه سيد المهتدين وإمامهم .

---

(١) البقرة ١٣٥ .

(٢) لباب النقول لسيوطى ١ / ٢٤ .

ثم أمر الله رسوله أن يرد عليهم بقوله ﴿ **قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ حنيفاً : أى مستقيماً ، ومائلاً عن الأديان الباطلة إلى دين الحق .

والمعنى : قل لهم ـــ يا محمد ـــ ليس الهدى فى اتباع ملتكم ، بل الهدى فى أن نتبع ملة إبراهيم الذى لا تنازعون فى هداه ، والمائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق ، والذى ما كان من المشركين بأى نوع من أنواع الشرك ، فاتبعوا أنتم أيضاً يا معشر أهل الكتاب ـــ ما اتبعناه لتكونوا حقاً متبعين ملة إبراهيم .

وفى هذا تعريض بأهل الكتاب بأن ملتهم غير مستقيمة ، بل معوجة ، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم باطلة ؛ لأنهم أشركوا بالله العزير والمسيح وغيرهما ، ونسبوا لله ما لا يليق .

* * *

المبحث الرابـع

ادعاء كل من اليهود والنصارى أن دينه هو الأحق بالاتباع وأن إبراهيم ﷺ كان تابعاً له

وقد سحق الله ادعاءهم ، وسفه عقولهم ، وأظهر جهلهم فقال تعالى : **﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾**[1] .

• **سبب النزول** : روى ابن إسحاق بسنده المتكرر إلى ابن عباس قال : اجتمعت نصارى نجران ، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً ، فأنزل الله **﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون ﴾** الآية : أخرجه البيهقى فى الدلائل[2] .

والمعنى : أيها اليهود والنصارى ، لم تتنازعون وتتجادلون فى إبراهيم ، فيدعى اليهود منكم أنه كان يهودياً ، والنصارى أنه كان نصرانياً ، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، أعميتم عن الحق فلم تعقلوا أن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعاً له .

---

(١) آل عمران ٦٥ : ٦٨ .

(٢) لباب النقول للسيوطى ١ / ٥٧ .

ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به نوع من العلم والمعرفة وهو عيسى عليه السلام وقد قامت عليكم الحجة ، وتبين أن منكم من غلا وأفرط ، وادعى ألوهيته ، ومنكم من فرط وقال : إنه دعى كذاب ، ولم يكن علمكم بمانع لكم من الخطأ ، فلم تحاجون فى شأن إبراهيم عليه السلام ، وليس لكم به علم يصلح أن يكون أساساً للمحاجة والمخاصمه ، والله يعلم كل مايتعلق بشأن إبراهيم ، وأنتم لا تعلمون .

ماكان إبراهيم يهودياً كما يدعي اليهود ، ولا نصرانياً كما يدعى النصارى ، فكل منهما كاذب فى دعواه ، والصادق فيهم أهل الإسلام ، فإنهم وحدهم أهل دينه ومنهاجه دون سائر الملل الأخرى ، وإبراهيم كان حنيفاً ، مائلاً عن الشرك بالله والوثنية ، منقاداً ومطيعاً لله وحده ، وما كان من المشركين ، كأهل الكتاب الذين قالوا عزير ابن الله ، أو المسيح ابن الله ، ومشركى العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله وعبدوا الأصنام والأوثان .

فإبراهيم الذى اتفق اليهود والنصارى ، ومشركو العرب على إجلاله وتعظيمه لم يكن على ملة أحد منهم ، بل كان مائلاً عما هم عليه من الشرك والوثنية ، مسلماً لله مخلصاً له .

إن أولى الناس بإبراهيم ، وأحقهم بالانتساب إلى دينه ، هم الذين سلكوا طريقه ، واتبعوا سبيله فى عصره ، وعبدوا الله وحده مخلصين له الدين ، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين ، وهذا النبى محمد ﷺ والذين آمنوا معه من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، إذ الكل متفق معه فى الوحدانية ، وإخلاص العبادة لله ، والله ولى المؤمنين بالنصر والتأييد والتوفيق والتسديد ، وهو حسبهم ونعم الوكيل .

* * *

المبحث الخامس

سعى الكثير من أهل الكتاب فى إضلال المسلمين

وفى العمل على تكفيرهم ، وفتنتهم فى دينهم ، وتشكيكهم فى القرآن الكريم ، والآيات فى ذلك كثيرة منها :

١ ـــ قوله تعالى : ﴿ **ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق** ﴾[١] .

والمعنى : يود كثير من أهل الكتاب ويرغبون أن يردوكم ـــ أيها المسلمون ـــ إلى الكفر بعد إيمانكم ، مع أنه قد تبين من الآيات التى جاء بها النبى ﷺ ، ومما يجدونه فى كتبهم أنكم على الهدى ودين الحق ، وما ودوا إضلالكم وتكفيركم إلا حسداً لكم على ما آتاكم الله من فضله ، وخشية أن ينتقل السلطان إليكم .

٢ ـــ وقوله : ﴿ **ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾[٢] .

والمعنى : إن فريقاًمن أهل الكتاب يحبون إضلال المؤمنين وفتنتهم عن دينهم بإلقاء الشبه التى توهن الاعتقاد ، وتزين الارتداد ، وهم بعملهم هذا لا يضلون إلا أنفسهم لأنهم بتوجههم إلى الإضلال ، واشتغالهم به ينصرفون عن النظر فى طرق الهداية ، ويفسدون فطرتهم باختيارهم ، وما يشعرون أنهم يضلون أنفسهم بذلك لأن انهماكهم فى الإضلال صرفهم عن معرفة الحق والهدى ، إذ المنهمك فى

---

(١) البقرة ١٠٩ .

(٢) آل عمران ٦٩ .

الشيء لا يفطن لعواقبه وأضراره .

٣ ــ وقوله تعالى : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون * ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله . .** ﴾[1] .

والمعنى : وقال جماعة من أهل الكتاب لبعض أتباعهم : آمنوا بالقرآن الذى نزل على محمد ــ واتبعه فيه المؤمنون ــ أول النهار ، وصلوا معهم ، واكفروا فى آخره لعلكم تستطيعون بهذا فتنتهم ببث الريب والشك فيهم ، فيرجعوا عن دينهم ، ولا تصدقوا أحداً فى أمور الدين إلا إذا كان منكم .

قل لهم ــ يا محمد ــ إن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ويثبته على الإيمان .

* * *

(١) آل عمران ٧٢ ، ٧٣ .

المبحث السادس

تعالى أهل الكتاب على الإسلام والمسلمين

يتعالى كل من اليهود والنصارى على الإسلام والمسلمين ، ويدعون أنهم فى حصانة من عذاب الله ، لأنهم أبناؤه وأحباؤه .

وقد حكى الله عنهم ذلك ، ورد عليه بما دحضه فى عبارة وجيزة ، فقال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير** ﴾[1] .

سبب النزول : روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : « أتى رسول الله ﷺ نعمان بن قصى ، وبحر بن عمرو ، وشاس بن عدى . فكلموه وكلمهم ، ودعاهم إلى الله ، وحذرهم نقمته ، فقالوا : ما تخوفنا يا محمد ، نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، كقول النصارى ، فأنزل الله فيهم ﴿ **وقالت اليهود والنصارى** . . . ﴾[2] .

والمعنى : وقالت اليهود ـــ التى تدعى أنها شعب الله المختار ـــ كما قالت النصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فالله يعاملنا معاملة الأب لأبنائه ، يعطف علينا ويرحمنا ، ويمنحنا عطفه وبره ، وقد رد الله عليهم بقوله : قل لهم ـــ يا محمد ـــ إذا كان الأمر كذلك فلم يعذبكم بذنوبكم فى الدنيا ، كما ترون من تخريب دياركم وهدم الوثنية لمسجدكم فى بيت المقدس ، ومن لصوق العداوة والبغضاء فيكم أيها النصارى ، فأنتم تتحاربون ، وتتقاتلون مدى الحياة على هذه الأرض ، وأما فى

(١) المائدة ١٨ .

(٢) لباب النقول للسيوطى ١ / ١٠٩ .

الآخرة فالعذاب شديد ، والألم عظيم ، وأنتم مقرون بأنكم ستعذبون على ما ارتكبتم من خطايا ، والأب لا يفعل هذا مع أبنائه ، والأولاد لا يعصون أباهم ، ولا يفعلون معه ما تفعلون ، بل أنتم بشر من خلق الله كسائر البشر ، لا مزية لكم على غيركم ولا فضل ، والله تعالى يغفر لمن يشاء إذا تاب عن الشرك ، ويعذب من يشاء تعذيبه لا اعتراض عليه لأنه صاحب التصرف المطلق له ملك السموات والأرض وما بينهما ، ومصير البشر جميعاً إليه ﴿ **ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾[1] .

قال صاحب المنار[2] : كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ، ميزهم لذاتهم على جميع البشر ، فلا يمكن أن يساويهم شعب آخر عنده ، وإن كان أصح منهم إيماناً وأصلح عملاً ، وأنهم لا يكونون تابعين لغيرهم فى الدين ، فلا يصح أن يتبعوا محمداً ﷺ لأنه عربى لا إسرائيلى ، والفاضل لا يتبع المفضول بزعمهم ، ولا يمكن أن يؤاخذهم الله على الكفر به ، لأنهم شعبه الخاص المحبوب ، فهو لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعزاء ، والمحب لمحبوبه الخاص .

وأما النصارى فقد أربوا عليهم فى الغرور ــ وإن كان النبى الذى يدعون اتباعه قد جاهد غرور اليهود جهاداً عظيماً ــ فهم يدعون أن المسيح قد فداهم بنفسه ، وأنهم أبناء الله ولادة الروح ، والمسيح ابنه الحقيقى ، ويخاطبون الله تعالى دائماً بلقب الأب .

وقد كانت جميع فرقهم فى زمن بعثة النبى ﷺ أشد من اليهود فساداً وإفساداً ، وفسقاً وفجوراً ، وظلماً وعدواناً ، بشهادة مؤرخى الأمم كلها منهم ومن غيرهم ، ومع ذلك كله كانوا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم غير محتاجين إلى إصلاح فى دينهم ولا دنياهم .

ولذا رفضوا ما دعاهم إليه النبى ﷺ من التوحيد الخالص ، والفضائل الصحيحة والأعمال الصالحة ، وردوا ما جاءهم به من كون مرضاة الله تعالى ومثوبته لا تنالان إلا بتزكية النفس ، وإصلاحها بالتوحيد والعمل . أ هـ

---

(١) النجم ٣١ .

(٢) فى تفسيره ٦ / ٣١٦ .

المبحث السابع

سعيهم فى تمزيق وحدة المسلمين وإشعال نيران الفتن ضدهم

لما كان من شأن اليهود والنصارى ، ومن طبيعتهم العمل على تمزيق وحدة المسلمين ، وإشعال نيران الفتن والعداوة ضد الإسلام والمسلمين وبينهم ، على مدى العصور الإسلامية ـــ والتاريخ أكبر شاهد على ذلك ـــ وأنهم لا أيمان لهم ولا عهود ، حذر الله المسلمين من موالاتهم ، وموادتهم ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين * فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين** ﴾[١] .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان لا يوال أفراد أو جماعات منكم اليهود أو النصارى المعادين لكم ولرسولكم ودينكم فى شيء ، فلا تعاهدوهم على التناصر من دون المؤمنين ، رجاء أن تحتاجوا إلى نصرتهم إذا خذل المؤمنون وغلبوا على أمرهم ، إن اليهود بعضهم أنصار بعض ، والنصارى بعضهم أنصار بعض ، لاتحاد كل فى الضلال ، والكفر برسالة محمد ﷺ ، ولم يكن للمؤمنين منهم ولى ولا نصير .

---

(١) المائدة ٥١ : ٥٣ .

فاليهود قد نقضوا ما عقده الرسول ﷺ معهم من العهود من غير أن يبدأهم بقتال أو عدوان ، فصار الجميع حرباً للرسول ومن معه من المؤمنين فسبب النهى هو ما وقع من اليهود ، ولكن لما أريد النهى لم يقتصر عليهم ، لكى لا يظن المسلمون أنهم مأذونون فى موالاة النصارى ، فلدفع ذلك عطف النصارى على اليهود هنا ، لأن السبب الداعى لعدم الموالاة واحد فى الفريقين ، وهو اختلاف الدين والنفرة الناشئة من تكذيبهم برسالة محمد ﷺ .

فالنصارى وإن لم يجىء منهم يومئذ أذى للمسلمين — مثل اليهود لعدم وجود دواعيه — فقد وجد منهم بعد ذلك حين وجدت دواعيه وجاور المسلمون تخوم بلاد النصارى بالشام ، وبسبب ذلك حصلت غزوة مؤتة وغزوة تبوك ، بل نرى الأذى واضحاً والعداوة مشتعلة فى كل قطر وجد فيه مسلمون ونصارى على مدى تاريخ الإسلام الطويل ، وخاصة إذا كان المسلمون قلة فيه .

وشدد الله تحذيره من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء فقال : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ أى ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين وهم أعداء لكم فإنه فى الحقيقة منهم لا منكم ، لأنه معهم عليكم ، ولا يتصور أن يقع ذلك من مؤمن صادق الإيمان ، قال ابن جرير : فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم ، فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض وإذا رضيه ورضى دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه . أ هـ

﴿ **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ أى إن الله لا يهدى للإيمان الذين ظلموا أنفسهم بموالاتهم لليهود والنصارى من دون المؤمنين .

ثم بين الله أنه لا يسارع فى موالاة أهل الكتاب إلا المنافقون فقال : ﴿ **فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة** ﴾ أى فترى الذين فى قلوبهم شك ونفاق ، كعبد الله بن أبى وأصحابه يسارعون فى موالاة أهل الكتاب ومعاونتهم ، يقولون معتذرين عن ذلك نخاف أن تصيبنا دائرة ، وهى ما يدور من مكاره الدهر ، كأن يظفر الكفار بمحمد ﷺ فتكون الدولة لهم وتبطل دولته ، فيصيبنا منهم ما نكره .

قال تعالى ـــ رداً على مزاعمهم الباطلة ـــ ﴿ **فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين** ﴾ أى فعسى الله أن يأتى بالنصر لنبيه ، بإظهار دينه ، أو بأمر من عنده تندفع به صولة أهل الكتاب ومن معهم ، وتنكسر به شوكتهم ، ويكون به هتك ستر المنافقين وافتضاح أمرهم ، فيصبح المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاة أعداء الله من اليهود والنصارى .

﴿ **ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين** ﴾ أى ويقول المؤمنون ـــ تعجباً من حال المنافقين إذ هتك الله أستارهم ـــ أهؤلاء الذين حلفوا لكم ـــ يا معشر اليهود ـــ بأغلظ الأيمان إنهم لمعكم بالنصر والمعونة ، كما حكى الله تعالى عنهم ﴿ **وإن قوتلتم لننصرنكم** ﴾ قد بطلت أعمالهم ونفاقهم ، فصاروا خاسرين فى الدنيا بالفضيحة والذل والهوان ، وفى الآخرة بعذاب النار .

* * *

المبحث الثامن

استهزاؤهم بالدين الإسلامى وعباداته

وسخريتهم من المسلمين قاصدين بذلك تنفير المسلمين من دينهم ، وتكريههم فيه ، ولذا حذرنا الله من موالاتهم ، وموالاة كل من يتخذ ديننا هزواً ولعباً ، وسفه عقول كل من يعادى الإسلام الدين العالمى الخالد وتشريعاته فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين * وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾[١] .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار حلفاء لكم وأنصاراً فإنهم لا يألونكم خبالا ، ولا يقصرون فى الإضرار بكم ، وتنفيركم من دينكم ــ وإن أظهروا لكم مودة وصداقة ــ لأنهم لا يحترمون دينكم ويسخرون منكم ومن شعائر دينكم ، ويتخذونه هزواً ولعباً ، فبعضهم يظهر الإيمان لكم وهو على كفره مقيم ، وبعد اليسير من الزمن يظهر الكفر بلسانه ، تلاعباً بدينكم واستهزاء بكم .

فخافوا الله ــ أيها المؤمنون ــ فى موالاة هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعبا إن كنتم صادقى الإيمان تحفظون كرامته ، وتجتنبون مهانته ، وتصدقون بالجزاء يوم اللقاء مع الله تعالى ، فمن اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه فى حال من الأحوال ، بل يجب أن تبغضوه وتعادوه .

كيف لا وأنتم إذا ناديتم إلى الصلاة وأذن مؤذنكم داعياً لها سخر من

---

(١) المائدة ٥٧ ، ٥٨ .

دعوتكم لها من نهيتم عن موالاتهم ، من أهل الكتاب والمشركين ، واتخذوها هزواً ولعبا ، لجهلهم بحقيقة الأديان ، وما أوجب الله فيها من تعظيمه والثناء عليه ، بما هو أهله .

ولو كان عند هؤلاء القوم عقل لخشعت قلوبهم لذكر الله كلما سمعوا المؤذن يكبر الله تعالى ويوحده ، ويدعو إلى الصلاة والفلاح بمناجاته وذكره ، فهو ذكر مؤثر فى النفوس الصالحة ، لا تخفى محاسنه على من يعقل الحكمة فى تشريعاته تعالى ، ويؤمن بالله العلى الكبير .

* * *

المبحث التاسع

محاربتهم للدعوة المحمدية فى شخص رسولها ﷺ

وإعلان سخطهم عليه ما لم يتبع ملتهم المبنية على تقاليدهم وأهوائهم الباطلة ، قال تعالى : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير** ﴾(1) . ملتهم : شريعتهم ؛ لأن الطريقة المشروعة للعباد تسمى ملة ؛ لأن الأنبياء أملُّوها وكتبوها لأمتهم ، وتسمى دينا لأن العباد انقادوا لمن سنها ، وتسمى شريعة ؛ لأنها مورد للمتعطشين إلى ثواب الله ورحمته .

والمعنى : كان النبى ﷺ يطمع فى أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان به لموافقته لهم فى أصول الدين : من توحيد ، وتقويم ما اعوج من الفطرة الإنسانية ـــ بسبب ما طرأ عليها من التقاليد الفاسدة ـــ بالمعارف الدينية الصالحة والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والإيمان بالبعث والجزاء على الأعمال .

فلما تنكروا لدعوته وجحدوها، وبذلوا أقصى مايستطيعون فى محاربتها وصد الناس عنها ، كبر عليه ذلك وشق على نفسه ، فهوّن الله عليه أمرهم ، وأعفاه من مسئولية اهتدائهم فى الآية السابقة على هذه فقال تعالى : ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم** ﴾ .

وفى هذه الآية أيئسه من إيمانهم حتى لا يهلك نفسه ، ويحملها ما لاتطيق من أجلهم طمعاً فى إسلامهم ، إذ علق رضاهم عنه بما هو مستحيل أن يكون ، وهو اتباعه ملتهم ، والدخول فى دينهم فقال ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى**

---

(1) البقرة ١٢٠ .

حتى تتبع ملتهم ﴾ لأنهم اتخذوا الدين جنسية ، يرضون عن أحد إلا إذا دخل فى حظيرتها وانضوى تحت لوائها ، وهذا معناه أن ملتهم هى الهدى وحدها .

ولذا أمر الله رسوله أن يرد على ذلك بقوله ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ أى إن الهدى هو ما أنزله الله على أنبيائه ، لا ما أضافه إليه اليهود والنصارى بالهوى والابتداع ، ففرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل شيعة تكفر الأخرى ، وتقول إنها ليست على شيء .

ثم حذر الله من اتباع أهوائهم فقال :

﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير** ﴾ أهواءهم : هى التى عبر عنها فيما قبل بملتهم ؛ إذ هى التى ينتمون إليها ، وأمّا ما شرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهو المعنى الحقيقى للملة فقد غيروها تغييرا .

أى والله لئن اتبعت ما اخترعوه وأضافوه إلى دينهم ، وجعلوه أصلاً من أصول شريعتهم ، بعد ما حصل لك من اليقين والطمأنينة عن طريق الوحى الإلهى الذى نزل عليك ، ومنه علمت أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويل ، وأنهم نسوا حظاً عظيماً منه — إن اتبعتهم فى ذلك — فالله لاينصرك ، ولا يساعدك على ذلك ؛ لأن اتباع الهوى ليس طريقاً إلى الهدى ، وإذا لم ينصرك الله ويتول شئونك فمن بعده ينصرك ويرعاها .

وهذا الإنذار الشديد ، والوعيد والتهديد ، وإن كان موجها إلى النبى ﷺ ، الذى عصمه الله من الزيغ والزلل ، وأيده بروح من عنده ، هو فى الحقيقة موجه إلى الناس كافة فى شخص الرسول ﷺ فهو على حد قولهم « إياك أعنى واسمعى يا جارة » ، أو المراد ولئن اتبعت أهواءهم على سبيل الفرض والتقدير .

* * *

الفصل السادس

من جرائم اليهود ضد الإسلام كما جاءت فى القرآن
وبه مقدمة وعشرة مباحث

- ادعاؤهم أنهم غير مكلفين إلا بما أنزل عليهم .
- زعمهم أن المانع من إيمانهم هو عداوة جبريل لهم .
- إنكارهم أن القرآن منزل من عند الله على محمد ﷺ .
- إنكارهم أخذ الميثاق عليهم بالإيمان بمحمد ﷺ .
- إنكارهم لمعجزات النبى ﷺ .
- تفضيلهم وثنية المشركين على توحيد المسلمين .
- طعنهم فى الإسلام والمسلمين .
- تعنتهم مع الرسول ﷺ ومحاولتهم تعجيزه .
- جحود اليهود لبعثة النبى ﷺ إليهم .
- ادعاؤهم أنهم أولياء الله دون الناس .

مقدمـــة

إن جرائم اليهود ، ومكائدهم ضد الإسلام والمسلمين عديدة وقديمة ، فقد ولدت منذ ولدت الرسالة المحمدية ، وازدادت عداوة اليهود للإسلام والمسلمين شدة وضراوة ، ونارها اضطراماً واشتعالاً عندما هاجر الرسول الكريم وصحبه الأخيار إلى المدينة ، وتجاور فيها الدينان،ويصور هذه العداوة والحقد الدفين المشتعل فى قلوب اليهود ، ويؤكدها الحوار الذى دار بين أبى ياسر وأخيه حيى بن أخطب زعيم بنى النضير ـــ بعد أن اجتمعا بالرسول ﷺ فى أول أيام هجرته إلى المدينة فى بنى عمرو بن عوف بقباء يوماً كاملاً من قبل طلوع الشمس حتى غروبها ـــ حيث قال أبو ياسر لأخيه حيى بعد أن عادا من عنده ﷺ : أهو هو؟ قال: نعم والله . قال: أتعرفه بنعته وصفته؟ قال : نعم والله. قال فماذا فى نفسك منه ؟ قال : عداوته ما بقيت(١) .

فمنذ الهجرة ومكائد اليهود للإسلام وأهله تتتابع وتشتد حقداً ، وتتميز نفوسهم غيظاً وحنقاً ، وتشتعل حسداً وبغضاً ضد الإسلام ورسوله ﷺ .

وحسبك أنها كانت السبب فى إشعال نيران معظم الحروب التى وقعت فى حياته ﷺ ، وأن اليهود دبروا عدة مؤامرات لقتل الرسول ﷺ لولا عناية الله به ، وحفظه له .

وأن اليهودية كانت هى المدبرة للفتنة الكبرى التى تولى كبرها عبد الله بن سبأ وأدت إلى قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ظلماً وعدوانا ، وأشعلت بين المسلمين حروباً ضروساً أكلت الأخضر واليابس ، وحصدت فضلاء الصحابة ، وخيرة التابعين ، ولا زال العالم الإسلامى يقاسى نارها حتى اليوم .

وقد حكى القرآن الكريم كثيراً من أباطيلهم وعديداً من مفترياتهم ، ودمغها بالحجة والبرهان ، وإليك البيان لبعضها فى المباحث التالية :

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢ / ١١٩ .

المبحث الأول

ادعاؤهم أنهم غير مكلفين إلا بما أنزل عليهم

فقد كانوا عندما يدعون إلى الدخول فى الإسلام ، والإيمان بالقرآن يقولون إننا مكلفون بألا نؤمن إلا بما أنزل على أنبياء بنى إسرائيل ، كالتوراة والزبور ، وقد ذكر الله دعواهم هذه ، ودحضها بالحجة والبرهان ، فقال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بماأنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين * ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين** ﴾[1] .

والمعنى : أنه إذا قال الرسول ﷺ وأصحابه لليهود المعاصرين له : آمنوا بما أنزل الله من القرآن على محمد ﷺ قالوا : نؤمن بما أنزل علينا من التوراة وغيرها ويكفرون بما عداه من القرآن الكريم ، والحال أنه هو الحق الذى لا تحريف فيه ولا تبديل ، والمصدق لما معهم من التوراة فى العقائد وأمهات العبادات والأخلاق ، ونعته ﷺ .

ولقد كذبوا فيما يدعون من إيمانهم بما أنزل عليهم من التوراة ، لأن كفرهم بهذا الكتاب المصدق لما فى كتابهم هو كفر بكتابهم نفسه ، فهم كاذبون فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم إذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ الذى بشرت به توراتهم وأمرتهم بالإيمان به .

---

(١) البقرة ٩١ : ٩٣

ثم امر الله رسوله أن يبين لهم بطلان إيمانهم بما فى كتابهم بأمور ثلاثة : قتلهم الأنبياء بغير حق ، وعبادتهم العجل ، وقولهم ــ حين أخذ عليهم الميثاق بالإيمان والعمل بما فى التوراة ــ سمعنا وعصينا ، فقال :

قل لهم ــ يا محمد ــ موبخاً ومنكراً عليهم دعوى إيمانهم : فلم قتلتم أنبياء الله من قبل محمد ﷺ إن كنتم مؤمنين بالتوراة ، فقتلهم محرم عليكم فيها أشد تحريم ، فهو أقطع دليل على عدم إيمانكم برسالتهم .

بل لقد كفرتم ــ أيها اليهود ــ كفراً صريحاً بكتابكم ، ورجعتم إلى الشرك فى عهد موسى عليه السلام نفسه ، فلقد جاءكم بالبينات والمعجزات الناطقة بصدقه ، وحقيقة نبوته ، لكنكم لم تلبثوا ــ حين تغيب عنكم لمناجاة ربه ــ حتى عدتم لعبادة العجل ، ورجعتم إلى سابق وثنيتكم ، وأنتم ظالمون لأنفسكم .

واذكر لهم ــ يا محمد ــ وقت أن أخذنا عليهم الميثاق المؤكد بأن يعملوا بما فى التوراة ورفعنا فوقهم الطور إذ ذاك إرهاباً لهم ، وقال الله لهم : خذوا ما آتيناكم بجد ونشاط ، واسمعوا ما فيها سماع قبول ، فما كان من آبائهم إلا أن قالوا : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ، وعبدوا العجل ، وخالط حبه شغاف قلوبهم .

قل لهم ــ يا محمد ــ إن كان إيمانكم بالتوراة يدعوكم إلى هذا فبئس شيئاً هذا الإيمان ، الذى ألقى بكم فى الكفر والعصيان .

* * *

المبحث الثانى

زعمهم أن الذى يمنعهم من إيمانهم هو عداوة جبريل ــ عليه السلام ــ لهم

وقد بين الله فضل جبريل ــ عليه السلام ــ وفضل ما نزل به ، وتوعد من عاداه ، فقال تعالى : ﴿ **قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين * من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾[(١)] .

سبب النزول : أن عبد الله بن صوريا من علمائهم سأل النبى ﷺ عن الملك الذى ينزل عليه بالوحى ، فقال : هو جبريل ، فزعم أنه عدو اليهود ، وذكر من عداوته أنه أنذرهم خراب بيت المقدس فكان ، ومنها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل مدراسهم ، فذكر جبريل فقالوا : ذاك عدونا ، يطلع محمداً على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلم[(٢)] .

وقال ابن جرير الطبرى[(٣)] : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولى لهم . أ هـ

---

(١) البقرة ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) ذكر ذلك صاحب المنار فى تفسيره ١ / ٣٩٢ .
(٣) فى تفسيره ١ / ٣٤١ .

والمعنى : قل لهم ـــ يا محمد ـــ من كان عدواً لجبريل فهو عدو لله ؛ لأن جبريل ما جاء بهذا الكتاب من عنده ، بل من عند الله ، وإنما ينزله بأمره تعالى مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية ، ومصدقاً لكتابهم نفسه ، وهدى من الضلالة وبشرى للمؤمنين بالجنة .

من كان عدواً لله وملائكته ، وخاصة جبريل وميكال ، ورسله ، وخاصة عيسى ومحمد ـــ عليهما الصلاة والسلام ـــ فإن الله عدو له ، ومجازيه أشد الجزاء ، لأن العداوة لكل من هؤلاء كفر ، وجزاء الكفر الخلود فى النار .

* * *

المبحث الثالث

إنكارهم أن القرآن منزل من عند الله على محمد ﷺ

وغرضهم بذلك الطعن فى كونه معجزة للنبى ﷺ ، فعن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : « قال ابن صوريا الفطيونى[1] لرسول الله ﷺ : يا محمد ، ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك ، فأنزل الله فى ذلك قوله : ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾[2] .

والمعنى : ولقد أنزلنا إليك ــ يا محمد ــ آيات واضحات الدلالة على معانيها ؛ لأنها لإعجازها ، وبقرن المسائل الاعتقادية ببراهينها لا تحتاج إلى دليل آخر ، كالضوء يظهر الأشياء ، وهو ظاهر فى نفسه ، وما يكفر بها إلا الخارجون عن الفطرة ، والمارقون عن دين الله .

* * *

---

(١) الفطيونى : كلمة عبرانية تطلق على كل من تولى أمر اليهود ، وملكهم .

(٢) ذكر ذلك ابن كثير فى تفسيره ١ / ١٣٣ ، والآية ٩٩ من سورة البقرة .

المبحث الرابع

إنكارهم أخذ الميثاق عليهم بالإيمان بمحمد ﷺ

فقد قال مالك بن الصيف ــ حين بعث رسول الله ، وذكر ما أخذ عليهم من الميثاق ، وما عهد إليهم فى محمد : والله ما عهد إلينا فى محمد ، ولا أخذ علينا ميثاقاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾[1] .

والمعنى : أكفروا بالآيات وقالوا ما قالوا ، وكلما عاهدوا الله ورسوله ، أو المسلمين ، أو غيرهم عهداً نبذه جماعة منهم ؛ لأن معظمهم لا يؤمن بحرمة عهد ، ولا بقداسة ميثاق ، وفيه من أخبار الغيب أن أكثرهم لا يؤمنون بالنبى ﷺ، ولا يوفون بعهودهم .

* * *

(١) لباب النقول للسيوطى ١ / ١٦ ، والآية ١٠٠ من سورة البقرة .

المبحث الخامس

إنكارهم لمعجزات النبى ﷺ توسلاً إلى إنكار رسالته

فقد قالوا : إنهم ما تركوا الإيمان بمحمد حسداً له ، ولا بغضاً فيه ، وإنما تركوا الإيمان به ، لأنه لم يأت بالمعجزات التى أتى بها الأنبياء السابقون ، فهو ليس نبياً صادقاً فى زعمهم ، وقد حكى الله قولهم ، ورد عليهم بما أفحمهم ، فقال تعالى : ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين** ﴾[1] .

والمعنى : أن اليهود يقولون : إن الله عهد إليهم فى كتابهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق من أمته بصدقة فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء فتأكلها ، وقد أمر الله نبيه أن يرد عليهم بما يفحمهم ويسكتهم ، فقال : قل لهم . قد جاءكم رسل من قبلى أمثال زكريا ويحيى وعيسى ، بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، وبنار تأكل القرابين المتقبلة ، فلم سعيتم فى قتلهم إن كنتم صادقين فى وعدكم بالإيمان بالحق ، وتصديق الرسول عندما يتحقق ما تريدون ؟ .

* * *

(١) آل عمران ١٨٣ .

المبحث السادس

تفضيلهم وثنية المشركين على توحيد المسلمين

فقد أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : « كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، حيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وأبو رافع ، والربيع بن أبى الحقيق ، وأبو عمارة ، وهوذة بن قيس ، وكان سائرهم من بنى النضير ، فلما قدموا على قريش ، قالوا : هؤلاء أحبار يهود ، وأهل العلم بالكتب الأولى ، فاسألوهم ، أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم ، فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه . فأنزل الله : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** ﴾[1] إلى قوله : ﴿ **ملكاً عظيما** ﴾[2] .

الجبت : كل ما خضع له الناس من دون الله من شيطان أو ساحر ، أو كاهن . والطاغوت : كل ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للطغيان ، والخروج عن الحق ، من مخلوق يعبد ، أو رئيس يقلد ، أو هوى يتبع . وروى عن عمر ومجاهد أنه الشيطان .

فهل سمعتم ببهتان وافتراء على الإسلام ـــ دين التوحيد والعمل الصالح والخلق الكريم ـــ أقبح وأشد من هذا ؟ .

---

(١) النساء ٥١ .

(٢) لباب النقول للسيوطى ١ / ٨٢ .

المبحث السابع

طعنهم فى الإسلام والمسلمين

حيث يدعون ــ زوراً وبهتانا ــ أن الإسلام شر الأديان وأن المسلمين أتعس حظاً من غيرهم فى الدنيا والآخرة ، وقد حكى الله بهتانهم وذكرت السنة افتراءهم ، ورد الله كيدهم فى نحورهم ، وذكر أنهم أسوأ الناس خاتمة ونكالاً ، وشرهم جزاء وعذاباً فقال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل** ﴾[1] .

سبب النزول : أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود ، فيهم أبو ياسر بن أخطب ، ورافع بن أبى رافع وعازر ، وزيد ، وخالد ، وأزار بن أبى أزار ، وأشيع ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل ؟ .

قال : « أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا لا نؤمن بمن آمن به ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون** ﴾[2] .

---

(١) المائدة ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره ٦ / ١٨٩ ، واللفظ له ، ولباب النقول للسيوطى ١ / ١١٤ .

والمعنى : قل ــ يا محمد ــ لأهل الكتاب هل تعيبون علينا من شيء ، وتنكرون منا إلا إيماننا الصادق بالله ، وتوحيده وإثبات صفات الكمال له ، وإيماننا بما أنزل إلينا وبما أنزل من قبل على رسله ، لقلة إنصافكم ولأن أكثركم فاسقون ، خارجون عن حظيرة الإيمان الصحيح ، والطريق المستقيم فما تعيبونه علينا ليس مما يعاب وينقم منه ، بل يمدح صاحبه ويكرم ، ولكنكم لفسقكم ، وخروجكم من حظيرة الدين الصحيح عبتم الحسن من غيركم ورضيتم بالقبيح من أنفسكم .

قل لهم ــ يا محمد ــ هل أخبركم بما هو شر من عملكم هذا الذى تعيبونه علينا ثواباً وجزاء ثابتاً عند الله ، هو جزاء من طرده الله من رحمته وسخط عليه بكفره ، وانطلاقه فى المعاصى بعد وضوح الآيات ، ومسخ بعضهم قردة وخنازير ، وجعل منهم من عبد الشيطان بطاعته له ، هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شر مكاناً فى الآخرة ، وأكثر ضلالاً عن الطريق المستقيم .

* * *

المبحث الثامن

تعنتهم مع الرسول ﷺ ، ومحاولتهم تعجيزه

فقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعبْ القرظى قال : جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن موسى جاءنا بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح حتى نصدقك ، فأنزل الله ﴿ **يسألك أهل الكتاب** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بهتاناً عظيما** ﴾ فجثا رجل من اليهود ، فقال : ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ، ولا على أحد شيئاً[1] ، فأنزل الله : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** .. ﴾[2] الآية وإليك الآيات التى تحكى بعض جرائمهم :

قال تعالى : ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباًمن السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذتم العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبينا * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا * فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما** . . . ﴾[3] .

معانى المفردات : الصاعقة : هى صوت شديدمزعج يصدر من جهة العلو مصحوب بما فيه هلاك ، من نار تحرق ، أو رياح تدمر ، أو غير ذلك . ثم اتخذوا العجل : جعلوه إلهاً وعبدوه ، والعطف بـ « ثم » للترقى فى الجريمة . لا للترتيب

(١) لباب النقول للسيوطى ١ / ١٠٢ ، والاية ١٥٣ ، ١٥٦ من سورة النساء .
(٢) الأنعام ٩١ .
(٣) النساء ١٥٣ : ١٥٦ .

الزمنى ، لأن اتخاذهم العجل كان من قبل طلبهم الرؤية . سلطاناً مبينا : المراد سلطة ظاهرة قاهرة ، فأخضعناهم له مع شدة تمردهم حتى أمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم : بسبب أخذ الميثاق عليهم . الباب : أى باب القرية التى أمرهم الله بدخولها . سجدا : خاضعين لله . لا تعدوا فى السبت : لا تتجاوزوا حدود الله بالصيد فى يوم السبت . ميثاقاً غليظا : عهداً مؤكدا . فبما نقضهم ميثاقهم : أى فبسبب نقضهم العهود لعناهم . قلوبنا غلف : أى مغلفة بما يمنع عنها فهم ما تقول يا محمد . طبع الله عليها : ختم الله عليها عقاباً لهم . وبكفرهم : أى بكفر اليهود بنبوة عيسى . بهتاناً : أى كذباً يبهت العقول ويحيرها .

والمعنى يسألك — أيها الرسول — أهل الكتاب من اليهود متعنتين ، أن تقيم دليلاً على صدق رسالتك ، فتأتيهم بكتاب خاص ، ينزل عليهم من السماء بصدق رسالتك ، ويدعوهم إلى الإيمان بك ، فإن تعاظمت ذلك فلا تعجل ، فقد سأل أسلافهم موسى أعظم منه ، فقالوا : أرنا الله عياناً ، فعاقبهم الله على ذلك بصاعقة أهلكتهم ، ثم اذكر لهؤلاء جرماً أشد وأفظع ، وهو أنهم اتخذوا العجل وجعلوه إلهاً لهم ، عبدوه من دون الله ، بعدما عاينوا الأدلة التى أظهرها موسى لفرعون وقومه ، ثم عفا الله عنهم بعد توبتهم ، وإنابتهم إليه ، وأيد الله موسى بالحجة الواضحة والكلمة النافذة :

ورفع الله الجبل فوق بنى إسرائيل تهديداً لهم لامتناعهم عن قبول شريعة التوراة حتى قبلوها . وأخذ عليهم الميثاق ، وأمرهم أن يدخلوا القرية خاضعين لله ، وألا يتجاوزوا ما أمرهم بالتزامه من العبادات فى يوم السبت ، ولا يعتدوا فيه ، وأخذ عليهم فى كل ذلك عهداً مؤكدا .

فغضب الله عليهم بسبب نقضهم هذا الميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء ظلماً وعدوانا ، ولا يكون قتلهم إلا كذلك ، وإصرارهم على الكفر بقولهم : قلوبنا مغلفة بما يمنع عنها فهم ما يقول محمد ، وليسوا صادقين فى قولهم هذا ، بل ختم الله عليها عقاباً لهم بسبب كفرهم ، فلا يؤمن منهم إلا قلة ، وغضب الله عليهم بسبب كفرهم بنبوة عيسى ، وافترائهم على مريم افتراء كثيرا يبهت العقول ويحيرها .

المبحث التاسع

جحود اليهود لبعثة النبى ﷺ إليهم

ينكر اليهود أن الرسول محمداً ﷺ بعث إليهم ، ويجحدون ما جاء عنه فى التوراة ، ولا يستحيون أو يخجلون من مواجهة الرسول ﷺ ، بهذا الجحود ، فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا » ، قالوا : ما نعلمه ، قالوا للنبى ﷺ ، قالها ثلاث مرات . . . » الحديث رواه البخارى[1] .

فقد أثبت هذا الحديث أن الرسول ﷺ مرسل إليهم ، كما هو مرسل إلى غيرهم وأن ذلك ثابت فى التوراة ، كما أثبت جحودهم لرسالته إليهم ، مع إيمانهم بها فى قرارة أنفسهم .

وقد سجل القرآن الكريم أن رسالته ﷺ إلى اليهود وغيرهم جاءت بها التوراة وغيرها من كتب الله السابقة ، ولكن اليهود والنصارى لا يعملون بمقتضى ما جاء فيها .

فقال تعالى : ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنــون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾[2] أى الذى يجدون نعته ، وصفته فى التوراة والإنجيل ، قال ابن كثير[3] : هذه صفة محمد ﷺ ، فى كتب

(١) فى ٥ / ١٦٢ .
(٢) الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٣) فى تفسيره ٢ / ٢٥١ .

الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثه ، وأمرهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم . أ هـ

كما شنع القرآن الكريم على اليهود إنكارهم لرسالة نبينا محمد ﷺ إليهم فقال تعالى ــ فى تقريع ونقد لاذع ــ : ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[1].

أي، إن هذا النبى الذى تقولون إنه أرسل إلى العرب خاصة ، ولم يرسل إليكم ، هوذلك النبى المنعوت فى التوراة ، والمبشر به فيها ، فكيف تنكرون نبوته وكتابكم يحض على الإيمان به ؟ .

فما مثلكم فى حملكم التوراة مع عدم العمل بما فيها إلا مثل الحمار الذى يحمل الكتب النافعة الضخمة ، ولا يدرى ما فيها ، ولا يناله منها إلا التعب والعناء من غير انتفاع له بما حمل .

وقال الشيخ زادة :[2] ذم الله تعالى اليهود بأنهم قراء التوراة عالمون بما فيها وفيها آيات دالة على صحة نبوة محمد ﷺ ، ووجوب الإيمان به ، ولكنهم لم ينتفعوا بها مما ينجيهم من شقاوة الدارين وشبههم بالحمار الذى يحمل أسفار العلم والحكمةولا ينتفع بها ، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء فى الانتفاع مع الكد والتعب

ثم بين الله قبح هذا المثل ، وشدة وقعه على من يعقل ويتدبر فقال ﴿ **بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله** ﴾ أى بئس هذا المثل الذى ضرب لليهود مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على نبوة محمد ﷺ ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ لأنفسهم ، إذ هم دسُّوها حتى أحاطت بها الخطيئة ، وأعمت أبصارهم ، ورانت على قلوبهم ، فلم تر نور الحق ، ولم تشعر بحجة ولا برهان ، بل هى فى ظلام دامس ، لا تهتدى لطريق ، ولا تصل إلى غاية .

---

(١) الجمعة ٥ .

(٢) فى حاشيته على البيضاوى ٣ / ٤٩٤ .

المبحث العاشر

ادعاؤهم أنهم أولياء الله من دون الناس

يدعى اليهود أنهم أولياء الله من دون الناس ، وشعبه المختار ، وأصحاب الفضيلة على غيرهم ، فيقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، ويزعمون أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، وأن محمداً وأصحابه فى ضلالة عن الحق .

وقد أكذبهم الله فيما يقولون ، وأبطل مزاعمهم الداحضة بالبراهين الدامغة ، والحجج المسكتة فقال تعالى :

﴿ قل يا أيهاالذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾(1) .

أى قل ـــ يا محمد ـــ لهؤلاء الذين تهودوا ، وتمسكوا بملة اليهودية : إن كنتم أولياء الله وأحباءه حقاً ، وأنكم على هدى من ربكم ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة ـــ كما تدعون ـ ـ فتمنوا من الله أن يميتكم ، لتنتقلوا سريعاً إلى دار كرامته التى أعدها لأوليائه إن كنتم صادقين فى هذه الدعوى فإن من أيقن بأنه من أهل الجنة أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التى هى مقر الأكدار .

قال تعالى ـــ مكذباً لهم ، ومبيناً سوء أعمالهم ـــ وقبح فعالهم : ﴿ **ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم** ﴾ أى ولا يتمنون الموت بحال من الأحوال

---

(1) الجمعة ٦ : ٨ .

بسبب ما قدموه من الكفر والضلال ، والمعاصى وسيىء الأعمال ، وتكذيبهم محمداً ﷺ ، وفى الحديث « والذى نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقى على ظهرها يهودى إلا مات »(١) .

وقال الألوسى(٢) : لم يتمن أحد الموت منهم ، لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه السلام ، فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم ، وهذه إحدى المعجزات . أ هـ

﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ أى عالم بهم وبما صدر عنهم من أنواع الظلم والمعاصى ، وسيجازيهم عليها بأشد أنواع العذاب ، ووضع الظاهر موضع المضمر ذماً لهم ، وتسجيلاً عليهم أنهم ظالمون .

وفى سورة البقرة قال تعالى ـــ مؤكداً لما هنا ، وفاضحاً لهم فى عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم : ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه إبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون** ﴾(٣) .

ثم بين الله لهم أنه لا فائدة من الهروب من الموت ، فإنه آت لا محالة فقال تعالى : ﴿ **قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾(٤)

أى قل لهم ـــ يامحمد ـــ إن هذا الموت الذى تهربون منه وتخافون أن تتمنوه حتى بلسانكم فإنه آتيكم لا محالة ، ولا ينفعكم الفرار منه ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾(٤) لأنه قدر محتوم ، فلا فائدة فى الحذر منه .

---

(١) تفسير القرطبى ١٨ / ٩٦ .
(٢) فى تفسير روح المعانى ٢٨ / ٩٦ .
(٣) البقرة ٩٤ ـــ ٩٦ .
(٤) النساء ٧٨ .

ثم ترجعون بعد مماتكم إلى عالم رب السموات والأرض فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من حسن وسيىء ، ثم يجازيكم على كل بما تستحقون ، وفى هذا ما فيه من التهديد ، وعظيم الوعيد .

هذا : ولله الحمد فى الأولى والآخرة ، وهو العليم الحكيم .

وبعد : فأرجو أن أكون قد قمت ببعض الواجب لدين الحق والقرآن العظيم ، والرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع		الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *





